

جَامِعَةُ الدَّوْلَةِ الْعَرَبِيَّةِ

الْإِذَارَةُ الْيَقْبُ الْيَقْبُ

الْعَالَمُ الْعَرَبِي

مَقَالَاتٌ وَنَحْوُهَا

فِي بَعْضِ شَأْنِهِ السِّيَاسِيَّةِ وَالْعِلْمِيَّةِ

الْكِتَابُ الْأَوَّلُ

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٣٦٨ هـ - ١٩٤٩ م

obeikandi.com

فهرس

صفحة

المقـدـمة :

للدكتور أحمد أمين بك - مدير الإدارة الثقافية ٥

مستقبل العالم العربي في السياسة الدولية :

للدكتور محمود عزى بك ١

الأخطار العسكرية التي تواجه العالم العربي :

للعמיד طه الهاشمى باشا ٩

الاستعمار الأوروبى للعالم الشرقى :

للعالى الأمير مصطفى الشهابى ١٧

كفاح العرب السيامى ضد الصهيونية :

للدكتور محمد عوض محمد بك ٢٨

الكفاح الاقتصادى العربى ضد الصهيونية :

للأستاذ برهان راغب الدجاني ٤١

المغرب العربى :

للدكتور حسين مؤنس ٥١

سياسة أسبانيا في المغرب العربى :

للأستاذ محمد احمد بن عبود ٧٢

الحركات الاستقلالية في المغرب العربى :

للأستاذ علال الفاسى ٨٢

ماذا ينبغى أن يكون موقف العالم العربى إزاء الفلسفة العربية والفلسفة الغربية :

للدكتور جميل صليبا ٩٤

صفحة

- هل يمكن وضع خطة مشتركة للعالم العربي في ترجمة أمهات الكتب الغربية في العلوم والآداب :
للدكتور جواد علي ١٠٤
- المصطلحات العلمية والخطة التي ينبغي أن يسير عليها العالم العربي في تعريبها :
للدكتور داود الجلبى ١١١
- التعاون الأثرى بين البلاد العربية :
للدكتور زكى محمد حسن ١٢١
- اليمين وآثارها :
للدكتور أحمد نغرى ١٢٦
- مقومات الحضارة العربية :
للدكتور سليمان حزين ١٣٦
- الجامعة العربية وأسسها الجغرافية والتاريخية :
للدكتور سليمان حزين ١٤١
- حياة المهاجرين العرب في أميركا — ماذا استفادت وماذا تستفيد منهم البلاد العربية :
الأستاذ حبيب إبراهيم كاتبه ١٥٣

مقدمة

للمدكتور أحمد أمين بك

مدير الإدارة الثقافية

كان مما اضطلعت به الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية نشر آراء كبار الكتاب والفكرين والإخصائيين حول القضايا التي تهتم الأقطار العربية ، والمشاكل التي تواجهها في مختلف النواحي ، عسكرية كانت أو اقتصادية أو سياسية أو اجتماعية أو ثقافية .

وقد استكثبت الإدارة حول هذه المشاكل والقضايا كبار الكتاب في العالم العربي ، فتلقت منهم — مشكورين — هذه الجملة من المقالات والبحوث التي تقدمها للجمهور العربي في هذا الكتاب ، بعد أن قدمت له خلاصة عن بعضها في محطة الإذاعة المصرية .

ولا يفوتنا أن ننبه هنا إلى أن بعض هذه المقالات كتبت في ظروف خاصة أثناء حرب فلسطين ، فدعا ذلك إلى أن يكون لها لونها الخاص الذي يناسب الموقف .

كما ننبه إلى أن الإدارة الثقافية قدرت ما يجب عليها من إفساح صدرها لحضرات الكتاب يكتبون ما يرون مع تمام الحرية ، من غير أن تقيدهم برأي أو توجههم وجهة خاصة ، فذلك أدعى للإفادة والاستفادة .

وترجو الإدارة الثقافية أن تتابع السير في هذا الباب ، وأن يعاونها الكتاب والباحثون بنتيجة أبحاثهم حتى يقف العالم العربي على آرائهم في كل مرافقه ومشاكله ، وحتى يؤسس نهضته الحديثة على دعائم علمية متينة .

والله ولي التوفيق

أحمد أمين

obeikandi.com

مستقبل العالم العربي في السياسة الدولية

للدكتور محمود عزمى بك

انعقد الاصطلاح هذه السنوات الأخيرة على «أن يعتبر عربياً كل من تكلم العربية وأحس العروبة» دون ارتباط بمختلف نظريات الأصول والأجناس، فشمّل «العالم العربي» لا شبه الجزيرة وحدها - - وهى «بلاد العرب» الأصيلة - - ولا شبه الجزيرة مع «الهلال الخصيب» فى شمالها مكتنفاً فلسطين ولبنان وسوريا والعراق وشرق الأردن التى عمرتها من قديم الزمان، على حد رأى علماء الآثار، قبائل سامية نزلت إليها من شبه الجزيرة فى موجات فكونت أقوام كنعان وفينيقيّا وأشور وبابل وما قام وسطها من جماعات، بل ذلك كله وما انبثق بفعل الفتح الإسلامى على امتداد الشمال الإفريقى فى تلاحق وتلاحق من برزخ السويس إلى المحيط الأطلنطى ماراً بمصر وقرقة وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش، ووسط القارة خلال نيجيريا والصومال وزنجبار، وفى بعض أطراف آسيا بين جزر الملايو وأندونيسيا وما إليها من مواطن.

وإن نظرة تلقى على هذا «العالم العربى» الشامل خلال اعتبارات «السياسة الدولية» لتسجل أول ما تسجل ظاهرة «التفاوت» فى السكان بين أجزائه التى تراوحت بين الاستقلال المطلق من التعهدات الخاصة بالنسبة لسوريا ولبنان، والاستقلال المقيد بالتزامات خفيفة بالنسبة للعربية السعودية، وثقيلة بالنسبة لمصر والعراق واليمن، ومرزنة بالنسبة لشرق الأردن، والحماية بالنسبة لتونس ومراكش والكويت والبحرين وعمان ومسقط وسائر المحميات التسع، والاستعمار بالنسبة لمدن ونيجيريا والصومال وزنجبار، والضم بالنسبة للجزائر وبعض ثغور الريف، والدولية بالنسبة لطنجة، والتعليق فى ميزان القدر بالنسبة لليبيا وفلسطين والمناطق الأندونيسية.

وكذلك تسجل تلك النظرة «الدولية» التى تلقى على العالم العربى اختلاف طبيع ذلك التفاوت فى السكان بين أجزائه. فقد تعددت الدول الأجنبية التى تتصل بهذا السكان، وتفاوتت وسائل اتصالها به، وطارات على تعدد تلك الدول وتنوع هذه الوسائل مضاعفات من شأنها أن تفعل فى الطبائع أفعالا متعددة الأثر ومتنوعة معاً. فالانصال قائم بالفعل بين

أجزاء العالم العربى ودول بريطانيا وفرنسا وإسبانيا وهولندا ، وهو متحفز للقيام بينها وبين الولايات المتحدة الأمريكية بحكم « دور الإشراف العالمى » الذى تود أن تقوم به الدولة « المنتصرة العظمى » ، وهو محل سعى لبعثه من جديد بينها وبين إيطاليا عن طريق الحل الذى تريد الدول العظمى أن تنال منه لمشكلة « المستعمرات » السابقة ، وفيها برقة وطرابلس والصومال ، وهو محل اقتحام من ناحية الاتحاد السوفيتى خلال محاولات المساهمة فى تنظيم شئون فلسطين . ولكل من تلك الدول جميعها اتجاهات ومصالح خاصة قد يتقارب بعضها وبعضها الآخر حيناً وقد يتنافران بالذات حيناً آخر فيفعل التقارب ويفعل التنافر أفعالا متناقضة وغير منسجمة فى السكيان العربى وفى علاقات العالم العربى بسائر عوالم السياسة الدولية .

وإلى هذا ، فإن لكل وحدة من وحدات العالم العربى مشاكلها الدولية الخاصة التى تتميز طبائعها ويتميز موقف الدول الأجنبية إزاءها ، بل الدول العربية ذاتها المتصلة بها . فلسوريا المطلقة من القيود الدولية الخاصة مثلاً خلفها القائم بينها وبين تركيا على لواء الأسكندرونة ، ولها وللبنان خلافهما فيما بينهما وبين فرنسا حول النقد وتصفية العلاقات المالية المترتبة على انقضاء عهد الانتداب ، ولليمن إشكالاتها مع إنجلترا حول المحميات ، وللعربية السعودية خلافها مع شرق الأردن ذاته على « العقبة » التى يزعمها كل منهما لنفسه ، ولمصر ثورتها على إنجلترا بسدد الجلاء عنها وبسدد السودان ، وللعراق إلى مشكلة معاهدته مع بريطانيا مشكلة إقليم « عريستان » الذى يريد انتزاعه من إيران ، ومشكلة الأكراد الذين يطالبون باستقلالهم الذاتى على الأقل ، وشرق الأردن مطمعه السافر حيناً والكامن دائماً فى تحقيق مشروع اتحادهم بالعراق وبسوريا الكبرى ، ولتنونس والجزائر ومراكش نزعتها الاستقلالية ، ومضاعفات المطالب الأمريكية المتصلة باقتصاديات البلاد وبمواقفها الاستراتيجية المطلة على المحيط الأطلنطى وعلى البحر المتوسط ، وقد تراضت إنجلترا والولايات المتحدة ، وقد تكون فرنسا وإسبانيا أيضاً فى تراض - على اعتبارها من خط « الدفاع » الأول عن نصف الكرة الغربية ، أو خط الهجوم منه ... ، ولليبيا نزعتها إلى الاستقلال والوحدة هى الأخرى وما يطرأ عليها من مضاعفات الرغبة البريطانية فى استخلاص برقة والنفوذ البريطانى ، والرغبة الفرنسية فى إلحاق « قران » بالداخل الجزائرى ، والتبليل الدولى بالنسبة لطارلس ، هل توضع تحت وصاية هيئة الأمم المتحدة بحيث يغلب فيها النفوذ الأمريكى الاقتصادى والاستراتيجى ، أو النفوذ الإيטالى ، يقتسمه النفوذ الأمريكى أو النفوذ السوفيتى ، وفلسطين أزمته الزمنية ، هل تقوم فى جزء

منها دولة مستقلة لإسرائيل ، أو يقوم فيها نظام « فدرالى » للمنطقة اليهودية فيه حكم ذاتى مميز ، أو يكون الحكم فيها حكم الدولة الموحدة لا تعتبر فيها اليهودية إلا ديناً من الأديان ولا يعتبر معتنقوه إلا أقلية من الأقليات لها حقوق سائر الشعب الدينية فى الوطن الديموقراطى الحديث ، أو تتسع رقعتها بحيث تمتد إلى شرق الأردن أو تمتد إليها شرق الأردن فتصبح « فلسطين الكبرى » وتوضع كلها تحت تاج الملك عبد الله الهاشمى ... وهما يكن المصير التى تؤول إليه ، فهل تنفرد بريطانيا بالنفوذ فيها أو تقاسمها إياه الولايات المتحدة الأمريكية أو تستطيع المحاولات السوفيتية أن تجد لها ثغرة تنفذ خلالها ويصبح الاتحاد السوفيتى هو الآخر فى ذلك النفوذ نصيب .

ذلك هو الوضع الذى يحتله العالم العربى فى عباب الخضم الدولى ، ولكنه لا يحتله مستقلاً للأموال تتقاذفه ، بل يحتله مجاهداً فى سبيل شق طريقه إلى شاطئ السلامة وضاف الاستقرار . ولعل أبرز نشاط فى هذا المضمار إنما هو تأليف « جامعة الدول العربية » بميثاقها الموقود فى الثانى والعشرين من شهر مارس سنة ١٩٤٥ . فقد قامت بهذا التأليف هيئة من الدول العربية المستقلة غرضها « توثيق الصلات بين الدول المشتركة فيها وتنسيق خططها السياسية تحقيقاً للتعاون بينها وصيانة لاستقلالها وسيادتها والنظر بصفة عامة فى شئون البلاد العربية ومصالحها » ، فوجدت بقيامها نواة التكامل الذى يربط بين أجزاء « العالم العربى » كله ، ويوحد بين أسباب نهوضها وأساليب احتلال السكان اللاتق بها فى الخطيرة الدولية جميعاً . فهى إن ألقت من « الدول العربية المستقلة » وحدها فقد ذهبت بأغراضها إلى حد « النظر بصفة عامة فى شئون البلاد العربية ومصالحها » جميعاً ، ولم تكف بتضمين المادة الثانية من ميثاقها النص على هذا « النظر » الشامل فى عموم ، بل راحت تخص به ملحقات معينة من ملاحق ذلك الميثاق سجلت فيه بصريح العبارة أن « الدول المشتركة فى الجامعة ستباشر فى مجلسها وفى لجانها شئوناً يعود خيرها وأثرها على العالم العربى كله » وأن مجلسها « لا يدخر جهداً لتعرف حاجات البلاد العربية غير المشتركة فيه وتفهم أمانها وآمالها » ويعمل بعد ذلك على صلاح أحوالها وتأمين مستقبلها بكل ما تهيئه الوسائل السياسية من أسباب .

وإذا كان الساعون إلى تأليف « جامعة الدول العربية » من مفكرى العرب وقادتهم وحكامهم قد قصدوا أول ما قصدوا إلى إقامة هيئة « توفيق بين الاتجاهات » على غرار

« جامعة الدول الأمريكية » تهدف إلى « تعاون الدول المشتركة فيها تعاوناً وثيقاً بحسب نظم كل دولة منها وأحوالها في الشؤون الاقتصادية والمالية ، وشئون المواصلات والثقافة والجنسية ، والشؤون الاجتماعية والصحية » فإن الظروف العالمية التي اكتنفت مولد « الجامعة العربية » قد كانت أوسع أفقاً من الظروف التي اكتنفت مولد « الجامعة الأمريكية » فعاونت على أن تبعد من مدى نشاطها وطاوعت على أن تزيد من خطوات تطورها في الحظيرة الدولية ذاتها .

فقد وقع على ميثاق « جامعة الدول العربية » في الوقت الذي كان يجتمع فيه مؤتمر سان فرانسيسكو لإقرار ميثاق هيئة الأمم المتحدة . فدعا هذا التوافق إلى إضافة مهمة إلى مهام مجلسها هي « تعزيز وسائل التعاون مع الهيئات الدولية التي تنشأ في المستقبل لسكفالة الأمن والسلام ولتنظيم العلاقات الاقتصادية » . . . وقد نص في ميثاق الأمم المتحدة على قيام « منظمات إقليمية » يعهد إليها بشئون الأمن والسلام في مناطقها المحلية ، كما نص على قيام المجلس الاقتصادي والاجتماعي « هيئة من هيئات الأمم المتحدة » يكون له اتصال بمنظمات إقليمية في ميدان الاقتصاد والاجتماع ، كما يكون لمجلس الأمن في ميدان الأمن والسلام ، وشاءت القادير بعد ذلك أن تعرضت أمور بعض البلاد العربية للامتعتان ، فبدا التضامن بينها جميعاً على خير ما يكون ، وصهرت جامعة الدول العربية بأمتن ما يكون من طبائهم التدعيم ، وظهرت « الكتلة » العربية في اجتماعات « الأمم المتحدة » بأروع ما يكون من مظاهر في قضايا سوريا ولبنان ومصر وفلسطين .

وكان من جراء ذلك كله أن سارت « الجامعة العربية » في طريق « الوقائع » الدولية إلى أن اشتدت « الأزمة الفلسطينية » فاستدعت التدخل المسلح من جانب دول تلك الجامعة للضرب على أيدي العصاة من الخوارج والناشرين ، ولإقرار الأمن والسلام في ركن من أركان العالم العربي ، فكان هذا التدخل بلوغاً بجامعة الدول العربية إلى نهاية طريق تلك « الوقائع » الدولية ، إذ أصبحت بفعله « منظمة إقليمية » من المنظمات التي نص عليها ميثاق « الأمم المتحدة » ، وإذا عترف « مجلس الأمن » بكيانها وشخصيتها ، فقد أوفد إليها « مندوبه » لإقرار الهدنة والسعي بواسطتها للوصول إلى حل سلمي لها هدد الأمن في هذا الركن من أركان العالم ، والاجتماع بلجنةها السياسية والاستعانة بمن يختارهم من الوسطاء والمتصلين والخبراء ، فاستكملت شرائط الوجود والعمل ، وأنحت « حقيقة » من حقائق النظام الدولي المقرر في هذا الزمان .

وإذا كانت « فلسطين » التي أسبغت أزمته على الدول العربية نعمة استكمال شرائط « الحقيقة الدولية المقررة » معتبرة واحدة من دول تلك الجامعة بحكم الملحق الخاص بها في ذيل الميثاق — وقد أقر بأن « وجودها واستقلالها الدولي من الناحية الشرعية أمر لا شك فيه » ، وإنه « إذا كانت المظاهر الخارجية لذلك الاستقلال ظلت محجوبة لأسباب قاهرة ، فلا يسوغ أن يكون ذلك حائلا دون اشتراكها في أعمال مجلس الجامعة » — فإن مجلس الجامعة وأمانتها العامة قد استطاعا أن يمدا من أفق الجامعة إلى حيث يشمل غير أعضائها وغير دولها بالذات . فالاتصال بين الأمانة العامة وفرنسا مثلا يجري بين الوقت والوقت في صدد بلاد المغرب ، وبينها وبين لجنة التحقيق الدولي أو مجلس وزراء الخارجية الأربعة بشأن ليبيا ، وكذلك فإن المنطقة الخليجية الراكشية وبعض البلاد العربية الواقعة على الخليج الفارسي أو المحيط الهندي ممثلة بالفعل ومساهمة في أعمال بعض لجان الجامعة ولاسيما الثقافية منها . وهذا وذاك يضيفان على جامعة الدول العربية نوعا من أنواع صفات التميز والاستقرار في الحظيرة الدولية قصد تحقيق الاعتبارات التي أشير إليها في ديباجة الميثاق من « تثبيت العلاقات الوثيقة والروابط العديدة بين الدول العربية ، والحرص على دعم هذه الروابط وتوطيدها على أساس احترام استقلال تلك الدول وسيادتها ، وتوجيه الجهود إلى ما فيه خير البلاد العربية قاطبة ومصالح أحوالها ، وتأمين مستقبلها وتحقيق أمانها وآمالها ، واستجابة الرأي العربي العام في جميع الأقطار العربية » .

والحق أن تلك الصفات التي ذكرنا ، صفات التميز والاستقرار في الحظيرة الدولية ، التي أضفتها تطورات الحوادث على جامعة الدول العربية ، قد تفاعلت مع ما كان يجيش في صميم « الآراء العامة » للعالم العربي من مصالح وأهداف فصقلت وعى هذه « الآراء » ودفعتها إلى التفكير في إقامة صرح عالمي على أسس متينة مستندة إلى اعتبارات السياسة الدولية الصميعة السليمة .

وواقع هذه الاعتبارات هو أن « الأمم المتحدة » من ناحية فاعلة ، وأن قيامها من ناحية أخرى تمتوره صواب تحول دون تأدية رسالتها على الوجه السكامل ، والمعروف أن كمال هذه الرسالة إنما هو في توفير « الأمان الجماعي » عن طريق مجلس الأمن المتضامنة عناصره تضامنا أكيدا ، والملاحظ أن هذا التضامن غير متوافر ، بل إن عدم الثقة هو الأصل الذي تبدى أن العلاقات الدولية لا تزال ترجع إليه .

وقد نشأ عن ذلك الواقع البادى فى ميدان السياسة الدولية أن الاتجاه إنما هو إلى تقابل كتلتين يجتهد كل واحدة منهما فى «تكتيل» أكثر عدد من الدول فى حظيرتها استعداداً للتصادم أو درءاً لهذا التصادم ، كما نشأ إحساس عند كثير من الدول «المتوسطة والصغيرة» أنه لا مصلحة لها فى ذلك التقابل ، بل تبين لديها أن مصلحتها الحقيقية فى ألا يقع هذا التقابل الذى قد تكون هى ميدانه وأن تستعد من جانبها للملاقاة أخطاره .

وكانت «جامعة الدول العربية» من أولى مجموعات تلك الدول المتوسطة والصغيرة «التي أحست ذلك الإحساس وتبينت ذلك التبين فلم يتردد أمينها العام فى أن يواصل التصريح بالتصريح معلناً أن «الجامعة» تود الاحتفاظ بحيادها وسط ذلك التقابل بين الكتلتين ، وأنها إذ تضطرها الظروف إلى الانضمام إلى واحدة منهما دون الأخرى فإنما هى مصلحتها وحدها التى تولى عليها اختيار الناحية التى تنضم إليها حين يقع التصادم وحين تبين المصلحة . وكذلك اعتصمت سوريا واعتصم لبنان معها بانطلاقهما من قيود المعاهدات الثنائية .

على أن الجامعة العربية تعرف أن الزمن ليس زمن اتجاهات سياسية وحسب ، بل إنه لا يزال كذلك زمن تدعم هذه الاتجاهات السياسية بالقوات المادية التى يؤثر فيها التكتل على التفرد . ففكرت فى إقامة «حلف عسكري» بين أعضائها ، تقدم باقتراحه رئيس وزارة سوريا من شهور وجاءت حوادث فلسطين تدعمه تدعياً وتبرخ بضرورته صراخاً . وعمل النشراك فى الجهاد والتأخى فى التضحية بالأرواح أبرك عمل «للقضاء» على ما كان يشوب بعض العلاقات من شوائب توطئة لإبرام ذلك الحلف العسكرى المتوج لما رمزت له جامعة الدول العربية من حلف سىامى .

وإذن فقيام «الكتلة العربية» أمر واقع لا شك فيه ورغبته فى التميز عن الكتلتين المتقابلتين فى عالم السياسة الدولية واضحة أكيدة . وتشاء الأقدار أن تجاور هذه الكتلة العربية أقطار من الدول «المتوسطة والصغيرة» أيضاً تحس إحساسها وتبين مصلحتها بالنسبة للكتلتين المتقابلتين كذلك . فترنو هذه الأقطار بأبصارها إلى «الحقيقة» الدولية الجديدة وهى حقيقة «جامعة الدول العربية» ، وتود لو وفقت إلى وسيلة من وسائل الارتباط بها ، فترداد جميعها قوة وتتمكن معها من التميز والاستقرار فى العالم الدولى المتلاطم . والواقع أن بين العراق وبين تركيا وإيران وأفغانستان ميثاق تحالف أو عدم اعتداء هو «ميثاق سعد أبادة» ، ومن البين أن تمتد نطاقه إلى سائر دول الجامعة العربية عن طريق العراق ذاته ، فيشمل مصر وسوريا ولبنان والعربية السعودية وشرق الأردن ولبنان ، وليس عسيراً عسر استحالة

أن يسوى بين ما سوريا وتركيا من خلاف حول الإسكندرونة ، ولا ما بين العراق وإيران من خلاف حول عربستان . وأفغانستان لا تترك فرصة تمر منذ قيام جامعة الدول العربية دون الاتصال بها وإظهار جميل عواطفها نحوها . وتركيا وإيران وأفغانستان متفتحات في الإحساس بأنها محل منافسة بين « الكتلتين » وبأن طريق الخلاص الوحيد لها جميعاً إنما هو بالوقوف موقف الحيدة المطلقة من الائتئين . وقد ضربت تركيا وإيران في ذلك بسهم ، إذ جرت تقاليدهما بالارتباط بمحالفتين والاستعانة « بالصدائتين » مع روسيا من ناحية وأنجلترا والولايات المتحدة من ناحية ثانية .

وبهذا يتكيف — في نظري — المستند إلى وقائع الحوادث — مستقبل العالم العربي في السياسة الدولية :

منظمة إقليمية تلتف حولها دول الشرق الأوسط تسهر على الأمن والسلام في ركنها من أركان العالم .

مجموعة من الدول « المتوسطة والصغيرة » حريصة على الحيدة بين الكتلتين المتقابلتين المعكرتين صفو العلاقات في العالم .

هيئة حائلة بذلك دون قيام حرب « عالمية » ثالثة ، ولا سيما أن الهند آخذة من جانبها بفكرة الحيدة والابتعاد عن الالتزامات العالمية المسلحة .

وإنه لمستقبل جدير بفخر العروبة والماملين لها جميعاً ، إذ يقطو على رسالة من أنبل الرسائل تبعث في نفوس المشاركة روح الإحساس بكيانهم ، وتقف بالشرق الأوسط موقف الحيولة دون اندلاع لهيب حرب يعرف الناس جميعاً أنها إن وقعت فلن تبقى في العمورة على أخضر ولا على يابس ، وتعود بالبشرية إلى سبل الوثام والاهتمام بالحضارة الخيرة .

أما بعد ، فذلك هو مستقبل العالم العربي في السياسة الدولية على ما ألمح خلال الأوضاع التي سقتها متصلة بوقائع الأمور فيما أتبينه من أفق دولي صافية سماؤه وواضحة مرثياته . لكن تحقيق هذا المستقبل الذي ارتأيته رهين بأوضاع أخرى متصلة بوقائع أمور أخرى تتبين في أفق العالم العربي ذاته ، ومن شأن قيامها أن تتفاعل عناصر هذا العالم مع عناصر تلك السياسة الدولية وينتج تفاعلها إفادة العالم العربي مما تهيشه له الملابس الدولية .

وإنما أعني بهذه الوقائع الأخرى التي يجب أن تحمل مكانها في العالم العربي كي يتم التفاعل وتحصل الإفادة ويحقق المستقبل المرجو ، توافر العلم الصحيح بمجريات الشؤون الدولية عند

القادة والزعماء أنفسهم ، وسرعة الإحساس بتطورات هذه المجريات حتى لا تضيع الفرص التي تهيئها هذه التطورات ، وأخذ الأمور العامة بالجد الذي تستأهله حتى تأخذ البيئات الدولية العالم العربي بالجد الذي يعين على تفاعل عناصره بعناصر هذه البيئات ، وأخيراً ، بل قبل هذا كله ، الإقدام في حزم على استكمال شرائط الوجود الحيوى والخلق ، وما يستلزمه من كيان اقتصادى واجتماعى وثقافى داخل كل بلد من بلاد العالم العربى .
عندئذ تتكاتف طبائع الأشياء وطبائع الأشخاص على شق الطريق المستقيم لمستقبل مزدهر للعالم العربى فى السياسة الدولية .

محمود عزمى

الخطط العسكرية التي تواجه العالم العربي وكيف يتقيها

للمعيد طه باشا الراسمي

يجدر بنا قبل البحث في هذا الموضوع أن نحدد ، ونضع له إطارا لا يتعداه البحث لأن الموضوع الذي نعالجه يشبه إلى حد ما المواقف الحربية التي يعالجها رؤساء أركان الجيوش في وقت السلم لتقدير الخطة التي تسير عليها البلاد في حالة تعرضها لخطر الحرب . فالمعالجة وهي تقدير الموقف كما يعبر عنه عسكريا تساعد على وضع الخطة الحربية التي تجري بموجبها الحركات الحربية في زمن الحرب .

وكان المارشال مولتكه رئيس أركان الجيش البروسي في منتصف القرن الثامن عشر أول من انتبه إلى معالجة المواقف العسكرية ووضع الخطط الحربية في وقت السلم فافتدى به بعد ذلك رؤساء أركان الجيوش في الدول الأخرى ، وأخذوا يضمون الخطط الحربية في وقت السلم ويحورونها كلما اقتضى ذلك تبدل الموقف السياسي والوضع العسكري .

ونحن في معالجتنا الموضوع نريد أن نسلك إلى حد ما الطريقة المتبعة في وضع الخطط الحربية ويلوح لنا أننا نستطيع بذلك أن نحدد الموضوع .

الموقف السياسي :

لا ريب في أن العالم سائر إلى الحرب ، والحرب لا بد من نشوبها بين المجموعتين العالميتين أي المجموعة الروسية والمجموعة الأنجلوسكسونية ، أو بالأحرى روسيا ومن تبعها من الدول من جهة وأمريكا وإنجلترا من جهة أخرى .

ويلوح لنا أن من أهم أسباب التأزم العالمي الذي أخذ يشتد كثيرا هو فقدان التوازن السياسي أو بتعبير آخر فقدان وجود دولة عازلة تستطيع بانضمامها إلى أحد الفريقين المتنافسين أن توقف المنافسة وتحول دون نشوب الحرب . ولو كانت الحرب انتهت ببقاء ألمانيا محتفظة ببعض قواتها لما بلغت المنافسة بين الفريق الروسي والفريق الأنجلوسكسوني الحد الذي

نشاهده الآن ، لأن مجرد انضمام ألمانيا إلى أحد الفريقين كان يجعل الفريق الثانى يفكر كثيرا قبل الإقدام على الحرب . زد على ذلك أن خروج ألمانيا من الحرب محتفظة ببعض قواتها كان من غير شك يحول دون توسع نفوذ روسيا إلى وسط أوروبا وتغلغله بهذا الشكل المخيف . لا نريد أن نعلم من هو الحق فى هذه المنافسة ... هل الفريق الروسى الذى يزعم أنه يريد أن ينقذ الشعوب المستضعفة من نير الاستعمار ؟ أو الفريق الأنجلوسكسونى الذى يدعى أنه يريد أن ينقذ العالم من أخطار الشيوعية ؟ وإذا ما صدق كلا الفريقين فى بعض دعاوئها فليس من شك أن فى ادعائهما نواحى لا يطمئن إليها البال ، فروسيا مثلا تزعم أن الفريق الأنجلوسكسونى يعد العدة لإقامة الحصار حولها ، ويسمى لتأليب دول العالم ضدها ، لهذا ليس فى كل ما تتخذه من تدابير سياسية فى شرق أوروبا سوى إبعاد خطر الحرب عن بلادها واتخاذ الحيلة للدفاع عنها عند الحاجة ، على حين أننا نرى الفريق الأنجلوسكسونى يحذر العالم من السياسة الاعتدائية التى تسلكها روسيا ، ويرى فى امتداد نفوذها إلى وسط أوروبا خطرا على الحضارة الأوروبية . أما الذى يتتبع سير الحوادث فيرى أن روسيا فى مزاعمها تريد أن تخفى السبب الذى دفعها منذ قرون إلى التوسع والنزول إلى ضفاف الأبحر الحارة ، سواء فى الشرق الأوسط أو فى الشرق الأقصى . وهناك سبب آخر له خطورته فى الحرب والسلم وهو الاحتفاظ بمناجم الزيت من جهة والحصول على منابع أخرى من جهة ثانية . أما الفريق الثانى فيخفى وراء ادعاءاته الهدف الأسمى من منافسته لروسيا وهو الحيلولة دون نزول الأسطول الروسى إلى الأبحر الحارة من جهة وإبعاد روسيا عن منابع زيت البترول فى الشرق الأوسط من جهة أخرى . وثم سبب آخر يتجلى بالمذهب الاقتصادى الذى يدين به كل من الفريقين ، والواقع أن كلا من المذهبين لا يرى سلامته إلا بالقضاء على المذهب المنافس له . إذن فى مثل هذه المنافسة المتأصلة ، ولا سيما إذا كان الفريقان المتنافسان يتساويان فى القوى أو يكادان ، لابد من نشوب حرب بينهما . لهذا نعود فنقول إن الحرب لابد من وقوعها آجلا أو عاجلا .

دار الحرب :

نقصد بتميير دار الحرب البلاد التى تجرى فيها الحرب فى حالة نشوبها بين الفريق الروسى والفريق الأنجلوسكسونى ، والواقع أنه إن الصعب تحديد دار الحرب فى حرب تقع بين روسيا وتوابعها وأجملتها وأمريكا وتوابعها بعد أن أصبحت القوات الجوية العامل الأول

في اكتساب النصر ، فليس من ريب في أن العالم بأجمعه سيصبح دارا للحرب في هذه الحرب .
لقد قال تشمبرلين رئيس الوزارة البريطانية الأسبق قبل نشوب الحرب الأخيرة إن نهر
الرين حدود إنجلترا . أما الآن ففي استطاعة المستر آتلي أن يقول إن اليونان والعراق حدود
بريطانيا ، أما ترومان فيوسعه أن يقول إن بلاد الصين حدود أمريكا . ومع ذلك ما دامت
الحرب لا تنتهي إلا باشتراك القوات الأرضية فلا بد إذن من تحديد دار الحرب في حالة اندلاع
لهيب الحرب .

والحقيقة أنه على الرغم من عدم وجود حدود مشتركة بين روسيا وأمريكا فإن القوات
الروسية والقوات الأنجلوسكسونية ستقف وجها لوجه في الحرب التي ستنشعب ، ذلك لأن
الجيش الأنجلوسكسونية من جهة والجيش الروسية من جهة أخرى ما تزال تحتل ألمانيا ،
فضلا عن أن إنجلترا حليفة لتركيا واليونان ، وأن لإنجلترا بموجب المعاهدات مع بعض الدول
العربية قواعد عسكرية في الشرق الأدنى وما تزال قواتها تحتل قناة السويس ، وهي بحكم
الحلف والمعاهدات ستسرع إلى نجدة تركيا واليونان ، وستستخدم القواعد العسكرية في
العراق وشرق الأردن وقناة السويس ، أما أمريكا فاستنادا إلى حلفها مع إنجلترا سترسل
قواتها إلى تركيا واليونان وتستخدم قواتها العسكرية في بلاد العرب . إذن لا بد من احتلال
القوات الأنجلوسكسونية هذه القواعد العسكرية في حالة الحرب ، أما الأقطار العربية التي
لا يحق للقوات الأنجلوسكسونية أن تستفيد من مرافقها العسكرية في وقت السلم كسوريا
ولبنان فلا بد أن نجبر على الوقوف إلى جانب الفريق الأنجلوسكسوني شاءت أم أبت . ولكي
نفهم الأسباب التي تضطر الدول العربية إلى أن تصبح بلادها قاعدة للحركات العسكرية
ينبغي لنا أن نشير إلى الأهداف التي يتوخاها كل من الفريقين المتخاصمين .

أهداف الحرب :

أصبحت سياسة روسيا بعد الحرب سياسة ترمي إلى التوسع من جهة وبسط نفوذها
في البلاد المجاورة من جهة أخرى ، فقد شارفت روسيا ببلادها بلاد البaltic ، وامتلكت
نصف بولونيا ، واستولت على شرقي بروسيا ، واحتلت شمال كوريا ، واقتطعت من فنلندا
بعض مقاطعاتها ، وهذه الأعمال ضمنت روسيا بعض أهدافها في التوسع ، وبفرضها النظام
الشيوعي في رومانيا وبلغاريا ويوغوسلافيا وهنغاريا وبولندا قد بسطت نفوذها في شرقي أوروبا .
وبإخضاعها تشيكوسلوفاكيا على قبول النظام الشيوعي مدت يدها إلى وسط أوروبا ، وبمساعدها

الشيوعيين الصينيين في بلاد الصين بسطت سلطانها في شمال الصين . هكذا أنجزت روسيا أهدافها في بسط نفوذها على البلاد المجاورة لها ، وما تزال ترى إلى اقتطاع الولايات التركية المتاخمة لبلاد القفقاس ، وتأسيس قواعد عسكرية في المضائق التركية ، وتريد أن تبسط نفوذها في إيالة أذربيجان الإيرانية ، فروسيا يسيرها على هذه السياسة التوسعية تريد في الوقت ذاته إبعاد مصائب الحرب عن بلادها والوصول إلى أهدافها ، ولقد استطاعت أن تبعد بلادها عن مصائب الحرب ببسط نفوذها على بولونيا وتشيكوسلوفاكيا ، واستيلائها على نصف ألمانيا وبذلك جعلت المطارات التي ترسل الطائرات القاصفة إلى بلادها بعيدة عن حدودها . بيد أن أنحياز تركيا واليونان إلى جانب إنجلترا واحتلال القوات البريطانية للقواعد العسكرية في العراق وشرق الأردن عرض منابع البترول في بلاد القفقاس للخطر وقرب مصائب الحرب من بلادها .

لهذا تستهدف روسيا في عملياتها الحربية الصمود في وجه الزحف الأنجلوسكسوني في وسط أوروبا من جهة والهجوم على بلاد تركيا وبلاد إيران من جهة أخرى . وإذا ما نجحت روسيا في حركاتها الهجومية هذه تكون قد توصلت إلى أهدافها الحربية بامتلاكها المضائق التركية والنزول إلى شواطئ البحر المتوسط .

أما الفريق الأنجلوسكسوني فينبغي له ، لكي يمنع روسيا من تحقيق أهدافها الآتية الذكر أن يسرع إلى نجدة تركيا واليونان ، ورغم إيران على فتح حدودها للجيش البريطاني والأمريكي لكي تحول دون توغل روسيا في بلاد إيران ، وفي كلتا الحالتين أي في حالة الإصرار إلى نجدة تركيا وفي حالة دخول الجيوش في بلاد إيران لا بد أن تصبح البلاد العربية قاعدة لحركات الجيوش الأنجلوسكسونية ، لأن الجيوش المذكورة ستنزّل إلى ميناء حيفا وتعمر بالأردن والعراق للذهاب إلى إيران ، كما أن الجيوش التي تسارع إلى نجدة تركيا ينزل بعضها إلى بيروت وطرابلس الشام وعمر بلبنان وسوريا . وهكذا يتضح لنا أن البلاد العربية ستجرف إلى الحرب بمرور الجيوش البريطانية من شرق الأردن والعراق ، واستخدامها للقواعد العسكرية فيهما بحكم المعاهدات ، واتخاذ لبنان وسوريا قاعدة لحركاتها بالحجة والإقناع أو بالجبر والإكراه — زد على ذلك أن البلاد العربية ستصير قواعد صالحة للطيران ، إذ أن أسراب الطائرات ستنزّل إلى مطاراتها سواء في سوريا أو في العراق أو شرق الأردن ، وتحمل القنابل إلى بلاد روسيا ، كما أن سد الزحف الروسي في إيران يضطر القوات الأنجلوسكسونية إلى حشد القوات فيها . أما الجانب الروسي فيرى في إيران هدفاً حريياً ممتازاً فيستهدف مهاجمتها

لطرده القوات السكسونية منها والاستيلاء على منابع البترول الفنية فيها ، والبترول كما نعلم من أول العناصر في الحرب .

إذن لا مناص من أن يواجهه العالم العربي أخطار الحرب في المستقبل ، والغريب أنه يتعرض لأخطار لا ناقة له فيها ولا جمل . ومن المؤسف أن البلاد العربية بوضعها الراهن عاجزة عن أن تبعد عنها أخطار الحرب :

أولاً — لأن جيوشها ضعيفة من حيث التنظيم ، وليس لها معدات كافية ، وليس فيها مصانع ومعامل لتكوين الجيوش وهي مفتقرة في هذه الناحية إلى مساعدة الأجنبي ، وبلاد وضعها العسكري على هذا الشكل لن تستطيع المحافظة على حيادها . وقد استطاعت تركيا في الحرب الماضية أن تحافظ على حيادها لأن جيشها كان بدرجة من الناعة ، مما جعل الفريقين المتحاربين يحترمان حيادها ، زد على ذلك أن الموقف العسكري العام كان يتطلب من الجانبين بقاء تركيا محايدة لتقتصر جهة الحركات ، والفضل في بقاء تركيا محايدة يعود في الدرجة الأولى إلى قوة جيشها ، لأنه لو كان ضعيفاً لا اكتسحتها قوات الحلفاء كما اكتسحت إيران ولهاجتها القوات الألمانية

ثانياً — ولو تيسر للبلاد العربية جيوش قوية واستطاعت أن تقومها بالصناعات الوطنية لما استطاعت أيضاً أن تبعد أخطار الحرب عنها ما دامت هي محرومة من خطة دفاعية مشتركة تنبثق من حلف عسكري يستند إلى سياسة خارجية موحدة ، فميثاق الجامعة العربية الحالي لم يحقق الوحدة لا في السياسة الخارجية ولا في الدفاع .

ثالثاً — وإذا تماقت البلاد العربية فيما بينها على سياسة خارجية موحدة وخطة دفاع مشتركة ، فلا تستطيع أيضاً أن تبعد أخطار الحرب عنها ما دام بعضها قد قدم قواعد عسكرية لأحد الفريقين المتنافسين في بلده ، لأن مجرد وجود هذه القواعد في أحد الأقطار العربية يعرض البلاد العربية الأخرى إلى أخطار الحرب ولا يبيل لأى بلد من البلاد العربية الأخرى أن يحتفظ بحياده والبلد المجاور له قد فتح أبوابه لمرور الجيوش المحاربة وقدم لها القواعد .

وأخيراً إذا تم للعرب الوحدة التي بنشدها ، وإذا تيسر لهم أن ينظموا جيشاً قوياً بعهده وعدده واستطاعوا أن يؤمنوا هذا الجيش بالصناعات الوطنية ، فإن مجرد بقاء جزء من أجزاء البلاد العربية خاضعاً لنفوذ أحد الفريقين المتخاصمين باسم حلف أو وصاية أو حماية أو مساعدة أو دفاع مشترك . . . أو بما شئت من أسماء اعتادت السياسة الحديثة أن تبتدعها فإن ذلك الجزء من البلاد العربية يسبب اندلاع لهيب الحرب في البلاد العربية أجمع .

كيفية تنقي البهراء العربية أخطار الحرب :

والذى يلوح لنا أنه لمن الصعب جداً لأى بلد من بلاد العالم أن يبقى محايداً فى حرب معاصرة تكاد تشترك فيها جميع الدول ؛ والذى نراه أن يكون للدولة من المناعة ما يساعدها على تجنب مصائب الحرب جهد الطاقة . والذى يسترعى الانتباه فى موقف الدول العربية أنها تكونت بعد الحرب العالمية الأولى بشكل جعل الأجنبي يصبح فيها المفتدب السيد ثم أمسى بعد ذلك الحليف الذى تخوله المعاهدة حق الاحتلال فى زمن السلم ولم يسبق قبل ذلك أن الحليف القوى يفتزع من حليفه الضعيف حق احتلال بلده فى السلم ، فهذا التحالف الشاذ الذى يربط دولة صغيرة بدولة كبرى ويجرها إلى حرب ضروس ، هو الذى يعرض الدول العربية لأخطار حرب لا ناقة لها فيها ولا جمل .

فتركيا دولة لا يتجاوز نفوسها العشرين مليوناً وهى مجاورة لأعظم دولة ما برحت تختلف الحجة للاعتداء عليها ، ومع ذلك استطاعت بقوة جيشها أن تجمل حلفاءها يحترمونها ولا يقيدونهم بقيود الاحتلال فى وقت السلم ، مع أنها معرضة للخطر المباشر ، وهى أحوج إلى معاضدتهم لتقف أمام خصمها الجبار ؛ إلا أن مناعتها وقتها شر ذلك . فمن الغريب أن تختلف الدول الغربية الحجة لتبرير احتلال البلد الحليف فى وقت السلم ، بينما هى تعلم أن ضرورات الحرب تقضى بالاحتلال دون الانقياد إلى معاهدة . لقد هاجم البريطانيون والروس بلاد إيران واحتلوها فعلاً من غير أن يستندوا فى ذلك إلى معاهدة ، ذلك لأن ضرورات الحرب ساقهم إلى هذا الاعتداء الذى كان هدفه تأمين الاتصال بين الحلفاء وروسيا . لهذا فباستطاعة الدول المحاربة أن تملئ إرادتها على الدول الأخرى لتتجاز إليها فى زمن الحرب وتحتل بلادها حين تقضى ضرورات الحرب بذلك . وكان باستطاعة مصر أن تفقد نفسها من مصائب الحرب لو كان لها جيش قوى ، ولولم تكن مُحْتَلَّةً بإحدى الدول المحاربة ، وتحمى إيطاليا ليبيا . وبديهي أن ذلك لا يتم إلا إذا كانت البلاد العربية الأخرى مستقلة تمام الاستقلال ، بيد أن وجود القوات البريطانية فى مصر واحتلال الأجنبي للبلاد العربية الأخرى بحجة الوصاية ، وحماية إيطاليا لليبيا ، جرف مصر والبلاد العربية الأخرى إلى الحرب ، فأصابها ما أصابها وما زالت تعاني شر هذا المصاب .

وإذا أرادت البلاد العربية أن تنقى أخطار الحرب فما عليها إلا أن تتخذ التدابير الآتية :

أولاً — تخلى بلادها من الاحتلال الأجنبي : وقد سبق أن أشرنا إلى أن احتلال الأجنبي

لبلد من البلاد العربية يجعلها هدفاً لأخطار الحرب ، إذ أن الأجنبي يجعل ذلك البلد قاعدة لحركاته ، وبذلك يعرضه إلى هجوم خصمه في وقت الحرب فتصبح البلاد العربية بأجمعها مساحة حرب .

ثانياً — توحيد السياسة الخارجية في البلاد العربية : ويكون من أهداف هذه السياسة عدم السماح لأية دولة عربية بأن تتعاقد مع الأجنبي دون موافقة الدول العربية الأخرى . وبهذا يتسنى للدول المذكورة أن تبعد نفوذ الأجنبي عن بلدانها فلا تفسح له المجال ليتعاقد مع إحداها بحجة الدفاع أو المساعدة أو غير ذلك .

ثالثاً — وضع خطة دفاع مشتركة للجيش العربي : إن توحيد خطة الدفاع للجيش البلاد العربية ينسق تنظيم جيوشها من جهة ، ويجعلها قادرة على الصمود للعدو في وقت الحرب من جهة أخرى ، وبذلك يتسنى لها أن تقف في وجه العدو . وإذا ما رأت أن قواتها لا تكفي للصمود ، فإنها حينئذ تتعاقد مع الحليف الطيب لها وتعاون معه للتغلب على العدو .

ليس من شك في أن التدابير الثلاثة الآتية الذكر إذا لم تق البلاد العربية من خطر حرب عالمية لا سبيل لأية دولة أن تبقى فيها محايدة ، فإن التدابير المذكورة تنقذها على الأقل من أضرار الاحتلال في وقت السلم .

وبديهي أن توحيد خطط الدفاع يتطلب من الدول العربية أن تسلك سياسة اقتصادية موحدة لتسد حاجات جيوشها في زمن الحرب ؛ لأن الجيوش مهما كانت قوية ، فإنها — إن لم تستطع أن تمون نفسها بالموثون الحربية من مصنوعات بلادها — تكون مضطرة إلى طلب المعونة من الأجنبي ، وقد تجرأ هذه المعونة إلى الحرب .

فلسطين ولبنان

ولو فرضنا أن البلاد العربية قضت على الاحتلال الأجنبي ووحدت سياساتها الخارجية ، ووضعت خطة دفاع مشتركة بينها ، وقوت جيوشها بحيث أصبحت تصمد لكل هجوم وتجعل الدول تحترمها وتخطب ودها فإن هذا وحده لا يكفي لتصبح البلاد العربية بمنجى من الأخطار الحربية . مادام في فلسطين دولة يهودية . إن فلسطين النقطة الضعيفة في الجبهة العربية ، أو بتميز آخر ، الثغرة التي يستطيع المستعمر أن ينفذ منها إلى البلاد . وإن السماح بتأسيس دولة يهودية في فلسطين مهما صغر حجمها معناه تأسيس رأس جسر في بلاد العرب للمستعمر . وغنى عن البيان أن الدولة اليهودية لا يمكن أن تقوم إلا بمساعدة الأجنبي ، وإذا رفض

الأجنبي تأسيس علاقة معها فهي حتماً تغريه بالمسال ليكون حليفها أو وصيها أو حاميتها . وإذن ، ما دامت فكرة تأسيس دولة يهودية على ضفاف البحر المتوسط قائمة فلا بد أن تكون فلسطين ثمرة في الجبهة العربية . وقد تعقد هذه الدولة حلفاً مع الدول العربية ، وتعهد بالسير على سياستها الخارجية وتمتنع عن عقد أية معاهدة مع الأجنبي دون رضا الدول العربية . ولكنه لا يبعد أن تصبح البلاد العربية بين عشية وضحاها معرضة لأخطار الحرب لأن الدولة اليهودية فتحت موانئها للقوات الأجنبية . والواقع أن البلاد العربية كلها تخلصت من الاحتلال الأجنبي وقبضت على موانئها في ضفاف البحر المتوسط تكون قد أبعدت عنها خطر الحرب لأن البحر ذاته ، يُمدّد خط دفاع لها .

ونقطة الضعف الأخرى في الجبهة العربية هي ليبيا ، ولقد تعرضت مصر لأخطار الحرب لمجرد وجود قوات أجنبية في ليبيا بعد أن فرضت إيطاليا حمايتها عليها . لا شك في أن الأجنبي يحتل بلاد الغرب العربي ، غير أن هذه البلاد ما تزال أكثريتها الساحقة عربية ، ويتمتع بعضها بنظام حكم لا بد أن يوصلها إلى الاستقلال . أما ليبيا فنفسها قليلة وإذا ظلت محمية من قبل الأجنبي ، وظل باب الهجرة مفتوحاً في وجهه ، فلا بد أن يطفئ عليها سيل الأجنبي فتصبح بلداً أجنبياً يعزل البلاد العربية بعضها عن بعض ، وبذلك تنقطع الصلات بين الشرق العربي والغرب العربي فضلاً عن أن بقاء الأجنبي فيها يجر ويلات الحرب إلى البلاد العربية .

طه الرهاشمي

الاستعمار الأوروبي للعالم الشرقى

للأستاذ مصطفى الشهابى

نوطته :

لا بد ، قبل الخوض فى موضوع هذا المقال ، أن أذكر كلمة موجزة جداً عن ماهية الاستعمار وعمّا يسمونه حقوق الاستعمار ، وعن تاريخ الاستعمار على هذه الكرة الأرضية .

ما هو الاستعمار (١) :

الاستعمار على شكله السياسى الحديث ، استيلاء دولة على قطر من الأقطار ، وإدارة شؤونه ، واستثمار مرافقه المختلفة ، إما بيد مهاجرين يرحلون إليه ويقطنونه ، وإما بيد سكانه الأصليين ، وإما باشتراك الفريقين . ومن بدائه الأمور أن الدولة المستعمرة تضمن فى هذا العمل لنفسها ولقومها أعظم فائدة تستطيع الحصول عليها .

وأداة الاستعمار التسلط . وهو تحكم شعب فى غيره من الشعوب . والتسلط أنواع : أهمها التسلط السياسى ، والتسلط الاقتصادى ، والتسلط الثقافى .

ووسيلة التسلط : القوة ، أى غزو الأرض المراد استعمارها ، واحتلالها عسكرياً ، والقضاء على القوى المحاربة فيها ، وخلع سلاطنها ، وإسقاط حكومتها ، وإقامة حكومة من رجال الفاتحين ، ثم استعمال مرافقها فى مصلحة هؤلاء الفاتحين فى الأعم من الحالات .

والأرض المغلوب على أمرها تسمى مستعمرة . وهى تفقد السيادة الداخلية والخارجية ، وتكون تابعة للفاتحين فى جميع أمورها . ولا يعترف لسكانها بكيان قومى ولا بحكومة قومية

(١) فى اللسان أعمره السكان واستعمره فيه جعله يمسّره . وفى الأساس : استعمار الله عباده فى الأرض أى طلب منهم العبادة فيها . وفى القاموس جملة اللسان . ولم يزد صاحب الناح على ما جاء فى الأمهات المذكورة ، وكذلك أصحاب المعجمات الحديثة . ويتضح من ذلك أن مدلول لفظة الاستعمار اليوم لا يختلف كثيراً عن مدلولها القديم . ونحن فى الاصطلاح الحديث نعمل قبل « استعمار » ينمى إلى الأرض أو المكان أو قطر فنقول مثلاً « استعمرت إسكندرية » استرالية « أما لو أريد اتباع نص المعجمات حرفياً لوجب أن يقال « استعمرت إسكندرية شمسها فى استرالية » . وقد شاع الاصطلاح الحديث .

ويعتبر هذا النوع أشد أنواع التسلط وأفظمه ، ولاسيما إذا قذف المستعمرون بمهاجرين يحلون محل السكان الأصليين ويقرضونهم بسدّ سبل العيش في وجوههم .
وهناك نوع ثان من التسلط أقل فظاعة من الأول يسمى الحماية ، ففي هذا الشكل يُستبقى رئيس البلد المحمي وحكومته . لكن المستعمر يقيم إلى جانب تلك الحكومة الشرعية شبه حكومة مسلطة يقبض رجالها على مصالح الدولة ، ويحملون رئيسها على اتخاذ ما يشاءون من المراسيم ، كما يجعلون الحكومة الشرعية أداة صالحة لتنفيذ خططهم الاستعمارية .
وتنفذ الدولة المحمية سيادتها الخارجية . وكثيرا ما تفقد سيادتها الداخلية على بعض مصالح الدولة ، كالجيش والأمن العام والنقد والمكوس وغيرها ، مما تتصرف به الدولة الحامية وحدها .

وأخف من الحماية الانتداب ، وهو وليد الحرب الكبرى الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) فرض على الشام والعراق وغيرها على ما هو معروف .
وأخف منه التعاقد بالمعاهدات بين دول كبيرة ودول صغيرة مستقلة ، عند ما تكون الثانية محمولة على التعاقد بالإرهاب أو القوة .

مفهوم الاستعمار :

يدعى المستعمرون وبعض المشرعين الموالين لهم أن للاستعمار حقوقا تجيزه . ولهم في هذا الباب كتب تدرس في قسم الدكتوراه ببعض كليات الحقوق . وهذه الحقوق في نظرهم هي :
١ - حق القوة . أي أن يكون القوى صاحب حق في التسلط على الضعيف ، ولو أدى الأمر إلى إهلاكه لبقاء الأصلح ، وذلك على مذهب نيتشه وهوبس ومكيافلي وأضرابهم من أصحاب فلسفة القوة المنافية لمبادئ الأخلاق الإنسانية .

٢ - حق المنصرية : أي حق تفوق سلالات من البشر على غيرها من السلالات ، كما تقول بأن الجرمان بفطرتهم أصلح من غيرهم للتمدين والحكم ، ولذا يجب أن يسودوا العالم ، وهذا على مذهب غوبينو الفرنسي وفيخت الألمان وهستون ستيوارت تشمبرلين البريطانى ومن هم على شاكلتهم من أبناء أمس مثل هتلر وجماعته . والمعروف أن هذه الفلسفة فاسدة ، لأن الخصائص الجسمية والصفات النفسية في الإنسان ليست من القوانين الطبيعية الثابتة ، بل هي تتبدل وتتحوّل تبعاً للبيئة التي يعيش فيها الإنسان . فلو وضعت الزنوج في بيئة مماثلة تماماً للتي يعيش فيها الجرمان (بدلا من وضعهم في منافع أفريقية الاستوائية) ، وثقفت

الفريقين ثقافة واحدة ، وجعلت لهما شروطا معاشية واحدة مدة طويلة من الزمن ، لأفريت الزنوج مساوين للجerman إجمالا .

٣ — حق الاحتلال الأول : وهو أن تحتل دولة من الدول بلداً مجهولاً لم يرفرف عليه علم من الأعلام ، فتكتسب تلك الدولة حق التصرف بشؤونه ، مثلاً يكتسب المرء حق التصرف بالأرض الموات إذا ما أحيّاها .

وهذه النظرية فاسدة ، لأن احتلال بلد ما سياسياً غصبٌ بئس وتعد على حقوق أفرادهم وقبائله . ولا يجوز حسابان الاحتلال حقاً إلا إذا كان البلد خالياً من السكان ، وهذا شيء نادر .

٤ — حق الاحتلال بالتعاقد : وهي ذريعة مشهورة يتذرع بها المستعمرون عندما يعقدون معاهدات مع شعوب أو قبائل ضعيفة أو جاهلة ، فيتسلطون بها عليهم ، لقاء حمايتهم من عدوان الأجانب ، ولقاء تثبيت سلطة رؤسائهم ، وتنظيم شؤون حكوماتهم ، وما إلى ذلك من المفريات . والمستعمرون في الحقيقة يتخذون المعاهدات أدوات فعالة لتثبيت تسلطهم الاستعماري على تلك الشعوب والقبائل .

وتقوم هذه المعاهدات إما على الإكراه أو على الغش أو عليهما جميعاً ، وهي لذلك فاسدة .

٥ — حق الاستعمار نتيجة لحرب عادلة ، والحرب العادلة في نظرهم هي التي تثيرها الدولة الاستعمارية على الشعب الضعيف إذا أضر أحد أفرادها بأحد رعاياها ، أو بمصلحة من مصالحها ، كأن يُمتدى على قنصلها ، أو على إحدى سفنها ، أو على إحدى شركاتها . وأنت ترى أن حق الاستعمار هذا هو حق الذئب على الحمل ليس غير .

٦ — حق مرور الزمن : يذكر بعض المشرعين أنه مثلاً يجوز للأفراد أن يملك الشيء بمرور الزمن ، كذلك يجوز للدولة الاستعمارية (أو للشعب الغالب أو للشعب المتوطن) أن تملك الأرض إذا طال مقامها فيها . وهذه النظرية صحيحة إذا انقضى قرون على احتلال الأرض بلا معارض ولا منازع . فالعرب مثلاً فقدت حقها في الأندلس بمرور الزمن ، وكذلك الإنجليز في الولايات المتحدة ، والروم في ديار الشام ، واليهود في فلسطين ، وفرنسا في كندا .. الخ . أما إذا وثبتت دولة استعمارية على شعب آمن فاحتلت بلاده ، وتسلطت عليه بالقوة ، وقامت ثوراته بالحديد والنار ، وفككت أوساله ، بينما هو لا يفتأ يجاهد بشتى الوسائل في سبيل استقلاله ، فلا مرور زمن على هذه الحال مهما بطل .

٧ — الاستعمار باسم الرأفة والإحسان : وهو عنوان عجيب لأن تاريخ الاستعمار الحديث

جماع فظائع وأهوال ومذابح واسترقاق وإفقار شعوب وقبائل ضعيفة وتجويعها وقرضها ، فهل يستوى الاستثمار مع الرأفة والإحسان على صعيد واحد ؟

٨ — حق الاستثمار لأجل التمدن : وهى أهم أغنية تتغنى بها الدول الاستعمارية ، وأكبر ذريعة تتذرع بها لاحتلال المستعمرات والتسلط عليها . والحقيقة أنه ما من دولة استعمارية تفتح بلدًا من البلاد بغية تمدين سكانه ، بل تفتحه بغية الاستفادة منه . والفائدة هى غايتها الأولى والأخيرة . والتمدن يأتى عرضاً . وارتقاء شعب درجة أو أكثر فى سلم المدنية لا يوازى فقدته استقلاله وتحكم الأجنبي فى مقدراته .

٩ — حق الحياة : يرى معظم المشرعين الأوروبيين أن ضرورة العيش تجيز الاستثمار ، وأن حق الحياة حق محترم ، وأنه لا يجوز أن تظل كنوز الأرض مدفونة فى بلد يجهل سكانه استخراجها والإفادة منها ، بينما تكون البلاد المتمدنة المكتظة بسكانها فى ضنك وخصاصة لقلة الوارد فى تلك البلاد .

وهذه النظرية تبدو معقولة لو أنصف المستعمرون ، واكتفوا بالقوت ، فلم يبتغوا الغنى والرفاء وبلهنية العيش من شقاء شعوب المستعمرات . وفى وسع الدول الاستعمارية استغلال المرافق الاقتصادية بعدل وحكمة دون أن تفقد الشعوب الضعيفة استقلالها .

يتضح من هذه السكامة الموجزة فيما يسمونه حقوق الاستثمار أنه ليس للاستثمار حقوق مهما زخرفها الكتاب ويطلوها بطلاء من المنطق . فالاستثمار على حقيقته ليس سوى التسلط على شعب ضعيف ، وسلبه استقلاله بغية الاستيلاء على ما فى بلاده من ثروة ، وبغية تشغيل أفرادها فى الجندية أو فى الزراعة أو الصناعة لمصلحة المستعمر . وكل ما يقال غير ذلك تمويه وتضليل ، فما من دولة كبيرة تستولى على بقعة من بقاع الأرض وتكون غايتها تمدين سكانها أو الرأفة بهم . وأى تمدين أو رأفة فى دول تتسابق إلى التسلط الاستعماري بالحديد والنار ؟

ويتضح أن للشعوب المغلوبة على أمرها حق الثورة فى سبيل الاستقلال . فالأديان السماوية والمبادئ الخلاقية لا تقر الظلمانيان ، ولا تسلط شعب على شعب رغمًا عن أنفه . وجميعها تجيز الثورة لدفع الظلمة وإزالة حكمهم الجائر . والدولة الاستعمارية تعد الثوار عصاة يستحقون القتل ما داموا ضعفاء ، وتعدهم أبطالاً ورجال دولة شرعيين إذا نجحت ثورتهم . وما برح المستعمر ذنبًا مع الضعيف ، وهو مع القوى . وهذه الجملة تمثل أسلاف المدنية الغربية الحديثة خير تمثيل .

لمحة في تاريخ الفتح والاستعمار :

قلت في مقدمة « كتاب الاستعمار » — وهو مخطوط — إن الفتح والتسلط والاستعمار أمور عرفناها في أيامنا هذه ، كما عرفها الناس في حقب خلت قبل التاريخ ، أى منذ وجدت جماعات البشر على هذه الكرة الأرضية . وموجات الفتوحات في القديم كثيرة ومعروفة كوجة الكلدان والرعاة والفنيقيين والإسماعيليين والإسكندر الكبير والرومان وغيرهم . وبعض هذه الفتوحات رافقها الرفق والرأفة والتسامح ، وبعضها كانت على جانب كبير أو صغير من الظلم والظلميان والقسوة .

وجميع هذه الموجات لا تقاس بالموجات الأوروبية الاستعمارية في العصور الحديثة بما رافقها من فظائع تقشعر لها الأبدان . فقد كانت مغبتها استيلاء الأوربيين على أميركة وأوقيانوسية جميعاً ، وعلى معظم أفريقية ، وعلى جزء كبير من آسية . وانقرضت فيها شعوب كانت على الفطرة ، وهلك ملايين عديدة من البشر ، ولا سيما الحمر والزنوج . وذكر هذه المظالم يحتاج إلى كتاب برأسه وقد تلخصتها في كتابي المذكور .

وبدأ الاستعمار الحديث منذ أن تقلص ظل الدول العربية والمستعمارية واستولى الترك العثمانيون على بلادها ، ومنذ أخذ الإسبان والبرتغال يقذفون بعرا كبحهم على أميركة والهند . وبعد التوسع الكبير الذي حصل في القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر ، وقضاء إنكثاره على امبراطوريتي إسبانيا والبرتغال ، أخذ الاستعمار يتسع ويشتد في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . وهكذا استولى الأوربيون في القرون الأخيرة على بقاع من الأرض تبلغ مساحتها نصف الكرة الأرضية ، ويبلغ سكانها ٦٠٠ مليون نسمة مما لا مثيل له في التاريخ .

ومن الأمثلة على التوسع الاستعماري الحديث استيلاء فرنسا على الجزائر والسنغال والكوشنشين ، وإعلانها حماية تونس ومراكش وأنام . ومنها احتلال إنكثاره لمصر والسودان المصري ، واستيلائها على بلاد عظيمة في أفريقية خاصة كنيجرية وزنجبار وأفريقية الشرقية وأفريقية الجنوبية الشرقية . ومنها استيلاء إيطاليا على الصومال وطرابلس وبرقة ، واستيلاء ألمانيا على بلاد طوغو وكرون وأفريقية الجنوبية الغربية ، واستيلاء بلجيكة على الكونغو الخ . . ولم تظل الولايات المتحدة مكتوفة اليدين ، فوضعت يدها على كوبا والفلبين وهافاي ، وضمت لنفسها النفوذ السياسي والاقتصادي في أميركا الوسطى .

الاستعمار الأوروبي للبلاد الشرقية :

لقد كانت الدول العربية من قبل ، والدولة العثمانية في أيامها الأول ، عثرة في طريق الاستعمار الأوربي . ولكن بينما كانت أوربة نهض نهضتها الحديثة المعروفة ، وتسابق إلى استعمار الأرض ، لبثت الدولة العثمانية تغط في نومها . وهكذا البلاد العربية التابعة لها ، والبلاد العربية الواقعة في شمالي أفريقيا ، مما جعلها جميعاً مطمع أنظار الدول الاستعمارية .

وكانوا يسمون الدولة العثمانية الرجل المريض . ولو تمكنت الدول الاستعمارية من الاتفاق على اقتسامها لقصت على استقلالها وتقاسمتها منذ أواخر القرن الماضي وليس ما يسمونه « القضية الشرقية » سوى فصل نصارى الدولة العثمانية عنها في أوربة ، ثم الاستيلاء على الأقطار الإسلامية من تلك الدولة ، سواء أكانت عربية أم تركية .

وقد تحقق الشق الأول من هذه السياسة بمساعدة الدول الاستعمارية الكبرى ، فاستقلت اليونان بموجب معاهدة لوندرة المؤرخة في ٢٢ آذار سنة ١٨٢٩ ومعاهدة أدرة المؤرخة في ١٤ أيلول سنة ١٨٢٩ . ثم استقلت ولايتا ملدافية وولاشية استقلالاً داخلياً ، عقب حرب القرم ، بموجب معاهدة الصلح المؤرخة في ٣٠ آذار سنة ١٨٥٦ ، مما أدى بعدئذ إلى اتحادها واستقلالها التام باسم رومانية . وقد تم ذلك برغم انتصار تركية وحليفاتها إنكلترة وفرنسة على روسية في حرب القرم !

وهكذا الصرب ، فإنها استقلت داخلياً سنة ١٨٢٩ بتأثير روسية ، ثم استقلت استقلالاً تاماً بموجب معاهدة برلين سنة ١٨٧٨ ، وذلك عقب انتصار روسية على تركية في حرب سنة ١٨٧٧ . وقضت معاهدة برلين باستقلال الجبل الأسود نهائياً ، وبجعل بلغارية إمارة مستقلة داخلياً تابعة لسيادة السلطان نظرياً ولها سلطة على الروملي الشرقية .

وفي سنة ١٨٩٦ ثارت جزيرة إقريطش (كريد) على الدولة العثمانية ، وقامت الحرب بين تلك الدولة واليونان بسبب هذه الجزيرة فانتصرت الأولى ، ومع هذا تألبت عليها إنكلترة وفرنسة وروسية وأرغمتها على الاعتراف باستقلال الجزيرة المذكورة داخلياً ثم التحقت باليونان سنة ١٩١٣ عقب حرب البلقان .

وبعد خلع السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٨ ضمت النمسة مقاطعتي البوسنة والهرسك إلى أراضيها ، وأعلنت بلغارية استقلالها التام . وبعد ذلك احتلت إيطاليا رودس وجزائر البحر الأبيض . وهكذا لم نكد تبدأ الحرب الكبرى الأولى في صيف سنة ١٩١٤ حتى كان القسم

الأول من القضية الشرقية قد تحقق ، أى حتى كانت جميع الشعوب النصرانية فى البلقان قد استقلت عن تركية استقلالاً تاماً بمعاونة الدول الأوروبية الكبرى ومساعدتها المحكمة .

أما القسم الثانى من القضية المذكورة أى استيلاء الدول الأوروبية الكبرى على الأقطار الإسلامية من الدولة العثمانية ، فكان قد تحقق منه قسم كبير فى شمالى أفريقيا خاصة . ففى سنة ١٨٣٠ احتلت فرنسا الجزائر ، ثم احتلت تونس فى سنة ١٨٨١ ، وفى السنة التالية احتلت إنكلترة مصر . وجعلت إيطاليا تحتل طرابلس الغرب وبرقة فى بدء سنة ١٩١٢ ، وعمدت فرنسا فى تلك السنة إلى مراكش فاحتلتها ، وإن تكن خارجة عن نطاق الدولة العثمانية . ومن سنة ١٨٨٨ حتى سنة ١٩٠٣ حصلت ألمانيا على فرمانات تجيز لها مد السكة الحديد من إسطنبول إلى بغداد . ولما كان هذا الخط على طريق الهند خفت إنكلترة سنة ١٩٠١ إلى نشر حمايتها على الكويت . وكانت هذه الدولة احتلت عدن ، وأعلنت حمايتها للمحميات التسع جنوبى جزيرة العرب كحضر موت ولحج والكلاب وغيرها .

ولم تقف فرنسا مكتوفة الأيدى ، فضغطت على الدولة المريضة وانتزعت منها بين سنة ١٨٨٨ وسنة ١٨٩٣ بضعة امتيازات ، كد سكة حديد من بيروت إلى دمشق فالزيرب فى حوران ، وأخرى من دمشق إلى حمص فحماة فحلب فالبيارة (بيراجك) ، وثالثة بين يافا والقدس ومنها إنشاء ميناء فى كل من إسطنبول وبيروت وإزمير .

أما الروسية فما برحت منذ القديم حتى يومنا هذا تطالب بمضيق البسفور والدردينيل . وفى سنة ١٩١٢ اتفقت فرنسا وإنكلترة اتفاقاً اعترفت فيه الثانية الأولى بنفوذ اقتصادى فى سورية ، أى سورية ولبنان اليوم . وما إن بدأت وقائع الحرب الكبرى الأولى سنة ١٩١٤ حتى راح الحلفاء (إنكلترة وفرنسة وروسية) يتآمرون على الدولة العثمانية وإيران لاقتسام أراضيها . وقد نشر البلاشفة بعد قضائهم على القيصرية سنة ١٩١٧ وثائق هذه المؤامرات ، وخلاصتها مطالبة روسية بإسطنبول والبسفور والدردينيل ، ومطالبة فرنسا بسورية وفلسطين وكيليكية ، وادعاء إنكلترا بإدخال القسم الجنوبى من إيران ضمن نطاق نفوذها وبتأسيس إمبراطورية عربية إسلامية مستقلة مركزها الحجاز .

ولكن تضارب مصالح تلك الدول ، وقيام الثورة الشيوعية ، وخوف فرنسا من الإمبراطورية العربية وممانتها فى إدخال سورية ضمنها ، كل ذلك حال دون تحقيق تلك المطالب .

انفصال البلاد العربية عن الرولة العثمانية :

من المعروف أنه بعد سقوط السلطان عبد الحميد واستلام جمعية الاتحاد والترقى زمام الحكم

سارت هذه الجمعية على سياسة تترك العرب وغير العرب بشق الوسائل . وما كانت تعترف للعرب بكيان قومي ولا تعترف باللغة العربية في الحكومة ولا في المحاكم ولا في المدارس حيث كانت جميع الدروس تلقى بالتركية .

وعند ما شبت الحرب الكبرى سنة ١٩١٤ أخذت هذه الجمعية السلطة تتبع سياسة تترك العرب بالقوة والبطش والمشايق ونفي الأسر العربية الكريمة إلى بلاد الأناضول . وكان التلطف بحقوق العرب أو الاستقلال الإداري يعد خيانة عظمى جزاؤها القتل .

وكان أمام العرب خطتان يجب اتباع إحداها وهما : إما الإغضاء عن فظائع الأتراك الاتحاديين ربما تنتهى الحرب ، وإما الثورة عليهم في جانب الدول المتحالفة . فاتباع الخطة الأولى كان مضراً بالعرب سواء أكان النصر لألمانية وحليفها تركية أم كان النصر للحلفاء . ذلك أنه في حالة انتصار ألمانية وتركية يفقد العرب قوميتهم ولغتهم في ديار الشام والعراق على الأقل ، نتيجة لسياسة التترك بالقوة ، ويظل الحجاز واليمن تحت سلطة الدولة . أما في حالة انتصار الحلفاء فإن هؤلاء الحلفاء كانوا عندئذ يمدون العرب رعاية دولة مغاوبة ، فيتسلطون عليهم ويستعمرون بلادهم استعمار النال لبلاد الغلوب .

واتباع الخطة الثانية أى الثورة على الدولة العثمانية في جانب الحلفاء له أيضاً مغيبتان : الأولى أنه إذا انتصرت ألمانية وتركية ، فمسير الشام والعراق يكون إلى التترك ، وإلى استعمار العراق بمهاجرى الألمان ، ويبقى الحجاز واليمن تابعين للدولة العثمانية . وهو المصير نفسه الذى أشرت إليه في حالة اتباع الخطة الأولى . لكنه إذا انتصر الحلفاء ، فمن المحتمل جداً أن يستقل الحجاز واليمن تماماً . وإذا لم يستقل العراق والشام تماماً فمن الثابت أنه يعترف لها بكيان سياسى وقومى ، كما يعترف بلغة الضادلنة رسمية لدولتيهما ، وهى خطوة سياسية كبيرة ، إذا قيس بما كانت أو بما ستكون عليه البلاد العربية ، عندما تظل تحت سيطرة الدولة العثمانية التى لا تعترف لها بكيان سياسى ، ولا تقبل أن يكون فى الدولة إلا جنس واحد ولغة واحدة .

ولهذه الأسباب الهامة التى كان يجهلها كثير من إخواننا المصريين فى تلك الأيام ، بسبب انفصالهم القديم عن الدولة العثمانية ، قامت الثورة العربية سنة ١٩١٦ فى الحجاز ، واشترك فيها نخبة من رجالات العرب ، وانتهت الحرب المذكورة بانتصار الحلفاء ، ورجحت العرب استقلال اليمن والحجاز استقلالاً تاماً ، واستقلال الشام والعراق استقلالاً مشوباً بالانتداب .

أما ديار نجد فسلطة الدولة العثمانية عليها كانت سلطة اسمية ، فاستكملت استقلالها ، وضمت الحجاز إليها ، على ما هو معروف .

وكان حظ الشام أسوأ من غيره ، فقد جعلوا منه أربع دول ، هي سورية ولبنان وشرق الأردن وفلسطين ، وجعلت فرنسا من سورية أربع دويلات صفار منفصلات ، وهي دويلات دمشق وحلب وجبل الدروز وجبل العلويين ، أما فلسطين فقد مُنيت بوعده بلفور ، وبتدفق سيل من اليهود المهاجرين فكان حظها أسوأ الحظوظ ، وأصبحت وضعيتها الدقيقة خطراً عليها وعلى البلاد العربية المجاورة .

وجاهد العراق في سبيل استقلاله التام ، فانتزع من إنكثارة معاهدتين ، الثانية منهما أصلح من الأولى ، وهو ما برح يطالب بالناثا . وجاهدت سورية نخعات بالدويلات الأربع المذكورة إلى حكومة اتحادية تضمها جميعاً ، فإلى حكومة سورية موحدة . ولبثت أهم المصالح بيد الفرنسيين كالجيش والسكوس والنقد والأمن العام ومراقبة الشركات والمدارس الأجنبية حتى تم جلاؤهم عن سورية ولبنان سنة ١٩٤٥ فأصبحت الدولتان مستقلتين تماماً .

ومن المعروف أن مصر خضت بجهادها منذ نهاية الحرب الكبرى الأولى إلى اليوم من الحماية إلى إعلان الاستقلال للشوب بالتحفظات ، فإلى معاهدة سنة ١٩٣٦ ، فإلى انسحاب الجيش البريطاني إلى قناة السويس ، وهي تسمى اليوم إلى التخلص من تلك المعاهدة ، وإلى إعادة علاقاتها الطبيعية الأخوية بالسودان المصري .

أما شرقي الأردن فقد عقد مع إنكثارة معاهدة ضمنت استقلاله ، وضمت أيضاً مصالح هامة لتلك الدولة فيه وبدل شرقي الأردن في هذه السنة بتلك المعاهدة معاهدة جديدة أصلح له من الأولى ، ولكن إنكثارة لبثت في المعاهدة الجديدة أيضاً ضامنة لنفسها مطارين عسكريين في أراضي شرقي الأردن .

جامعة الدول العربية :

يتضح من هذه الخلاصة الموجزة أن الشعوب العربية خضت خطوات واسعة في سبيل استقلالها منذ الحرب الكبرى الأولى إلى يومنا هذا ، وأنه ما برح أمامها عقبات جمة لاستكمال هذا الاستقلال في كثير من الأقطار العربية : فهناك قضية فلسطين الهامة ، وقضية السودان المصري ، وقضية ليبيا ، وقضية حقوق العرب في تونس ومراكش والجزائر الخ .

وقد دلت تجارب الأيام والسنين ، وتجارب الحرب الكبرى الثانية ، على أن الدول الصغيرة ، أياً كانت ، لا تقوم لها قاعة في عراك الدول الكبرى وتنازعها النفوذ أو السيطرة على العالم . ولهذا أخذ مفكرو العرب منذ عدة سنين يتحدثون عن ضرورة إيجاد صلة تربط بعض الدول العربية ببعض . وأتذكر أنني كتبت في الجرائد المصرية ، وحاضرت بمصر في هذا الموضوع منذ خمس عشرة سنة . ولكن أوضاع سورية ولبنان السياسية خاصة كانت تحول دون تحقيق هذا الاتصال . فلما تنفست الصعداء عقب الحرب الأخيرة تذلت أكبر عقبة ، وعاد ذوو الشأن منا إلى البحث والتشاور في تحقيق هذه الأمنية الغالية ، فكان بروتوكول الإسكندرية سنة ١٩٤٤ ، ثم ميثاق جامعة الدول العربية في ٢٢ آذار « مارس » سنة ١٩٤٥ والدول التي اشتركت فيه هي : مصر والعراق والمملكة العربية السعودية واليمن وسورية ولبنان وشرق الأردن .

وقد ولدت هذه الجامعة المباركة ونحن في أشد الحاجة إليها . وهي في تصنيف الدول لا تُعدّ دولة موحدة ولا دولة اتحادية ، بل عصبة دول مستقلة داخلياً وخارجياً ، يصل بعضها ببعض مجلس يعالج أمورها المشتركة ، ويتخذ مقرراته بإجماع آراء الممثلين لدول تلك العصبة . وليس ذلك المجلس دولة في ذاته . وليس له سيادة على دول العصبة ، ولكنه أداة فعالة لتنسيق جهودها ، ورعاية مصالحها سياسياً وثقافياً واقتصادياً .

وكفى مرور ثلاث سنين على تأليف جامعة الدول العربية لكي يلمس الشرق والغرب أثرها الكبير في أداء رسالتها . فقد عملت عملاً مبروراً في تحرير سورية ولبنان ، وما برحت تعمل في إنقاذ فلسطين من الاستعمار الصهيوني ، وإنقاذ أفريقية الشمالية من تسلط المستعمرين . وكان لها يد مشكورة في عدول الولايات المتحدة عن مؤازرة قرار تقسيم فلسطين ولو إلى حين ، وتدخلت في قضية اليمن فحقت فيها الدماء ، وآزرت كل ضعيف ينشد العدل والحرية كالأندونيسيين والفتناميين .

وبدل ما أملت إليه من أعمال اللجنة السياسية لجامعة دولنا العربية أنها كانت نقطة تجمّع الأحداث السياسية . أما لجانها الأخرى كاللجنة الثقافية واللجنة الاقتصادية ولجنة الواصلات فما برحت في بدء عملها ، وأمامها مجال واسع جداً لخدمة الدول العربية خدمات جلي هي اليوم في أشد الحاجة إليها .

الخاتمة :

ضلّ من ظن أن من المستطاع دفع استثمار أوروبا للعالم الشرقي بنير الاتحاد والقوة .

ومن خطل الرأي الاعتقاد بأن الدول الاستعمارية ، أياً كانت ، قد بدّأت نظرتها إلى العالم الشرقي من حيث أساس استعماره . نخطط الاستعمار وحدها هي التي تتبدل ، تبعاً للأحداث السياسية ولتطور الشعوب الشرقية وتقدمها في الحضارة . ولا شك أن بعض تلك الدول أرحم أو أعقل من بعض . ولكن المصلحة — لا الحق ولا العدل ولا التمدن ولا الإحسان — هي رائد المستعمرين في كل عمل من أعمالهم . ولهذا وجب على الأمم الشرقية كافةً وعلى الشعوب العربية خاصةً أن تقوى وتمكّن لدرء الاستعمار الأوربي . وما دامت بلادها غنية بالثروات الطبيعية فممن الاستعمار ستظل شاخصة إليها ، لا يثنى عنها سوى أمرين : الأول تراحم تلك الدول ، والثاني بقظة الأمم الشرقية ومقاومتها الفعالة للاستعمار . ولا يكفّ المستعمرون عن تسلطهم الاستعماري إلا عند ما يرون أن مصالحهم أصبحت مهددة ، وأن من الأفضل لهم ترك الشعوب الشرقية تحكم نفسها كما تريد ، وتميش بحرية وسلام . وعندئذ تكفّي الدول الاستعمارية بأن تعمل ، برضاء تلك الشعوب المستقلة ، على استخراج كنوز أراضيها ، واستثمار مصافقها ، في فائدة الفريقين ، دون ما تسلط ولا استعمار .

مصطفى الشهابي

لاذقية العرب ٢٩ / ٣ / ٤٨

كفاح العرب السياسى ضد الصهيونية

للدكتور محمد عوض محمد بك

عندما أخذت الحركة الصهيونية تنظم شئونها ، وتكيف برنامجها فى أواخر القرن الماضى ، كان كثير من الأقطار العربية خاضعاً للحكم العثمانى ، وكان يبذل جهده للخلاص من نير ذلك الحكم ، فكان الهدف الأول الذى وجهت إليه الجهود الوطنية أن تنال البلاد العربية حريتها واستقلالها . وعلى الرغم من أن مطامع الدول الاستعمارية لم تكن خافية على العرب ، والخطر الكامن وراء الدعاية الصهيونية آخذ فى الظهور ، فإن المظالم التى صاحبت الحكم العثمانى كانت هى الحقيقة الماثلة أمام الشعوب العربية ، تحسبها فى كل يوم ، وتطالع آثارها فى كل لحظة . فلم يكن بمستغرب أن أول ما عنيت به الحركة الوطنية هو التخلص من الحكم العثمانى ، وإقامة حكومات عربية مستقلة .

ولكن هذا السعى إلى الاستقلال ، كان يشتمل على شىء من الكفاح ضد الصهيونية . فإن الحكم العثمانى أجاز إنشاء كثير من المستعمرات الصهيونية . وسمح لها أن تنمو وترعرع فى ظله . ففى عام ١٨٦١ سمح لليهود بإنشاء مدرسة زراعية بالقرب من يافا ، لتخريج زراعى للمستعمرات الزرع إنشاؤها ؛ وقد أسست لهذا الغرض جمعية فى إنجلترا يهيمن عليها البارون إدمندى روتشيلد ، واستطاعت أن تؤسس سبع مستعمرات ما بين عامى ١٨٨٣ و ١٩٠٠ ، وأكثرها بجوار يافا وحيفا والقدس . وبفضل هذه المستعمرات زاد عدد اليهود فى فلسطين من ٢٥٠٠٠ فى سنة ١٨٨١ إلى ٨٠٠٠٠ فى عام ١٩١٤ .

هؤلاء المهاجرون لم يكونوا قانمين بالحياة فى فلسطين أسوة بسائر سكانها ، بل أخذوا ينشئون مدارسهم ويستخدمون فيها اللغة العبرية ، وكانت لهم منشآتهم الخاصة ، وعملتهم التى يتداولونها ، وعما كهم التى يحتكمون إليها ، وكانوا ينفرون من بقية السكان ، ويميشون كأنهم دولة وسط الدولة .

هكذا ولدت الصهيونية الفلسطينية تحت ظل الراية العثمانية ، ولم تفعل الدولة شيئاً لكبح جماحها ، ودفع شرورها ؛ فلا عجب إن كان بنض الصهيونية جزءاً من بنض التسلط

التركي والحكم العثماني ، وكان المجهود الجبار الذي بذله العرب لنيل حريتهم أثناء الحرب العالمية الأولى هو بداية الكفاح العربي ضد الصهيونية .

وفي وسعنا أن نقسم هذا الكفاح إلى أربع مراحل : الأولى الثورة العربية على الحكم العثماني ، والثانية كفاح الاستعمار الأوربي الذي آوى الصهيونية وجعلها تحت رعايته ، والمرحلة الثالثة تمثل تضامن الأقطار العربية لنصرة فلسطين من عام ١٩٣٩ إلى تأسيس جامعة الدول العربية . والمرحلة الرابعة هي الكفاح المنظم تحت ظل الجامعة وقيادتها . وسنتناول كلاً من هذه المراحل الأربع بشيء من الوصف .

١ — الثورة العربية

تولى الشريف حسين بن علي قيادة الحركة العربية من مركزه في مكة أثناء الحرب العالمية الأولى ، ولم يكن الإنجليز أول الأمر راغبين في مثل هذه الحركة ، لأنهم خشوا أن تحول بينهم وبين تحقيق مآربهم في الشرق العربي . غير أن هزيمتهم الأولى في العراق ، وسير الحرب في أوروبا ، أتاحا الفرصة لجماعة من أنصار العرب من البريطانيين من أمثال لورنس ، ومن على شاكته ، فطلبوا من الحكومة البريطانية أن تؤيد الثورة العربية وتشد أزرها . من أجل ذلك دارت تلك المفاوضات بين الشريف حسين وبين مندوب بريطانيا في مصر المدعو هنري مكماهون ، وقد تبادل فيها الطرفان نحو عشر رسائل . ونظراً لأن هذه الرسائل تشتمل على ركن هام من الكفاح العربي ضد الصهيونية فلا بد لنا أن نورد هنا خلاصتها .

كتب الشريف حسين في ١٤ يولييه سنة ١٩١٥ يبلغ المندوب السامي البريطاني في مصر تصميم الأمة العربية على نيل حريتها واستقلالها ، واستعدادها لأن تساهم في تحرير الأقطار العربية من العدو المشترك ، على شرط أن تعترف الحكومة البريطانية باستقلال البلاد العربية التي تحد شمالاً بخط يبدأ من مرسينا ويمتد إلى أطنه وأرفا ومردين ، وجزيرة ابن عمرو إلى حدود إيران ، وتحد شرقاً بالحدود الإيرانية وخليج البصرة ، وجنوباً بالمحيط الهندي فيما عدا عدن ، التي تظل على حالها التي كانت عليها ، وغرباً بالبحر الأحمر والبحر المتوسط لغاية مرسينا .

رداً على هذا الكتاب أرسل المندوب السامي البريطاني خطاباً في ٢٤ أكتوبر سنة ١٩١٥ يقول فيه إن إقليم أطنه ومرسينا ، والأراضي الواقعة غرب دمشق وحمص وحماة وحلب ليست عربية صرفة ، ولذلك يجب أن تستبعد من الحدود المذكورة ، أما فيما عداها فإن الحكومة البريطانية تقبل أن تكون الحدود كما وضعاها الشريف حسين ، وهي مستعدة لتأييد استقلال العرب داخل تلك الحدود .

وقد قبل الشريف حسين استثناء أطلنه ومرسينا ، ولكنه أصر على أن سواحل سوريا الواقعة غرب دمشق وحمص وحماه وحلب ، كلها أقطار عربية صرفة ، وأن من فيها من النصارى لا يقلون في عروبتهم ووطنيتهم عن المسلمين ، وأنه لذلك يصّر على المطالبة بأن تظل هذه الأقطار جزءاً لا يتجزأ من الوطن العربى .

وقد حاول المندوب البريطانى بعد ذلك أن يشرح للشريف حسين أن موضوع تلك الجهات أمر لا تملك بريطانيا أن تبنت فيه وحدها ، لما لفرنسا فيه من مصالح ، لا بد لبريطانيا من مراعاتها حرصاً على بقاء الوحدة بين الدولتين في كفاحهما المشترك ، غير أن الشريف أصرّ على موقفه ، وقال إنه يحتفظ بحق العرب في تلك الجهات بعد أن يتم النصر للحلفاء . لهذه الرسائل شأن كبير في مشكلة فلسطين ، فقد حاولت بريطانيا أن تفسر نصوصها بأن الأقطار الواقعة غربى دمشق تشمل فلسطين ، فكان دفاعها في هذه النقطة بادى الضعف لأن هذه الرسائل لم تشر بكلمة واحدة إلى فلسطين أو إلى الصهيونيين . ولم يجرى فيها إلا ذكر الجهات التى تزعم فرنسا أنها تهملها ، ولا يستطيع إنسان عاقل أن يزعم أن مدينة القدس أو نابلس أو طبرية واقعة إلى الغرب من دمشق .

لم يكن وعد بلفور قد صدر بعد ، أو لاحت طلائعه في الأفق ، ولذلك لا نستطيع أن نلوم الشريف حسين أو مستشاريه ، لأنهم لم يصروا على بيان أكثر جلاء ووضوحاً . وعند صدور تصريح بلفور حاول الإنجليز جهدهم أن يخفوه عن العرب ، وأن يهونوا من أمره ، طبقاً للسياسة الانتهازية التى تجرى عليها إنجلترا في أكثر المناسبات .

وقبل أن نوجه نقداً للسياسة العرب في هذا الشأن يجدر بنا أن نذكر الأمور الآتية :
أولاً : كانت الحركة الوطنية العربية في حالة تحفز وتوثب ، وتريد أن تعمل لتحرير البلاد العربية لكى يكون لها بعض الفضل في ذلك التحرير .
ثانياً : أن خبرة العرب بالسياسة الغربية وما اشتملت عليه من مراوغة كانت قليلة ، وتجاربهم مع الإنجليز محدودة .

ثالثاً : كانت المشكلة الوحيدة في نظرهم هي مطامع فرنسا في لبنان ؛ وكانوا يرجحون أن التحالف الذى بين إنجلترا وفرنسا قليل الخطر .

رابعاً : لعل أهم عنصر في الموقف أن العرب كانوا حسنى الظن بالإنجليز إلى أبعد حد . ولعلهم اغتروا بمن شاهدوهم حولهم من الذين يعطفون على قضية العرب من أمثال لورنس . وهكذا مضى العرب في ثورتهم ، وتم للحلفاء النصر بمؤازرة العرب . ثم جاء أوان السلم

واستقرار الأمور ، ورد الحقوق المنصوبة إلى أصحابها ، فإذا العرب يفاجأون بالانتداب البريطاني على العراق ، والفرنسي على سوريا ولبنان ، والصهيونية في فلسطين .

٢ - مكافحة الاستعمار

ننتقل إلى المرحلة الثانية من السكفاح العربي ، في فترة تمزقت فيها وحدة البلاد العربية ، وأصبح لكل قطر عربي مشكلاته الخاصة في مقاومة الاستعمار البريطاني أو الفرنسي . فانصرفت جهود أبنائه إلى مكافحة قوى الظلم والظني في قطرهم الخاص ، وقد اعترفت معاهدة فرساي وملحقاتها للأقطار المتخلفة عن انحلال الدولة العثمانية بحقها في الاستقلال ؛ ولكنها فرضت عليها انتدابات لا تختلف في حقيقتها ومظهرها عن أقبح أنواع الاستعمار . فثار أبناء كل قطر لمكافحة العدوان الذي نزل بهم . واستنفد هذا الجهاد الشطار الأكبر من جهودهم . في هذه الفترة لم يكن بدّ من أن يقع عبء مكافحة الصهيونية على عاتق أبناء فلسطين أنفسهم ، وعلى الرغم من أن جميع الأقطار العربية كانت دائماً تعطف على قضية فلسطين ، وأن كثيراً من قادة الرأي في كل قطر عربي كانوا يشدون أزرها جهد طاقتهم ، فإن الظروف التي تقدم وصفها جعلت من المستحيل أن يقوم العالم العربي بمجهود منظم مشترك لمكافحة الصهيونية ، في البضعة عشر عاماً التي أعقبت الحرب العالمية الأولى .

فالفضل الأول والأكبر في مكافحة الصهيونية في المهود الأولى من الانتداب ، راجع إلى أهل فلسطين أنفسهم . وقد أدوا بكفاحهم هذا إلى العروبة كلها - لا إلى فلسطين وحدها - أجل الخدمات ، ولا يستطيع المرء أن يملك نفسه من الإعجاب البالغ بالشعب الفلسطيني العربي ، الذي استطاع وحده في هذه السفين الطوال - دون أن يدركه السأم أو الكلال - أن يواجه قوات الشر والظلم الاستعماري الذي يمثله البريطانيون ، وعصابات الإجرام والخيانة التي تتمثل في الصهيونيين في فلسطين ، ومن وراءهم عصابات من الأنصار في أوروبا وأمريكا .

كانت وثيقة الانتداب التي وضعها الإنجليز بتحريض الصهيونيين ، ووافقت عليها بعد ذلك هيئة الأمم المتحدة ، وثيقة بادية التحيز والجور ، لا تكاد بنودها الثمانية والعشرون أن تشمل على شيء سوى حقوق الصهيونيين ورفاهيتهم وهجرتهم ، وتحقيق مآربهم وأوطارهم . ولم يجر فيها ذكر للعرب ، ولم يرد فيها لفظ « عربي » إلا عند الإشارة إلى أن اللغة العربية إحدى اللغات الثلاث الرسمية . أما السكان العرب فلم يذكر فيها مرة واحدة ، بل اكتفى

في بعض البنود بمجرد الإشارة إلى « السكان الآخرين » لفلسطين . فكان من الواضح أن الانتداب لم ينشأ إلا لغرض واحد وهو إقامة الوطن الصهيوني ، وإحاطته بجميع ضروب الرعاية والعناية ، التي تكفل له التقدم والفلاح والسيطرة على البلاد وسكانها .

لو أن عرب فلسطين قبلوا هذه الحال بالرضى والسكون ، ولم ينهضوا لكفاح الصهيونية والاستعمار ، لما كان هنالك شك في انتصار قوى البنى والعدوان انتصاراً كاملاً سريعاً . ولكن عرب فلسطين لم يخضعوا ولم يستكينوا ، بل نهضوا منذ بداية الانتداب إلى الثورة على الضيم الذي يراد بهم ، واضطروا حكومة الانتداب والصهيونيين لأن يحسبوا لمقاومة العرب حسابها . ومن مظاهر كفاح العرب الفلسطينيين ما يأتي :

١ - الاتفاق التام بين المسلمين والنصارى . بحيث 'مُحيت الاختلافات الطائفية بين عرب فلسطين تماماً ، وأصبحت فلسطين في هذا الأمر قدوة للأقطار العربية ، بل للعالم بأسره .

٢ - نهضة جديدة تتناول جميع النواحي الأدبية والمادية . فأقبل سكان فلسطين على إنشاء الماهد العربية الخالصة ، وإنهاض الحياة العقلية والثقافية ، والإلحاح على دولة الانتداب بأن تنشأ المدارس العربية ، وأخذ فوج متزايد من أبناء فلسطين ينزح إلى لبنان والعراق والشام ومصر ، في طلب العلم .

ونهضت الصحافة العربية في فلسطين نهضة ملحوظة ، بحيث أصبح للعرب في فلسطين منبر يسمع منه العالم العربي صوت أبناء القطر الشقيق ، فيشاطرهم آلامهم وآمالهم .

وساحب هذا كله - في الناحية المادية - نهضة اقتصادية عظيمة الخطر . فعلى الرغم من أن العرب لم تأت بهم تلك الإمدادات المالية التي كانت ترد إلى الصهيونيين من جميع أنحاء العالم ، أمكنهم أن يخطوا خطوات واسعة سديدة في الزراعة والتجارة والصناعة .

٣ - التنظيم السياسي . على الرغم مما نسمعه من أن عرب فلسطين قد انقسموا فرقاً وأحزاباً ، فإن مثل هذه الانقسامات الحزبية أمر لا مفر منه ؛ وهي من الظواهر التي تلازم الوعي السياسي في كل قطر من الأقطار . وحسبنا أن جميع تلك الأحزاب ليس لها سوى برنامج أساسي واحد ، لا يكاد يختلف ، وأنها كلها تسمى إلى تحقيق هدف واحد ، وهو التخلص من الخطر الصهيوني والحكم الاستعماري . ومهما قبل في نقد هذه الأحزاب ، فإنها كانت وسيلة لتنظيم الحياة السياسية ، وإيجاد أداة وقيادة للحركة القومية . وفي إبريل سنة ١٩٣٦ أمكن لهذه الأحزاب أن تتحد وأن تؤلف « اللجنة العربية العليا » ، التي تولت قيادة عرب فلسطين فترة من الزمن ، وقد أعيد تأليفها في الأعوام الأخيرة ، ولا تزال إلى

اليوم تؤدي لقضية فلسطين خدمات جليلة . ليس أقلها خطراً أنها هي الأداة التي أمكن بواسطتها إيجاد اتصال وثيق بين فلسطين وبين جامعة الدول العربية .

ويدخل في هذه المنظمات -- وإن لم يكن ذا صبغة سياسية صرفة -- إنشاء نقابة للعامل العرب ، أمكنها أن تعمل لرفع مستوى العمال ولحمايتهم من جور أحزاب العمال الصهيونية ، بل كان لها فوق ذلك نشاط سياسي ملحوظ .

٤ -- الثورة على سلطات الانتداب . لعل أكبر مظهر للنشاط السياسي للشعب الفلسطيني العربي هو تلك الثورات المتتالية التي قام بها منذ بداية الانتداب إلى سنة ١٩٣٩ . ومن الصعب أن نفصل القول هنا في هذه الثورات ، وما كان لها من الآثار . وليس من الإسراف في شيء أن نقول إن عرب فلسطين في العشرين عاماً التي تلت الحرب العالمية ، رأوا أن آمالهم تحطمت على صخرة الشهوات الاستعمارية ، كانوا في حالة ثورة دائمة ، وإن كانت ثورتهم قد اتخذت صورة أظهر وأكبر في بعض الأوقات ، وهذه الثورات لم تهدأ ولم تضعف على مضي الزمن ، بل ازدادت حدة وشدة على مر السنين ، حتى صارت في سنة ١٩٣٦ ثورة عسكرية منسقة ، بقيادة موحدة ، وقوات منظمة .

والعالم العربي لا يفهم الحق ما لم تؤيده مظاهر القوة . ولذلك اكتسب الشعب الفلسطيني العربي احترام الإنجليز وتقديرهم رغم أنهم . وأمكن في الوقت نفسه للعالم العربي أن يستيقظ وأن ينتبه لما يفرضه واجب العروبة من مساعدة فلسطين وموازرة سكانها .

لم تكن هذه الثورات في أي وقت من الأوقات تنتهي بانتصارات عسكرية للعرب ، ولكنها من غير شك كانت تنتهي في كل مرة بانتصارات سياسية ظاهرة لقضية العرب . فقد كانت حكومة الانتداب بعد كل ثورة ترسل اللجنة إثر اللجنة ، والبعثة بعد البعثة . لكي « تحقق » في أسباب « الاضطراب » . فكانت هذه اللجان جميعاً ومن غير استثناء ، تظهر في تقريرها ما للعرب من حقوق مهضومة ، وما يتعرضون له من الظلم بسبب نظام الانتداب الصهيوني . وعلى الرغم من أن حكومة بريطانيا لم تستطع -- لوقوعها تحت الضغط الصهيوني -- أن تنفذ ما أوصت به تلك اللجان ، فإن هذه التقارير كانت نصراً سياسياً كبيراً للعرب ، ومقياساً واضحاً لنجاحهم في كفاحهم السياسي ضد الصهيونية .

٣ -- تأييد الأقطار العربية

تمثل الثورة العربية في فلسطين عام ١٩٣٦ بداية مرحلة جديدة في مكافحة الصهيونية ،

لأن بعض الدول العربية أخذت تساهم بتصيب متزايد من العناية والاهتمام بقضية فلسطين . لم يكن في وسع سوريا ولبنان ، بعد ، أن تشتركا رسمياً في هذا الجهاد الجديد ، لأن الانتداب الفرنسي كان لا يزال جاثماً على القطرين . ولكن أقطاراً عربية أخرى تتمتع بنصيب وافر من الاستقلال ، في ظل حكومات عربية صحيمة ، استطاعت أن تدخل ميدان الدفاع عن قضية فلسطين ، وأن ترسل الإرشادات اللازمة لمندوبيها السياسيين في بريطانيا ليلبذلو جهدهم في لندن أو غيرها من العواصم لنصرة تلك القضية ؛ وليدافعوا عنها في عصبة الأمم نفسها . ورأت حكومة إنجلترا أنها قد مضت في مناصرة الصهيونية إلى أبعد مدى ، وأن صوت العرب في فلسطين أصبح يعبر عن مشاعر العالم العربي كله ، وأن الانتداب بشروطه القديمة أصبح نظاماً مستحيل التنفيذ ، ولذلك رأت أن تنشئ عهداً جديداً ، ونظاماً جديداً ، يقبله العرب واليهود إذا أمكن ، ويشترك في وضعه الجانب العربي واليهودي من أهل فلسطين ، ومندوبون عن دولة مصر ، والعراق ، وبلاد العرب السعودية ، وشرق الأردن ، واليمن .

ودعت الحكومة البريطانية هذه الدول إلى إرسال مندوبيها إلى لندن . فكان ذلك أول اعتراف صريح من حكومة الانتداب بأن مسألة فلسطين هي قضية العالم العربي كله . وقد أرسلت الدول العربية مندوبيها لحضور هذا المؤتمر في شهر فبراير ومارس سنة ١٩٣٩ ؛ وكان رئيس وفد مصر سمو الأمير عبد المنعم ، ومعه على ماهر باشا ، ووزير مصر المفوض بلندن ، ووزير مصر بالعراق (عزام باشا) ؛ وكان يمثل العراق نوري السعيد باشا ، يماونه وزير العراق في لندن ، وقام الأمير فيصل آل سعود بتمثيل دولته ، يماونه وزير المملكة السعودية المفوض في لندن .

وهذا التمثيل القوي للبلاد العربية برينا مبلغ اهتمام الأقطار العربية بقضية فلسطين ، وهذه الظاهرة لم تزد على مر السنين إلا تأكيداً ووضوحاً ؛ وفي مؤتمر لندن أمكن للحكومة إنجلترا للمرة الأولى أن تقابل العرب وجهاً لوجه في لندن ، وأن تصنى إلى آرائهم ، وأن تضع مقترحاتهم موضع التقدير .

ولعل حكومة إنجلترا كانت تدرك دائماً أن ما يتعرض له عرب فلسطين من الظلم كان له أثره السيئ في العالم الإسلامي عامة ، وفي العالم العربي بوجه خاص . ولكنها مضت في سياستها الصهيونية ولم تحاول أن تخفف من حدتها ، لأن تدخل الدول العربية لم يتخذ صورة قوية قبل سنة ١٩٣٦ ، ولأن ضغط الصهيونيين على حكومة إنجلترا وبرلمانها كان أشد تأثيراً في سياستها ، وكان كثير من أولى الأمر فيها ممن استطاع الصهيونيون استمالتهم أو شراء ضمائرهم .

وقد جعلنا نقطة التحول في سياسة إنجلترا ثورة العرب في فلسطين سنة ١٩٣٦ ؛ ومن الممكن تلخيص الأسباب التي حلت إنجلترا على محاولة تعديل سياستها الفلسطينية في الأمور الآتية :

١ - أن ثورة سنة ١٩٣٦ لم تكن ثورة على الصهيونيين وحدهم ، بل على حكومة الانتداب أيضا ، وقد اضطرت إنجلترا إلى جلب وحدات من الجيش من مصر وقبرص ومالطة ، وإلى بذل مجهود عسكري منظم .

٢ - أصبح العالم العربي شديد الاهتمام بشئون فلسطين ، يرى قضيتها قضيته ، سواء في هذا شعوب العالم العربي أو حكوماته ، وقد رأت إنجلترا نفسها أن تستعين برؤساء الدول في مختلف البلاد العربية لكي يبذلوا النصيح والإرشاد لعرب فلسطين ، حتى يكفوا عن أعمال العنف ، فكانت هذه الدعوة اعترافاً صريحاً بأن مسألة فلسطين ليست قاصرة على عرب فلسطين .

٣ - الأمر الثالث - ولعله أهم العوامل عند الإنجليز - التطور السيئ للحالة الدولية فقد قويت شوكة المحور ، واعتدت إيطاليا على استقلال الحبشة ، فأضعفت بذلك مركز إنجلترا في الشرق الأوسط . وأخذت الدعاية النازية تفضح السياسة البريطانية في فلسطين . واكفهر جو السياسة الدولية ، بحيث بات ينذر بخطر عميق ، حتى أصبحت إنجلترا تدرك أنها لن تنكسب شيئا بمجابهة العرب وممالة الصهيونيين إلى أقصى حد .

٤ - صار للعرب في ذلك الوقت صوت مسموع في عصبة الأمم وبات في وسعهم أن يستخدموا هذا النبر العالمي للدفاع عن عروبة فلسطين . وفيما مضى كانت لا تصل إلى العصبة سوى الشكاوى التي ترسلها اللجنة العربية العليا ، وبعض الأفراد والهيئات في فلسطين . أما الآن فقد أصبح بعض الدول العربية أعضاء في عصبة الأمم يدافعون عن قضية فلسطين من داخل الهيئة لا من الخارج .

وهكذا تحوت قضية فلسطين - بصورة رسمية - بحيث أصبحت قضية العالم العربي . ولا بد هنا أن نشير إلى ناحية أخرى لاهتمام الدول العربية بأمر فلسطين . تلك أن قادة الدول العربية أصبحوا عنصراً هاماً في توحيد كلمة عرب فلسطين ، وإزالة ما بين الأحزاب الفلسطينية من أسباب الخلاف . وقد أوفدت الدول العربية غير مرة بعض مندوبيها لكي يسمى بين تلك الأحزاب ، ويدعوها إلى الاتحاد والائتلاف . وهذه الجهود كانت تنال دائماً حظاً كبيراً من التوفيق ، وستكون دائماً عاملاً هاماً في توحيد كلمة فلسطين .

وبعد أن شرد كثير من قادة الرأي في فلسطين وسجنوا أو نفوا إلى بلاد بعيدة ، ولم يبق بها منهم من نلتف حول جماعات الشعب الفلسطيني ، كانت قضية فلسطين أمانة في عنق الدول العربية ، وقد أدت هذه الدول الأمانة في قوة وإخلاص .

لم يسفر مؤتمر لندن عن اتفاق يرضاه العرب واليهود الصهيونيون . فأصدرت الحكومة البريطانية السكتاب الأبيض المعروف في شهر مايو سنة ١٩٣٩ ، وقد رسم هذا السكتاب السياسة التي آت حكومة إنجلترا على نفسها أن تتبعها في فلسطين ، وتشتمل هذه السياسة على ثلاثة عناصر رئيسية :

الأول : تحديد مهاجرة اليهود ، بحيث لا يدخل منهم فلسطين بعد ذلك التاريخ سوى ٧٥٠٠ مهاجر ، موزعين على خمس سنوات تنتهي في ٣١ مارس سنة ١٩٤٢ .

الثاني : منع بيع الأراضي لليهود إلى جهات محدودة حول القدس وتل أبيب وحيفا وبعض جهات أخرى .

ثالثاً : التدرج في نظام الحكم ، بحيث تنشأ في فلسطين حكومة موحدة في مدى عشرة أعوام

لا شك في أن هذه الوثيقة تمثل تراجعاً كبيراً في السياسة البريطانية ، لأنها للمرة الأولى استطاعت أن تعلن أن اليهود لن يسمح لهم بأن يكونوا أكثر من ثلث سكان فلسطين ، وأن معظم الأراضي يجب أن يظل في أيدي ملاكها من المزارعين العرب . ومما لا شك فيه أن هذه السياسة تعد نصراً مؤكداً للعرب ، وثمرات كفاحهم الطويل ، ولو أنها لم تحقق ما كانوا يطالبون به .

وعلى أثر مؤتمر لندن ، عقد مؤتمر عربي في القاهرة ، وعلى الرغم من أنه لم يكن أول مؤتمر عربي بفلسطين ، فإنه امتاز بأشتماله على ممثلين رسميين لحكومات الدول العربية . وقد أسفر هذا المؤتمر عن طائفة من المقترحات العملية لحل قضية فلسطين على أساس عادل . ولكن حكومة بريطانيا فضلت كتابها الأبيض والسياسة التي اشتمل عليها ، وقد أثبتت الحوادث أن العرب كانوا أبعد نظراً وأصدق سياسة من البريطانيين . وأهم نواحي الاختلاف بين السياستين أن مشروع القاهرة يقرر الشروع فوراً في إنشاء حكومة وطنية ديمقراطية في فلسطين ، وأن يقوم بين هذه الحكومة وبريطانيا تحالف مؤيد بمهادنة بين الطرفين . وبديهي أن إنجلترا لم قبلت هذا الحل في ذلك الوقت لما جرت على نفسها كل تلك الويلات

والكوارث ، التي انتهت بخروجها من فلسطين في صورة لا نستطيع أن نصفها بأقل من أن الصهيونيين — وهم صنائع الإنجليز — كانوا السبب المباشر في إخراجها منها .

في أثناء الحرب العالمية ساد نوع من الهدوء في فلسطين ، لأن العرب كانوا يراقبون باهتمام تنفيذ بريطانيا للسياسة التي نطأها الكتاب الأبيض ، ولأن العرب لم يكونوا يعطفون على دول المحور ، وأشفقوا من أن يخلفوا الدولة الانتداب مشاكل تعجزها عن متابعة الأعمال الحربية . وهذه السياسة نرى أثرها واضحاً في قلة تأييد العرب لثورة رشيد الكيلاني . غير أن الصهيونيين لم يهدأوا ولم يستكينوا ، وانغمسوا في أعمال الشغب والعنف في أثناء الحرب ، وكان نشاطهم الإجرائي يزداد ازدياداً مطرداً كلما قربت الحرب من نهايتها . هذا على الرغم من أن بريطانيا كانت تحارب النازيين ، وهم العدو الأكبر لليهود . أما نشاطهم السياسي ، فقد اتجه بوجه خاص إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، حيث أمكنهم أن يكتسبوا عطف الرئيس روزفلت ، وأن يحرضوا مجلس الشيوخ ومجلس النواب في واشنطن على النظر في اقتراحات خطيرة تؤيد الصهيونيين أشد التأييد .

قدمت هذه الاقتراحات في عامي ١٩٤٣ و ١٩٤٤ . وفي المرة الثانية كان المعروض على الكونجرس الأمريكي أن يوافق على فتح أبواب فلسطين للهجرة اليهودية من غير قيد ولا شرط ، وأن تتحول فلسطين بعد الحرب إلى دولة يهودية حرة ، وأن تستخدم الولايات المتحدة نفوذها في تحقيق هذا الهدف .

لم يكف هذا المشروع أن يثار في البرلمان الأمريكي ، حتى بادرت الدول العربية جميعاً — ومنها الآن سوريا ولبنان — بالاحتجاج الشديد لدى الحكومة الأمريكية ، وكان لهذه الاحتجاجات القوية أثرها . حتى اضطرت الجنرال مارشال رئيس أركان حرب القوات الأمريكية إلى الضغط على البرلمان الأمريكي بأن يعدل عن هذه المقترحات .

وفي أوائل عام ١٩٤٥ كان الرئيس روزفلت عائداً من مؤتمر « يالطا » ماراً بالبحر الأبيض المتوسط ، وقد رست به سفينته بمض الوقت في بحيرة التماسح بقناة السويس . وزاره هناك الملك عبد العزيز آل سعود ودار بينهما حديث ، احتلت فيه قضية فلسطين المكان الأول . وحسبنا أن نذكر هنا ما قاله الرئيس روزفلت نفسه في هذا الصدد ، في رسالته عن رحلته التي أرسلها إلى الكونجرس ، والتي قال فيها إن هذه المحادثات التي قضاها مع الملك عبد العزيز قد علمته عن مشكلة فلسطين أكثر مما كان يعرف في مدى سنوات عديدة ،

ومنذ عاد الرئيس روزفلت إلى أمريكا ظهر تحول واضح في موقفه من الصهيونيين ، فلم يعد يفتح لهم باب البيت الأبيض ، أو يستمع إلى شكائاتهم ومطالبهم التي لا تنتهى .

وبعد عودة الرئيس إلى واشنطن تلقى رسالة طويلة من الملك عبد العزيز ، والراجح أنه كان ينتظر مثل تلك الرسالة . وقد شرح فيها الملك العربى قضية فلسطين شرحا وافيا . وضمنها كل حجة دامغة تمزق دعاوى الصهيونيين شر ممزق . ولم يلبث أن جاء الرد من الرئيس روزفلت ، يعلن أنه لن يحدث أى تحول في حالة فلسطين السياسية ، دون الرجوع إلى رأى العرب واليهود ، وأن حكومة الولايات المتحدة لن تبدأ من تلقاء نفسها بالمطالبة بإحداث أى تغيير في فلسطين .

وقد وجه سائر ملوك ورؤساء الدول العربية رسائل في نفس المعنى والتاريخ إلى رئيس الولايات المتحدة ، وتلقت منه ردوداً مشابهة . ولاشك أن وفاة الرئيس بعد ذلك بقليل كانت خسارة كبيرة للعالم العربى وقضية فلسطين ، بعد أن جاهد قادة العرب جهادا صادقا لإفهامه قضية فلسطين على حقيقتها ، ومكنوه من أن يدرك تضليل الصهيونيين وبطلان دعايتهم .

وقد حاول الرئيس ترومان بعد ذلك أن ينكر أن مثل هذه الرسائل قد تبودلت ، وسولت له نفسه أن يزعم أنه يجهل وجود أمثال هذه المكاتبات . ولكن الدول العربية اضطرت به إلى أن يعدل عن هذا الموقف الغريب ، وأن يعترف بوجود هذه الرسائل . ولم يكن ما يقبله العقل أن يجهل نائب الرئيس عملا خطيرا كهذا من أعمال رئيسه ، وكان بوسعه لو شاء أن يستوثق من الأمر قبل أن يندفع في زعمه الباطل ، وأن يتخذ موقفا لم يكن له أن يرجع عنه ، وليس في مثل هذا الحادث ما يحفظ لرئيس كرامته أو يشجع على الثقة به .

٤ - قيام جامعة الدول العربية

لا شك أن قيام التعاون السياسى والاقتصادى والثقافى المنظم بين الأقطار العربية ، الذى يتمثل في جامعة الدول العربية ، كن ولا يزال أكبر أداة لمسكافة الصهيونية وأنصارها . ومن الممكن أن نقول إن نظام جامعة الدول العربية قد جاء بعد أن وجد ذلك التعاون فعلا ، وبعد أن كانت تلك الجامعة قائمة بالفعل ، وإن لم تكن قد أنشئت رسميا بعد ، فلم يكن هذا الإنشاء الرسمى سوى اعتراف بالأمر الواقع . بدأ هذا التعاون بصورة قوية منذ سنة ١٩٣٦ ثم أخذ ينمو نموا مطردا . وفى أثناء الحرب كان العرب فى جميع محافلهم وأنديتهم لا يتحدثون

في شيء أكثر من حديثهم عن وحدة البلاد العربية ، والصورة التي يجب أن تتخذها تلك الوحدة . وبدأت المداوولات في أثناء عامي ١٩٤٣ و ١٩٤٤ ، وانتهت بوضع بروتوكول الإسكندرية ، موقعاً عليه من المندوبين الرسميين لخمس دول عربية ، وهي : لبنان والعراق وسوريا وشرق الأردن ومصر ، في ٧ أكتوبر سنة ١٩٤٤ . ثم وضع الميثاق في ٢٢ مارس سنة ١٩٤٥ ، ووافقت عليه الدول العربية السابقة الذكر ومعها المملكة العربية السعودية ، كما انضمت إليها بعد قليل مملكة اليمن .

وفي كل من البروتوكول والميثاق أبدت الدول العربية عنايتها واهتمامها بقضية فلسطين . فجاء في البروتوكول قرار خاص بفلسطين ، ينص على أن فلسطين ركن مهم من أركان البلاد العربية ، وأن حقوق العرب لا يمكن المساس بها من غير إضرار بالسلم والاستقرار في العالم العربي ، ويعلن تأييد الدول العربية لعرب فلسطين بالعمل على تحقيق أمانهم المشروعة في قضيتهم العادلة .

أما الميثاق فقد عني عناية خاصة بالوضع السياسي لفلسطين ، والوسيلة التي يجب أن تتبع لضمان مساهمة سكانها العرب في أعمال الجامعة العربية . ولهذا الغرض اشتمل الميثاق على ملحق خاص بفلسطين ؛ ينص على أن استقلالها الدولي من الناحية الشرعية أمر لا شك فيه . وأنه إذا كانت المظاهر الخارجية لذلك الاستقلال ظلت محجوبة لأسباب قاهرة ، فلا ينبغي أن يكون ذلك حائلاً دون اشتراكها في أعمال مجلس الجامعة . ولذلك رأت الدول الموقعة على ميثاق الجامعة العربية ، أنه نظراً لظروف فلسطين الخاصة ، وإلى أن يتمتع هذا القطر بممارسة استقلاله فعلاً ، يتولى مجلس الجامعة اختيار مندوب عربي من فلسطين للاشتراك في أعماله . كان تضمين الميثاق هذا الملحق الخاص بفلسطين أمراً على جانب كبير من الأهمية ، لأنه مكن عرب فلسطين من الاشتراك الرسمي في مداوالات الجامعة ولجانها ومؤتمراتها من جهة ، ومن جهة أخرى ساعد على توحيد كلمة الفلسطينيين وتنسيق نشاطهم وجهودهم بحيث تتمشي مع الإجراءات والسياسة التي يرسمها مجلس الجامعة .

ومنذ تمت الموافقة على الميثاق مضت جامعة الدول العربية في جهودها لفصرة فلسطين ، وازدادت هذه الجهود أضمافاً مضاعفة . ومن المستحيل أن نحيط بجميع هذه الجهود في هذا المقام المحدود . وعلى الأخص أن معظمها لا يزال ماثلاً في أذهاننا وأمام أعيننا . وحسبنا هنا أن نشير إلى بعض النواحي الهامة لكفاح جامعة الدول العربية . من أجل فلسطين ؛ ولعل أهمها توحيد وتنسيق العمل في المؤتمرات الدولية عامة ، وفي اجتماعات هيئة الأمم المتحدة بوجه خاص .

كان لوجود جامعة الدول العربية فضل كبير في اعتراف الأمم المتحدة لهذه الدول بأنها مجموعة متضامنة تؤلف وحدة إقليمية ذات شأن . وقد ضمن هذا أن يكون للجامعة عضو يمثلها في مجلس الأمن . وفي سائر الهيئات واللجان التي يشتمل عليها نظام الأمم المتحدة . وكان لهذا الأمر أعظم الأثر في الدفاع عن قضية فلسطين ، وقد رأينا ذلك في وضوح ، ولا تزال نشاهده حتى اليوم ، في الدفاع المجيد الذي يقوم به مندوب سوريا في مجلس الأمن عن شئون فلسطين . والحقيقة أن ممثل سوريا في مجلس الأمن هو ممثل للجامعة الدول العربية كلها .

وانشتركت الدول العربية في مؤتمرات في لندن ، في أواخر عام ١٩٤٦ وأوائل عام ١٩٤٧ وبفضل جهودها الموقفة أمكن مكافحة النفوذ الصهيوني الذي كان يسيطر على حزب العمال . وأخذت حكومة العمال تنظر إلى قضية فلسطين نظرة أقرب إلى الحقيقة . ومن أهم الثمرات التي نشأت من اجتماع لندن ذلك المشروع العربي لحل قضية فلسطين ، الذي يمتاز بالهدوء والاعتدال ، ولا يستطيع منصف أن ينكر أنه أفضل حل لتلك القضية ، على كثرة ما عرض فيها من الحلول ، وما أثير حولها من الأراجاف .

وقد أمكن للجامعة الدول العربية أن تعني بالدعاية لقضية فلسطين ومساعدة المكتب العربي في إنجلترا وأمريكا على النهوض بأعماله في هذا الميدان الهام ؛ كما أنها استطاعت أن تنظم الوسائل التي تتبع لمقاطعة الصناعات والسلع الصهيونية ، فأزالت بالاقتصاد الصهيوني أفدح الخسائر .

وبدعي أنه لولا النشاط السياسي الذي اضطلعت به جامعة الدول العربية ، لما تيسر لها بذل ذلك المجهود الحربي المنظم ، لتحرير فلسطين والقضاء على المصائب الإرهابية فيها . وهو من غير شك أكبر مظهر للتعاون العربي ، بل لعله من أهم مظاهر التعاون في الميدان الدولي كله .

وهكذا نرى أن الكفاح السياسي ضد الصهيونية قد بلغ ذروته بإنشاء جامعة الدول العربية ، وما ترتب عليه من توحيد كلمتها وتنسيق جهودها .

محمد عوض محمد

الكفاح الاقتصادي ضد الصهيونية

المؤلف: برهان راغب البرجاني

حينما بدأت الصهيونية غزوها لفلسطين بعد الحرب العالمية الأولى كان هذا البلد متأخراً من الوجهة الاقتصادية تأخراً كبيراً . فالصناعة كانت في بدء نشوئها ، وكانت طرقها قديمة غير مجدية . والمعرفة الفنية اللازمة لصناعة حديثة كانت معدومة تقريباً ، كما أن نظام الحكم لم يكن يشجع على نشوء الصناعة أو على التطور الاقتصادي بشكل عام . ولم يكن حال الزراعة أفضل من حال الصناعة ، فقد كانت هي الأخرى متأخرة تستعمل الطرق الساذجة القديمة . وكان يمنع تقدم الزراعة نظام الأعشار والضرائب ، ونظام توزيع الأراضي الذي جعل معظمها في أيدي قلة من الناس يعيش معظمهم خارج فلسطين . وقد سبب نظام توزيع الأراضي فيما بعد كارثة سياسية بالإضافة إلى أضراره الاقتصادية كما سنرى .

وقد كان تفوق الصهيونية الاقتصادي ساحقاً في بادئ الأمر ، فقد نص الانتداب الفلسطيني على وضع البلاد في أحوال اقتصادية وسياسية تساعد على إنشاء الوطن القومي اليهودي ، واستغل الصهيوونيون هذا النص استغلالاً تاماً فأصبح جهاز الحكم أداة طيعة تسهل لهم تحقيق مشاريعهم الاقتصادية المختلفة ، ثم استطاعوا أن يوظفوا في فلسطين كميات طائلة من الأموال جمعوا معظمها من أثرياء اليهود في مختلف أنحاء العالم ، وأوجدوا مؤسسات مالية تفي بمشاريعهم الاقتصادية على أساس تجاري ، وأخرى تفيها على سبيل الهبة والتبرع كلما لاقت الصعوبات . ولم تكن تموز اليهود المعرفة الفنية ، فقد جاء معظمهم من بلاد صناعية متقدمة في أوروبا ووضعوا خبرتهم للقيام بمختلف المشاريع .

وقد استطاع اليهود بفضل هذه الأمور إنشاء نظام اقتصادي واسع في فلسطين ، كلفهم زهاء مائة وخمسة وعشرين مليون جنيه . وقد وظف اليهود حوالي خمسة عشر مليوناً من الجنيهات في إنشاء عدد كبير من الصناعات المتنوعة ، وأنفقوا ما يقارب عشرة ملايين من الجنيهات على تنمية زراعة الحمضيات ، أما الباقي فوزع بين أنواع الزراعة الأخرى وتكاليف البناء والعمران والمشاريع الإنشائية والتجارية المختلفة .

أما الأهداف التي كان الصهيوونيون يرمون إلى تحقيقها بالوسائل الاقتصادية فهي ثلاثة :

العالمية ، وكانت صناعة الموالح أحد الأركان الأساسية للحياة الاقتصادية اليهودية . وهناك أسباب أخرى بالطبع مثل سوء المواصلات ومقاطعة العرب وسواها . ولكن هذه الفترة انتهت بإعلان الحرب التي قطعت فلسطين وكثيراً من البلاد العربية المجاورة عن مصادر الإنتاج الصناعي في العالم ، فانهز اليهود الفرصة وأحيوا كثيراً من الصناعات الميتة وأنشأوا صناعات أخرى ، جنوا منها في فترة الحرب أرباحاً طائلة .

وبالرغم مما يبدو على الاقتصاد الصهيوني من ثبات في الوقت الحاضر فإن المرء ليلحظ كثيراً من نقاط الضعف القديمة ، ولا بد لهذه النقاط أن تظهر يوماً وتؤثر في حياة اليهود تأثيراً كبيراً . فمن مظاهر الضعف ذلك الدين العظيم الذي تفرق به المستعمرات الزراعية حتى لقد قدر دين المستعمرات الزراعية التابعة لمنظمة المستدروت اليهودية وحدها بأربعة عشر مليون جنيه في العام الماضي ، وقد أظهرت حسابات المستعمرات اليهودية الزراعية أن أكثر من ثمانين في المائة منها يتحمل خسارة سنوية غير قليلة . كما أن الصناعة اليهودية قد عادت إلى شيء من الارتباك منذ نهاية الحرب وعودة الاتصال مع البلاد الصناعية الأجنبية وقد زاد في هذا الارتباك مقاطعة البلاد العربية للبضائع الصهيونية .

وقد بذل اليهود جهوداً عظيمة لتصرف منتوجاتهم في الأقطار العربية المختلفة وتوسلوا لذلك بوسائل مختلفة . فمن ذلك وسيلة إغراق الأسواق العربية ببضائع صهيونية رخيصة ، حتى لقد كان الكثير من المنتجات الصهيونية يباع في فلسطين بثمن أعلى من ثمنه في أسواق الأقطار العربية الأخرى ، وقد استعملت هذه الطريقة قبل الحرب عدة شركات يهودية منها شركة الأسمت التي استطاعت أن تبيع الأسمت في سوريا ولبنان بما يقرب من نصف ثمنه في فلسطين ومكسبها من ذلك الحماية الكبيرة التي فرضتها حكومة فلسطين على الأسمت المستورد من الخارج . كما توسل اليهود أيضاً بوسائل الدعاية والإعلان لنشر بضائعهم في مختلف الأسواق العربية ، وساعدتهم على ذلك أن كثيراً من كبار التجار والبائعين في الأسواق العربية كان من اليهود .

إلا أن الجامعة العربية قد وضعت حداً نهائياً لهذه المحاولات بقرارها مقاطعة البضائع الصهيونية كما سنرى .

وأخيراً فقد نجح اليهود أيضاً في الاستيلاء على قسم كبير من أراضي فلسطين الزراعية وفي إجلاء العرب عنها وفي خلق طبقة كبيرة من الفلاحين الذين لا يملكون أرضاً . ويقدر الآن أن ما يملكه اليهود من الأراضي الزراعية في فلسطين يبلغ حوالي مليوني

العالمية ، وكانت صناعة الموالح أحد الأركان الأساسية للحياة الاقتصادية اليهودية . وهناك أسباب أخرى بالطبع مثل سوء المواصلات ومقاطعة العرب وسواها . ولكن هذه الفترة انتهت بإعلان الحرب التي قطعت فلسطين وكثيراً من البلاد العربية المجاورة عن مصادر الإنتاج الصناعي في العالم ، فانهز اليهود الفرصة وأحيوا كثيراً من الصناعات الميتة وأنشأوا صناعات أخرى ، جنوا منها في فترة الحرب أرباحاً طائلة .

وبالرغم مما يبدو على الاقتصاد الصهيوني من ثبات في الوقت الحاضر فإن الرء ليلحظ كثيراً من نقاط الضعف القديمة ، ولا بد لهذه النقاط أن تظهر يوماً وتؤثر في حياة اليهود تأثيراً كبيراً . فمن مظاهر الضعف ذلك الدين العظيم الذي تفرق به المستعمرات الزراعية حتى لقد قدر دين المستعمرات الزراعية التابعة لمنظمة المستدروت اليهودية وحدها بأربعة عشر مليون جنيه في العام الماضي ، وقد أظهرت حسابات المستعمرات اليهودية الزراعية أن أكثر من ثمانين في المائة منها يتحمل خسارة سنوية غير قليلة . كما أن الصناعة اليهودية قد عادت إلى شيء من الارتباك منذ نهاية الحرب وعودة الاتصال مع البلاد الصناعية الأجنبية وقد زاد في هذا الارتباك مقاطعة البلاد العربية للبضائع الصهيونية .

وقد بذل اليهود جهوداً عظيمة لتصرف منتوجاتهم في الأقطار العربية المختلفة وتوسلوا لذلك بوسائل مختلفة . فمن ذلك وسيلة إغراق الأسواق العربية ببضائع صهيونية رخيصة ، حتى لقد كان الكثير من المنتجات الصهيونية يباع في فلسطين بثمان أغلى من ثمنه في أسواق الأقطار العربية الأخرى ، وقد استعملت هذه الطريقة قبل الحرب عدة شركات يهودية منها شركة الأسمنت التي استطاعت أن تبيع الأسمنت في سوريا ولبنان بما يقرب من نصف ثمنه في فلسطين ومكثها من ذلك الحماية الكبيرة التي فرضتها حكومة فلسطين على الأسمنت المستورد من الخارج . كما توسل اليهود أيضاً بوسائل الدعاية والإعلان لنشر بضائعهم في مختلف الأسواق العربية ، وساعدهم على ذلك أن كثيراً من كبار التجار والبائعين في الأسواق العربية كان من اليهود .

إلا أن الجامعة العربية قد وضعت حداً نهائياً لهذه المحاولات بقرارها مقاطعة البضائع الصهيونية كما سنرى .

وأخيراً فقد نجح اليهود أيضاً في الاستيلاء على قسم كبير من أراضي فلسطين الزراعية وفي إجلاء العرب عنها وفي خلق طبقة كبيرة من الفلاحين الذين لا يملكون أرضاً . ويقدر الآن أن ما يملكه اليهود من الأراضي الزراعية في فلسطين يبلغ حوالي مليوني

دونم ، من مجموع ثمانية ملايين دونم تصلح للزراعة في فلسطين بأكملها ، أى أن اليهود يملكون ربع الأراضي الزراعية في فلسطين ، إلا أن الأراضي التي يملكونها تفوق الربع بكثير ، فهي أجود أراضي فلسطين وأخصبها ، وكلها تقع في السهول الغنية بتربتها ، والتي يتوفر لها الماء ، إما بواسطة الآبار الارتوازية ، أو الأنهار والجداول ، أو مياه المطر . وتقع أكثر هذه الأراضي في السهل الساحلي و مرج ابن عامر وسهل الأردن والحولة ، وهي سهول فلسطين الرئيسية . فالواقع إذن أن قيمة الأراضي الزراعية التي يملكها اليهود تزيد على ثلث الأراضي الزراعية في فلسطين .

وقد كانت مشكلة الأراضي في فلسطين إحدى المشاكل الحادة التي أدت إلى الاضطراب والثورات ، ولذلك فقد قام لتحقيقها عدة لجان بريطانية ، بعضها تخصص في التحقيق بها وحدها ، وكان أهم تقرير كتب عنها ذلك التقرير الذي كتبه الخبير البريطاني جون هوب سمسون سنة ١٩٣٠ ، فقد أوضح بجلاء أن الأراضي التي بيد العرب قليلة جداً وتفتقر عن حاجتهم الزراعية بكثير ، ودعا إلى تدارك الأمر بسرعة ، وأظهر أن أكثر من تسعة وعشرين بالمئة من الفلاحين العرب لا يملكون أرضاً على الإطلاق ، ولذلك يعتمدون على الأعمال الزراعية الموسمية أو على مساعدة الأقارب ، أو يضطرون إلى النزوح المدن ، والمدن تكون بدورها مكتظة بالسكان ، فلا يجدون فيها العمل الذي يبحثون عنه . وأوضح التقرير أيضاً أن المزارعين العرب الذين يملكون الأرض لا يملكون منها ما يكفي لسد أودهم ، ولذا تراهم غارقين بالديون ، ولا بد أن يضطر الكثيرون منهم بسبب ديونهم هذه إلى بيع أراضيهم . وأظهرت لجنة أخرى ألفت للتحقيق في أحوال المزارعين العرب وهي لجنة جونسون كروسبي أن معدل دين المزارع العربي يزيد على دخله لمدة سنة كاملة ، وأن معدل ما يملك من الأرض يبلغ نصف ما يحتاج . وكثيراً ما وجه اللوم إلى عرب فلسطين واعتبروا مسئولين عن بيع أراضيهم ، ومستحقين للنتائج المترتبة على هذا البيع . ولكن درس مشكلة الأراضي في فلسطين يظهر لنا بجلاء أن عرب فلسطين لم يبيعوا إلا قسماً قليلاً من الأراضي لا يزيد في مجموعه على ربع ما يملكه اليهود . فقد كان اليهود يملكون حوالى ٦٥٠ ألف دونم في فلسطين قبل حرب سنة ١٩١٤ — ١٩١٨ ، وقبل أن تظهر الصهيونية بشكائها السافر . ثم اشترى اليهود بعيد تلك الحرب ما يقرب من ٧٠٠ ألف دونم من عدد من الإقطاعيين اللبنانيين والسوريين الذين لم يسكنوا فلسطين في يوم من الأيام ، وكان أكثرهم من العائلات التي لم تعرف الوطنية ولم يكن يهمها في الحياة سوى الملاذ والتشبه بالأجانب .

وكان انتشار النظام الإقطاعي ، أى ملكيات الأراضي الكبيرة ، أحد العوامل التي مكنت اليهود من شراء صفقات كبيرة من الأرض بأغراء عدد قليل من الناس . أما الفلاح الفلسطيني فلم يبيع من الأرض إلا مساحات قليلة اضطرته إلى بيعها أحواله المادية الصعبة ، وكان البيع يجري في الغالب إلى سمسار اشتراه اليهود بأموالهم وبيعها السمسار بدوره إلى اليهود . وبما أن حكومة فلسطين مكافئة بتسهيل إنشاء الوطن القومي اليهودي ، فإنها لم تفعل شيئاً يستحق الذكر لحماية الفلاح العربي من الدائن والسمسار أو للمحافظة على أرضه . وقد سنت في سنة ١٩٢٠ قانوناً لتنظيم انتقال الأراضي في فلسطين قسمت فيها البلاد إلى ثلاث مناطق — منطقة يمنع فيها بيع الأراضي إلا لعربي فلسطيني — وأخرى يسمح فيها البيع لغير العرب الفلسطينيين بشرط موافقة المندوب السامي — وثالثة يسمح فيها لليهود بشراء الأراضي . وقد وجد اليهود طرقاً عديدة للاحتيال على هذا القانون ، ولم تفعل الحكومة شيئاً لإزاء تلك الطرق ، فاستمر تسرب الأراضي إلى اليهود في جميع المناطق .

لقد استعرضنا فيما تقدم مدى نجاح اليهود في تحقيق الأهداف التي جعلوا من الاقتصاد وسيلة لتحقيقها . وهو كما نرى نجاح خطير مخيف ، من العبث التقليل من أهميته والخط من شأنه ، ولتَمَ نظرنا الآن إلى الصورة لنرى ما فعله العرب لمكافحة هذه الأهداف عن طريق الاقتصاد .

قلنا فيما تقدم بأن ما لدى العرب من الوسائل المادية والفنية يقل كثيراً عما لدى اليهود ، ولذلك فإن عرب فلسطين وحدهم لا يستطيعون بوسائلهم المادية المحدودة مقاومة تيار قوى جارف كهذا . ومع ذلك فإنهم لم ينفوا مكتوفي الأيدي وحاولوا ، جهدهم ، العمل بالقليل الذي لديهم .

وكان واجب العرب الأول بالطبع أن يقروا جهازهم الاقتصادي حتى يستطيع الثبات أمام الجهاز اليهودي ، وحتى يساعدهم على الصمود السياسي . ولئن كانت لدى اليهود الميزات المتقدمة فإن لدى العرب ميزة على الأقل ، وهي أن أجور المال عندهم أقل بكثير مما هي عند اليهود ، وهذا يجعل تكاليف الإنتاج عندهم أقل . وقد استطاع العرب أيضاً توسيع صناعاتهم ، فبعد أن كان رأسمالها سنة ١٩١٨ لا يتجاوز مليون جنيه أصبح الآن يقرب خمسة ملايين أى أن الصناعة العربية تبلغ ثلث الصناعة اليهودية ، كما استطاع العرب أيضاً توسيع زراعة الواح ، وهم الآن يملكون ما يقرب من ٥٥ في المائة من موالح فلسطين ، ويبلغ مجموع ما وظيفوه في تلك الزراعة عشرة ملايين جنيه . إلا أن الواح قد تأثرت كثيراً بسبب عدم تصديرها طول مدة

الحرب ، ولم يصدر جميع ما أنتجته فلسطين من الموالح منذ سنة ١٩٣٩ إلا في هذا الموسم (١٩٤٧ - ٤٨) . وقد حلت بمزارعي الموالح خسائر كثيرة مدة الحرب ، ولئن صمدت هذه الزراعة ، ولم تزل تماماً في فلسطين ، فكثير من الفضل يعود إلى القروض التي دفعتها حكومة فلسطين لمزارعي الموالح خلال مدة الحرب . ولعله يصح القول أنه لو لم يكن لليهود نصف بيارات البرتقال في فلسطين لما دفعت الحكومة شيئاً من القروض لمساعدة هذه الزراعة .

إلا أن الجهاز الاقتصادي العربي في فلسطين يحتاج إلى دعم قوى من دول الجامعة العربية ، وإلى مساهمة هذه الدول في إنشاء المشاريع الاقتصادية لدى عرب فلسطين ، فقاومة الاقتصاد اليهودي السلبية بمقاطعة البضائع الصهيونية لا تكفي ، بل يجب دعم هذا الجهد السلبي بمجهود إيجابي . وهذا يقودنا إلى نقطة أخرى ، وهي النقطة الوحيدة التي حالف العرب فيها نجاح تام في كفاحهم الاقتصادي ضد الصهيونية ، وهي مقاطعة البضائع الصهيونية . فقد قررت الجامعة العربية في جلستها المنعقدة في ٢٨ ذى الحجة ١٣٦٤ هجرية الموافق ٤٥/١٢/٣ ، أن تقوم جميع الدول العربية بمقاطعة البضائع الصهيونية ، وأن تمنع استيرادها إلى بلادها منعاً باتاً . وقد أصدرت الحكومات العربية فوراً القوانين لتنفيذ هذا القرار وألفت لجنة من الجامعة للإشراف على أعمال المقاطعة . ولا شك أن الدول العربية قد نجحت في تطبيق هذا القرار . وقد حاول الصهيوونيون الاحتيال على قوانين الدول العربية ، كحماولتهم الاحتيال على قوانين حكومة فلسطين بشأن منع بيع الأراضي لليهود ، فأخذوا يرسلون البضائع إلى أقطار غير عربية أولاً (كقبرص) ثم يصدرونها إلى الأقطار العربية على أنها بضائع غير صهيونية ، كما حاولوا تهريب هذه البضائع . ولكن هذه المحاولات لم تنل نجاحاً يستحق الذكر لأن الدول العربية اتخذت ما يلزم من الإجراءات لإحباطها من جهة ، ولأن مثل هذه الطرق يزيد في تكاليف البضائع الصهيونية فيجعل تصريفها في الأسواق العربية صعباً نظراً لفلاؤها . ثم اتخذت بعض الحكومات العربية إجراءات أخرى لتضييق الخناق على الاقتصاد الصهيوني ، وذلك بمنع تصدير المواد الأولية إلى فلسطين لكيلا يستعملها اليهود في صناعاتهم ، ثم قررت حكومة مصر اتخاذ خطوة أخرى بمنعها مرور البضائع بطريق الترانزيت في مصر سواء كانت ذاهبة إلى الصهيونية أو خارجة منهم .

وقد كان من أثر هذه الإجراءات أن اختفت البضائع الصهيونية من الأسواق العربية اختفاء تاماً تقريباً ، وزال أمل اليهود في أن يعملوا من الأقطار العربية سوقاً ، وهبطت صادرات فلسطين إلى الأقطار العربية في السنتين الأخيرتين هبوطاً عظيماً كبيراً . وقد أثر ذلك على

الصناعات اليهودية ، فأصبحت صناعة النسيج تعاني أزمة حادة وأغلق كثير من مصانع النسيج أبوابه ، كما اختفت صناعة اللباس تماماً ، وارتبك أكثر الصناعات اليهودية ، وراح اليهود يشنون حملة دعاية واسعة ضد الأقطار العربية ويحاولون التفتيش عن أسواق أخرى في البلقان وتركيا وسواها ، دون نجاح يستحق الذكر . وقد ساعد على هذا الارتباك الهام أن مصادر الإنتاج الرئيسية في العالم قد أعيد فتحها وأصبح من الممكن استيراد البضائع منها إلى الأسواق العربية . والبضائع التي ينتجها الصهيونيون تعجز عن الصمود أمام منافسة حرة مع البضائع الأوروبية والأميركية نظراً لارتفاع تكاليف الأولى ولعدم جودتها إذا ما قيسَت بالأخيرة . ومن الصعب تقدير أثر المقاطعة العربية في الاقتصاد الصهيوني تقديراً دقيقاً ، ولكن المعتقد أنه إذا ما ثار العرب على هذه المقاطعة ، فإن أثرها سيبتضح بجلاء عظيم في المستقبل وسيكون من نتائج المقاطعة العربية مضاعفة متاعب الاقتصاد الصهيوني وزيادة إرباكه . إلا أن في طرق تنفيذ المقاطعة حلقات ضعيفة يجب زيادة الاهتمام بها وتقويتها .

ننتقل الآن إلى كفاح العرب لمنع تسرب الأراضي العربية إلى اليهود . سبق أن قلنا إن معظم ما اشتراه اليهود من الأراضي كان في البدء ملكاً لجماعة من الاقطاعيين غير الفلسطينيين وإن الفلاح الفلسطيني متعلق بأرضه لم يبيع إلا القليل منها ، وكان يبيع لها ناشئاً عن شدة حاجته إلى المال وتفرير بعض الخونة به . وقد قام العرب بصراع سياسي قوى للحصول على تشريع لمنع تسرب الأراضي إلى اليهود فأصدر هذا الصراع عن سن قانون سنة ١٩٤٠ سبقت الإشارة إليه .

وقد أدرك العرب أيضاً أنه إلى جانب الصراع السياسي يجب أن يقوموا بصراع اقتصادي في سبيل تحقيق الغاية نفسها ، ومن الواضح أنه ما دام سبب بيع الأراضي هو الحاجة أو الإغراء ، فيجب على أي مشروع عربي أن يواجه هذين الاحتمالين حتى يتحقق له النجاح ، فتزال الحاجة التي قد تدعو إلى بيع الأراضي ، وتشتري الهيئات العربية الأرض التي تعرض للبيع بسبب الإغراء . وكانت أول محاولة عربية لإنقاذ المزارع العربي من المرابي وتأمين الدين له بفوائد معقولة هي إنشاء البنك الزراعي العربي سنة ١٩٣٣ ، وقد أشرفت الهيئات الوطنية على تأسيس هذا البنك ، وقام الممولون العرب بشراء أسهمه . إلا أن هذا البنك قد فشل ، وبعد أن عمل سنوات قليلة كبنك زراعي انقلب إلى بنك تجاري عادي سنة ١٩٤٢ وغير اسمه فأصبح يدعى بنك الأمة العربية . وكانت أسباب فشله كبنك زراعي ما يلي :

١ - تضطر البنوك الزراعية إلى فتح فروع كثيرة ، فتمثل تكاليف البنك مرتفعة ،

وزيد في كثرة التكاليف أن مجموع الدين انقسم إلى صفقات صغيرة كثيرة العدد .

٢ — يصعب التأكد من أن الفلاح يستطيع تسديد دينه في المستقبل ، خصوصاً وأنه لا يمكن مراقبة إنفاقه للدين ، فكثيراً ما يفرق الفلاح نفسه بالدين ، دون أن ينفق الأموال المستقرضة في الأغراض الإنتاجية ، بل ينفقها في سبيل استهلاكه ، كقائمة الولائم والأعراس والحج ، وفي سبيل مخاصمة الغير وما شابه ذلك . ولذا تجده بعد الاستدانة أقل إنتاجاً وأكثر عجراً عن تسديد الدين .

وهذه الأسباب تقف في وجه نجاح أى بنك زراعى للفلاحين العرب في فلسطين إذا ما أقيم هذا البنك على أساس تجارى .

ولم يكن حظ المحاولة العربية الثانية في كفاح بيع الأراضي لليهود بأحسن من حظ الأولى . وكانت هذه المحاولة هي شراء الأراضي العربية المهددة بالبيع لليهود بأموال تجمع من العرب عن طريق التبرع . وقد أنشئت لجمع الأموال وشراء الأراضي مؤسسة دعيت (صندوق الأمة العربية) فأخذت الشيء القليل من الدنمات (الدونم النظامى ألف متر مربع) .

إلا أن مئات الألوف من الدنمات التي كان العرب يملكونها تسربت في هذه الأثناء إلى اليهود دون أن يستطيع صندوق الأمة العربية عمل شيء لإنقاذها . أما سبب فشله فيرجع إلى أن الأموال التي يجمعها لإنقاذ الأراضي المهددة لا تقاس بحال من الأحوال بالأموال التي يدفعها اليهود في سبيل الحصول عليها ، خصوصاً وأن موارد صندوق الأمة العربية كانت تأتي من عرب فلسطين وحدهم بينما يجمع اليهود الأموال من جميع اليهود في مختلف أقطار العالم . واليهود ، كما نعلم ، هم أكثر الناس ثراءً في كل قطر ، ولن يستطيع عرب فلسطين بحال من الأحوال مجارة اليهود في جمع الأموال ، ولذلك فإن الأثمان التي تستطيع الهيئات العربية دفعها تقل كثيراً عما يستطيع اليهود دفعه ، ولا تكفى إلا لجزء من الأراضي المهددة .

وقد قدم للجامعة العربية في سنة ١٩٤٥ مشروع لإنقاذ الأراضي في فلسطين ، يحاول تجنب الصعوبات التي لاقتها المشاريع سابقاً وذلك هو « المشروع الإنشائي العربى » ، الذى قدمه الأستاذ موسى العلى مندوب فلسطين بالجامعة العربية حينذاك . ويقوم هذا المشروع على أساس الاعتراف بأن مالىدى العرب من الوسائل المادية لا يكفي لشراء الأراضي العربية المهددة في فلسطين ، كما أن مثل هذا الشراء غير مرغوب فيه لأنه لا يفعل شيئاً للفلاح بل يحوله من مالك إلى أجير ، ويعترف المشروع أيضاً بسوء حالة الفلاح الاقتصادية والاجتماعية ، ويحاول معالجة خطر تسرب الأراضي وسوء حال الفلاح في آن واحد وبأقل التكاليف .

وطريقة المشروع في ذلك أنه يقدم خدمات مجانية الآن للفلاحين ، كزراع الأشجار وحفر الآبار وتحسين الأحوال الاجتماعية والاقتصادية بينهم عامة ، مقابل أخذه عليهم تعهدا قانونيا ببقاء الأرض في أيديهم فلا يستطيعون بيعها لليهود . أما في الأحوال التي تتعرض فيها الأراضي للجميع بسبب الإغراء ، فيشتري المشروع الإنشائي هذه الأرض على أن يعيد بيعها لصغار الفلاحين حالا وبشروط معتدلة تراعى فيها مصالحهم ، مع أخذ التعهدات القانونية لمنع بيعها المستقبل . فيكون من نتيجة هذا المشروع تثبيت الفلاح في أرضه ، وإبقائه مالكها ، بل وجعله مالكا حينما لم يكن كذلك من قبل ، وتحسين أحواله في آن واحد . والتكاليف اللازمة لإقناع الفلاح بإعطائه تعهد قانوني هو في الواقع لمصلحته ، هي تكاليف قليلة ، تقل كثيرا عن الثمن اللازم لشراء الأرض . ثم إن هذا التعهد يضمن عدم بيع الأرض في المستقبل أمام أي إغواء . وقد قدر الأستاذ العلمي النفقات اللازمة لتحقيق مشروعه في جميع أنحاء فلسطين بخمسة ملايين تدفعها الحكومة والشعوب العربية في خمس سنوات ، تصبح بعدها جميع أراضي العرب في فلسطين آمنة من الخطر ، ويصبح بعدها الفلاحون العرب في مستوى اجتماعي يضارع مستوى الفلاحين في أرقى البلدان . وقد قدم للجامعة العربية في الوقت نفسه مشروع آخر وضعه سمادة الدكتور حافظ عفيفي باشا ، يقوم على أساس إنشاء شركة عقارية برأسمال قدره مليون جنيه ، تضمن الدول العربية الربح بأسمهما بنسبة مئوية معينة ، ولدة من الزمن ونسأهم ربع مليون ليكون احتياطا لها مقابل ضمان الربح . وتقوم هذه الشركة بنوعين من العمل أولهما تيسير القروض للفلاحين وثانيهما شراء الأراضي واستثمارها ، فهي في الشق الأول من أهدافها تشبه البنك الزراعي العربي وفي الشق الثاني تشبه مشروع صندوق الأمة . ثم إن هذه الشركة فوق هذا وذاك ستحاول إجراء أعمالها على أساس تجاري .

وقد أقرت الجامعة العربية المشروعين في آن واحد وتركت للدول العربية أن تختار كل منهما ما تشاء ، فاختارت الحكومة العراقية المشروع الإنشائي ودفعت للجمعية التي تأسست في القدس لتنفيذه مبلغ ربع مليون جنيه ، واختارت باقي الحكومات العربية مشروع الشركة العقارية ودفعت كل منها قسطا من احتياطها ، وقد دفعت حكومة العراق أيضا حصتها من احتياط الشركة ، بالإضافة إلى ما دفعته للمشروع الإنشائي .

وقد لاقى المشروع الإنشائي صعوبات سياسية عظيمة . كما أن الأموال المدفوعة له لا تؤمن قيامه بأعماله الواسعة النطاق التي كان المشروع يهدف إليها بالأصل . ومع ذلك فقد كانت تعد المدة المبدئية بأعماله حينما فاجأته الاضطرابات الحالية فتوقف العمل فيه مؤقتا .

وقد أسست الشركة المقارية وطرحت أسهمها للبيع ولكن الاضطرابات أيضا فاجأتها فلم تعمل في فلسطين حتى الآن .

الخاتمة

رأينا فيما تقدم أن اليهود قد جعلوا من الاقتصاد أداة لتحقيق هدف سياسي وأنهم بفضل ذلك قد نجحوا في إحراز قسم كبير من أهدافهم . ولو بنوا مشروعاتهم على أساس المقاييس الاقتصادية من ربح وخسارة لأحجموا عن كثير منها . وقد بذلوا في سبيل محاوراتهم لإنشاء دولة لهم في فلسطين بسخاء ما بعده سخاء .

ورأينا أيضا أن موارد عرب فلسطين ضئيلة لا تقاس بما لدى اليهود ، وأنها غير قادرة وحدها على صد هذا الغزو الاقتصادي . لذلك لا يمكن الوقوف في وجه هذا الغزو إلا بمؤازرة من البلاد العربية . ولكي تكون هذه المؤازرة فعالة يجب أن تجرى أيضا على أساس سياسي ودون التقيد بالمقاييس الاقتصادية . ويجب أن يكون البذل فيها بسخاء ، وأن يكون هدفها تقوية الاقتصاد العربي في فلسطين في سائر فروعها والحيلولة دون تسرب الأراضي العربية إلى اليهود مهما كاف الأمر .

ولئن كان الإجراء السياسي الذي أقرته الجامعة العربية في سبيل كسب المعركة الاقتصادية وهو مقاطعة البضائع الصهيونية ، إجراء سليما وقويا وفعالا ، فإن الإجراء الاقتصادي الذي قلت به حتى الآن وهو مشروع الشركة المقارية إجراء ضعيف غير كاف ، وذلك لأنه بني على أساس تجاري لا على أساس التبرع بسخاء ، ولأن ما خصص له من الأموال غير كاف وليس هناك شك في أن مصير المعركة الاقتصادية يتوقف إلى حد كبير على نتيجة المعركة السياسية الحربية فإن نجاح العرب في هذه المعركة كما نأمل فينبذ يمكن وضع فلسطين في أحوال تمكن من ربح المعركة الاقتصادية . ولذلك فإن ما أنفقته الدول العربية وتنفقه في كسب المعركة السياسية الحربية إجراء سليم يؤدي في النهاية إلى إحراز النصر في جميع النواحي الأخرى .

برهان راغب الدجاني

المغرب العربي

الدكتور حسين مؤنس

خلف الستار الحديدي :

يصعب جداً أن يتحدث الإنسان عن المغرب الإسلامي المعاصر في شيء من الثقة أو قريب من الثقة ، لأن الدولة الفرنسية التي وضعت يدها على معظم نواحي المغرب جميعاً بالتدريج من حدود تونس إلى ساحل المحيط ابتداء من سنة ١٨٣٠ حرصت على أن تسدل على هذا القطر الإسلامي الواسع ستاراً كثيفاً لا يكاد شعاع واحد من النور ينفذ منه ، لا من المغرب إلى بقية العالم ولا من هذا العالم إلى المغرب . وحذت حذوها إيطاليا في طرابلس وإسبانيا في منطقة الريف . وهي إنما حرصت على ذلك لأنها وضعت لنفسها غاية واحدة لعل دولة من الدول لم ترسبها لا في حقيقة ولا في خيال : وهي إلغاء هذا المغرب الإسلامي من الوجود إلغاء واستبدال مغرب مسيحي أو أوربي به . وهي لهذا لم تحرص إلا على شيء واحد في هذا العالم الواسع : الأرض وما تضمه من خيرات ، فأما الناس الذين يعيشون على هذه الأرض ، وأما الإسلام الذي تأصل في طبيعة البلاد حتى صار جزءاً من « مناخها » فلم يدخل للفرنسيين في حساب . ومن ثم توجهت همه الحكومة الفرنسية مثلاً إلى استئصال الشعوب المغربية الإسلامية . وكتابات الفرنسيين المتحمسين تضم إشارات كثيرة إلى ما فعله الأوروبيون بأهل القارة الأمريكية الأصلاء من الهنود الحمر ، وقد لاحظت في بعض تصرفات حكام الجزائر الفرنسيين ما يدل بوضوح على أنهم يسمعون لمثل هذه الغاية سعيّاً سافراً ، ويتضح ذلك جلياً في جميع التصرفات التي صدرت عن حكام الجزائر الفرنسيين بين سنتي ١٨٣٠ و ١٨٧٠ — فقد أصدر الجنرال بومون في سنة ١٨٣٠ قراراً استصفي به للحكومة الفرنسية كل الأوقاف الإسلامية في الجزائر ، وبعد ذلك بثلاث سنوات أصدر الجنرال بوايبي منشوراً استصفي به للحكومة الفرنسية المقارات التي لم يستطع أصحابها إبراز أدلة ملكيتها خلال فترة قصيرة معينة ، وقد أصدر هذا القرار ونفذه وهو يعلم أن ٩٠٪ من أهل الجزائر لم يملوا بأمره ، ولو علموا ما استطاعوا تنفيذه لجهلهم بالاجراءات القانونية التي ينبغي أن يقوموا بها

وفي سنة ١٨٤٦ أصدرت الحكومة الفرنسية قراراً استتصفت به لنفسها كل الأراضي الفضاء وهي تعلم أن هذه الأراضي إنما هي مراعى لماشية القبائل ، ولا حياة لرجالها بدونها ، وفي سنة ١٨٥١ أصدرت قراراً استتصفت به لنفسها أراضي الغابات في الجزائر كلها ، وفي سنة ١٨٧١ وضعت يدها على خمسة وعشرين ألف كيلو مترا من أخصب أراضي الجزائر عقب ثورة محلية قامت في بعض النواحي ، وبهذا استتصفت الدولة الفرنسية لنفسها ١١٦٩٠٠ كيلو مترا من مجموع مساحة البلاد وهي ٢٠٨٠٠٠ كيلو مترا أي ما يزيد على النصف . وبديهي أن هذا المستتصفي هو خير أراضي الجزائر جميعاً ، ولم تتوقف الحكومة الفرنسية عن هذه السياسة إلا حينما لم يعد في هذا القطر أرض تصلح لشيء . ولو قد كانت الحكومة الفرنسية تستتصفي ما تضع عليه يدها لصالح الجزائر وأهلها لكان من الجائز تبرير مثل هذه التصرفات ، ولكنها استتصفتها باسم الحكومة الفرنسية ولمصلحة الشعب الفرنسي وحده . وغايتها من هذه السياسة واضحة : هي طرد الشعب الجزائري من بلاده وأراضيهم وقذفه إلى الفياق والمهضاب كما فعل المستعمرون الأوروبيون مع الهنود الحمر . وكلما استتصفت الحكومة جزءاً من الأرض سارعت إلى توزيعه على مهاجرين فرنسيين أو أوروبيين . وطبيعي أن طرد الناس من بلادهم على هذه الصورة لا يتم في سهولة وسلام ، وإنما تستعمل القوة لتنفيذه . ومن ثم غصّ تاريخ الجزائر الفرنسية بحوادث محزنة يسميها المؤرخون الفرنسيون « حروباً » ويسميها المنطق الصحيح مجازر ، ولا يعرف العالم عن تفاصيل هذه المجازر شيئاً ، وإن كنا نستطيع أن نتبين الكثير من هذه التفاصيل أثناء مطالعتنا في تاريخ رجل كالرشال ليوتي كان يستأصل قبائل مراكشية بأسرها لكي يستولى على أرضها ويوزعها على المهاجرين الأتراك الذين فروا إلى فرنسا عقب استيلاء الألمان عليها بعد هزيمة فرنسا سنة ١٨٧١ .

فرنسا تستتصفي نصف تونس الشمالية للمستعمرين الأوروبيين

وبعد أن فرضت فرنسا حمايتها على تونس في مايو سنة ١٨٨١ أمرت بتطبيق أساليب الاستتصاف واحداً فواحداً عليها حتى جرد المزارعون التونسيون من أكثر من ٦٧٪ من الأراضي الصالحة للزراعة في الشمال ، ولم يبق أمام أهل البلاد إلا الارتداد إلى حياة الرعي أو العمل كأجراء عند المستعمرين .

وفي مراکش :

وقد انبعت فرنسا هذه الخطوة في مراکش بعد وضعها تحت الحماية الفرنسية سنة ١٩١٢ فقد استمرت الحكومة الفرنسية تجرد الأهالي من كل أرض صالحة للزراعة حتى أصبح ٨٦ ٪ منهم عمالا زراعيين أو رعاة لا أرض لهم ، ولا تزيد نسبة المراكشيين الذين يملكون أرضاً عن $\frac{1}{3}$ ٪ في حين لا يوجد بين الـ ٨٤.٠١٥ فرنسي الذين يعيشون في مراکش واحد لا يملك أرضاً أو عقاراً أو مصنفاً .

ولعل أغرب ما في الموضوع هو طريقة تصرف الدولة الفرنسية في هذه الأراضي التي استصفتها ، وهي تبلغ نحو ٧٠ ٪ من الأراضي الصالحة للزراعة في المغرب كله . فقد أنشأت في كل قطر من أقطار المغرب الثلاثة خزائن سمّتها صندوق التعمير *Caisse de Colonisation* وأخذت من ميزانية القطر جزءاً كبيراً أو دعت فيه ، ثم أنشأت إدارات سمّتها « إدارات الفلاحة والتعمير » تقوم بتقسيم الأراضي وبيعها بعملاً صورياً للمهاجرين الفرنسيين بأثمان زهيدة تسدد على مدى عشر سنوات ، ولما كان المهاجر الفرنسي يقبل إلى المغرب ولا مال معه ، فإن الحكومة الفرنسية تقدم له قروضا بدون فوائد من صندوق الاستعمار ، أي أن فرنسا تسلب المغربي أرضه وتهديها إلى الفرنسي ، وتأخذ من المغربي المال الذي يلزم الفرنسي لاستصلاح هذه الأرض . وقد بلغ ما جمع من التونسيين وحدهم لصندوق الاستعمار هذا بين سنتي ١٩٠٠ و ١٩٠٧ نحو عشرة ملايين من الفرنكات الذهبية ، (أي نحو مليونين من الجنيهات المصرية الذهبية) . وقس على ذلك ما جرى في الجزائر ومراكش . هذا ولا يسمح للمغربي بشراء أرض من هذا المستصفي . ولم يسجل التاريخ فيما عرف من ألوان الاستبداد لو ناهو أبشع من ذلك . ولو اشترت الحكومة الفرنسية الأرض وأقرضت المهاجرين الفرنسيين من مالها لكان ذلك معقولا بعض الشيء ، ولكنّها تأخذ من صاحب الأرض أرضه وتعطيها للتدخيل ، ثم ترغم صاحب الأرض السكين على تقديم المال إلى هذا السيد المستعمر ، بل ترغمه على العمل في أرضه كأجير ، وتحدد الأجر الذي يدفع له ، وتعاقب المغربي إذا رفض العمل .

هكذا أخرج الفرنسيون أهل المغرب من أرض بلادهم وأزّلوهم إلى مرتبة الأجراء والرعاة فحكموا عليهم بذلك أن يظلوا في مستوى اقتصادي معنوي منخفض جدا لا يمكن من مجرد التفكير في التقدم أو الإبقاء . ومهما فعل الفرنسيون بعد ذلك من إنشاء مستشفيات أو طرق أو موانئ ، فإن الإنسان لا يستطيع أن يحسبه لهم في حساب الحسنات أو في حساب الأعمال

الإنسانية ، لأن شيئاً من هذا كله لا يعود على المغرب بالخير ، بل هو مخصص للفرنسي أو الأجنبي وحدهما ، ومن هنا لا غرابة أن يكون المستوى العام للناس في هذا المغرب في حالة من الهبوط لا يمكن مقارنتها بحال في أى بلد إسلامي آخر ، هذا رغم ما يعرف الناس أجمعون من ذكاء المغاربة واستعدادهم للفوق في كل ميدان ، وتاريخهم الإسلامي حافل بالأعلام والدولات على قلة عددهم وقسوة ظروفهم الاجتماعية .

الدول الأوروبية في المغرب تستقر الى أى أساس قانوني :

والمعروف أن الدول الأوروبية إذا دخلت بلدا أعلنت أنها لا تقصد إلا معاونة الأهليين على إدارة شئونهم وتدريبهم على أساليب الحكم الصحيح ، حتى يصلوا إلى مستوى يمكنهم من السير وحدهم . هكذا يملن الإنجليز والهولنديون والأمريكيون ، واسنا بسبيل محاسبتهم على ما حققوا وما لم يحققوا من هذه الأهداف ، وإنما المهم أنهم يملنون ذلك فيدلون على لون من الحياء الإنساني ، ولكن الفرنسيين لا يعلنون ذلك ولا يتعهدون قبـل أهل البلاد بشيء . فقد دخل الفرنسيون الجزائر فاحين في سنة ١٨٣٠ ، وألغوا نظامها القائم ، وأخضعوا البلاد لنظام عسكري ، ولم يتقيدوا قبل أهلها بشيء ، ولم يعدوهم بشيء . وليس في معاهدة « باردو » التي وقعها الجنرال « برنار » مع باي تونس محمد الصادق في ١٢ مايو سنة ١٨٨١ نص واحد يتعهد فيه الفرنسيون بالعمل على ترقية مستوى التونسيين أو السير بهم إلى الأمام بل ليس فيها شرط واحد يضمن حقوق الأهليين حيال الماصبين ، ولو بعد حين من الزمان . وليس في معاهدة فاس التي عقدت في ٣٠ مارس سنة ١٩١٢ بين الفرنسيين وسلطان مراکش مولاي السلطان عبد الحفيظ نص واحد يدل على أن الفرنسيين وضعوا مصالح المراكشيين موضع الاعتبار ولو من الوجهة النظرية ، أو كانوا يفكرون—ولو مجرد التفكير— في ترك البلاد يوما من الأيام .

وبقرر رجال القانون الفرنسيون أن كل قطر من أقطار المغرب له وضع خاص بالنسبة لفرنسا : فالجزائر جزء من الوطن الفرنسي ، وتونس إقليم مُعاهد ، ومراكش تحت الحماية . ويحاول هؤلاء القانونيون أن يفسفوا الموضوع ليبينوا أن فرنسا تضع لكل قطر منها من الأنظمة ما يلائمه ، وأنها تحرص على الأوضاع القانونية في كل ناحية ، ولكنهم يقررون صراحة أن الواقع يخالف هذا الوضع النظري ، فلا فرق في نظرة فرنسا أو أسلوب سياستها

في هذه الأقطار المغربية الثلاثة ، فهي تعامل على نفس الأساس الذي تعامل به المستعمرات الصريحة كالسنغال والكامرون . وقد وضع الفرنسيون هذه الأنظمة منذ قرن من الزمان ولا يريدون أن يغيروا منها شيئاً ، كأن هذه النظم إنما وضعت لتظل قائمة إلى الأبد لا يغير تطور الدنيا أو تقلب الحوادث من أمرها شيئاً ، وكأن هؤلاء الغربيين الذين وضعت لهم هذه الأنظمة ظلوا في نفس المستوى الفكري والاجتماعي الذي كانوا فيه يوم نزلت فرنسا بلادهم طوال هذا القرن المنقضى . وفي هذا وحده اعتراف صريح من الفرنسيين بأنهم لم يسيروا بأهل البلاد خطوة واحدة إلى الأمام . وسنرى مما يلي أن البلاد تأخرت في ظلالهم على نحو محزن حقاً . وذلك طبيعي ، لأن الفرنسيين كانوا يقصدون هذا التأخر ، وكل أنظمتهم وتشريعاتهم وتصرفاتهم تتجه نحو هذه الغاية .

فرنسا تؤخر أهل المغرب :

من هنا لم تتجه همه الفرنسيين إلى أن ترتفع بواحد من هذه الأقطار الثلاثة عن مستوى المستعمرات التي تدار لمصلحة البلد المستعمر وأهله أو السير بهم في الطريق الذي يؤدي بهم يوماً ما إلى حكم أنفسهم بأنفسهم حكماً عادلاً منظماً حديثاً . بل جرت الحكومة الفرنسية على عكس ذلك تماماً ، فحرصت على أن تبعد الأهليين عن نواحي الحكم ، وحرصت على أن تقضي على ما عسى أن يكون عندهم من وسائله وما بين أيديهم من أعنته .

فقد دخل الفرنسيون الجزائر مثلاً ، فوجدوا فيها نظاماً بدائياً ، كان من الممكن إصلاحه وتعديله أو استعمال العناصر الصالحة منه على الأقل ، كما فعل الإنجليز حينما دخلوا مصر في سنة ١٨٨٢ مثلاً ، ولكن الفرنسيين جروا على عكس ذلك تماماً .

ففي سنة ١٨٤٨ قررت الحكومة الفرنسية اعتبار الجزائر مقاطعة فرنسية ، أي جزءاً من الوطن الفرنسي ، أو ملكاً للشعب الفرنسي بتعبير أدق ، فألغيت من الوجود إلغاءً ، وهذا وضع أقل من أوضاع المستعمرات .

وليت هذا الإلغاء قد تم على نحو يضمن للجزائريين شيئاً من الحقوق .

فقد اعتبرت الجزائر جزءاً من الوطن الفرنسي ، فكان من الطبيعي أن يعتبر الجزائريون فرنسيين ، وبذلك يكون لهم وضع دولي مفهوم بين أهل العالم أجمعين . ولكن الفرنسيين منحوا الأرض واستبعدوا الناس في سنة ١٩٣٢ كان عدد الجزائريين ٦٤٦٩٨٩٨ وليس منهم إلا بضعة آلاف معتبرين فرنسيين ، أما الباقي فلا وضع قانونياً لهم يحدد موقفهم من غيرهم من أهل هذه الأرض . فبينما يستطيع أهل المستعمرات الإنجليزية السفر إلى الخارج حاملين

جوازات سفر إنجليزية لا يستطيع جزائري واحد من هؤلاء « المنبوذين » السفر إلى خارج بلاده — عدا فرنسا — لأن السلطات الفرنسية لا تمنحه ورقة واحدة يثبت فيها وجوده بين أهل الأرض أجمعين .

بل الأمر أسوأ من ذلك بكثير ، فإن الفرنسيين يحكمون الجزائر بواسطة حاكم فرنسي تابع لوزير الداخلية يساعده مجلس أعلى من سبعة من كبار الموظفين الفرنسيين ليس فيهم جزائري واحد .

وهناك الجمعية الجزائرية — وهي شيء يشبه البرلمان — تتكون من ستين عضواً منهم سبعة فقط من الجزائريين ، ثلاثة منهم معينون والأربعة الباقون فقط منتخبون . وهناك مجلس اقتصادي يبحث المسائل الاقتصادية أعضاؤه ٦٩ ليس منهم إلا واحد وعشرون من المسلمين يمثلون بعض الصناعات المحلية الصغيرة . ولا يقام لأرائهم وزن في كبير أو صغير .

هذا ونسبة الأهلين إلى الفرنسيين هي ١٦ : ١ . وإليك ما يقوله أحد « نواب » الجزائر — والفروض أنه يتصدى للدفاع عن مصالح الجزائريين أجمعين — : « قبل أن نفكر في منح الحقوق السياسية لهؤلاء الأهلين الذين لا يفهمونها ، ولا يطالبون بها ! ينبغي علينا أن نغذيهم وأن نكسوهم ، وأن نهيب لهم المسكن وأن نعلمهم » . يقول ذلك في مايو سنة ١٩٤٧ بعد الحرب العالمية الثانية ، وبعد ميثاق الأطلسي وبعد مائة وسبعة عشر عاماً من الإدارة الفرنسية ! يقول ذلك وهو يعلم أن إنجلترا منحت الهند الاستقلال وتخلت عن بورما ، وأن أمريكا أنشأت نظاماً نيابياً في الفلبين ، ولم يبق في الدنيا بلد أهله على شيء من الحضارة إلا أصبح له من الحرية نصيب .

بعد ١١٧ عاماً يقرر هذا النائب الجزائري أن الحكومة الفرنسية لم تعلم الجزائريين بعد ولم تعلمهم ولم تكسهم بعد ، ويقول إن الجزائريين لا يفهمون الحقوق السياسية ولا يطالبون بها مجرد المطالبة ، فلو كان ما قاله حقاً فهو عار على الفرنسيين قبل أن يكون عاراً على الغربيين ! هذا ويخضع الفرنسي في المغرب للقانون الفرنسي في حين يخضع الأهلون لنظام وقانون خاص يسمى Code de l'indigénat لا يكاد المغربي يظفر فيه بوضع يفهم منه أنه إنسان له مشاعر وتفكير .

والأمر في تونس أسوأ من هذا بكثير ، فقد دخل الفرنسيون البلاد سنة ١٨٨١ فوجدوا فيها أميراً له مجلس وزراء بماونه مجلس نواب ، مهما كان مقدار سلطته وطريقة انتخاب

أعضائه فهو يصور ولو ظلا من الحرية وجانباً من سلطان المحكومين .
بدأ الفرنسيون فقسّموا البلاد إلى قسمين : شمالي يديره الموظفون الفرنسيون إدارة
مدنية ، وجنوبي يحكمه حاكم عسكري ، كأنه بعض مواطن الممّج والمتوحشين .
إدارات فرنسية صرفه :

والإدارة في القسم الشمالي فرنسية صرفة يقوم بها ٣٥٠٠٠ من الموظفين . نحو ربعهم
فقط من التونسيين (وهم الخدم وصغار الكتاب) ولو حسبت نسبة الموظفين إلى عدد سكان
تونس أجمعين لكان لكل مائة من السكان موظف فرنسي ! وطبيعي أن الحكومة الفرنسية
تكثر من الموظفين رغبة منها في زيادة عدد الفرنسيين في البلاد .

وهؤلاء الموظفون الفرنسيون يتقاضون حوالي ٦٠ ٪ من ميزانية البلاد ، وهم يستعملون
الفرنسية مع من يعرفها ومن لا يعرفها حتى يحتاج التونسي إلى مترجم يتوسط بينه
وبين الموظفين !

وهؤلاء الموظفون جميعاً مسئولون أمام الحاكم العام وحده ، وهذا مسئول أمام وزير
الخارجية الفرنسية ، ولا مسئولية بعد ذلك .

والحال في مراکش لا يختلف عن ذلك في كثير ، فالسلطان لا يملك من الأمر قليلاً
ولا كثيراً ، والقانون الذي يرعاه الحاكم العام لا يطبق على الأهليين ، وإنما تقتصر امتيازاته
على الفرنسيين وحدهم .

ومن غرائب العقليّة الفرنسية أنها لا تنجّل من أن تعمل هذه التفرقة بالحرص على مصالح
المراكشيين ! كأن هؤلاء الناس لا يصلحون لقانون حديث ، وكأنما قضى الله بأن يظلّوا في
ظلمات العصور الوسطى إلى أبد الأبد .

والإدارة في مراکش فرنسية صرفة يقوم بها ٢٢٠٠٠ من الموظفين منهم ٧٠٠٠ فقط
— من صغار الكتاب والمساعدين — من المراكشيين ، يضاف إليهم ٨٠٠٠ من الخدم
والفراشين وهم من أهل البلاد طبعا .

وقد ظلت البلاد تحكم حكماً عرفياً من ١٩١٢ إلى ١٩٢٤ ، ورفعت الأحكام العرفية
طاماً ثم أعيدت واستمرت إلى سنة ١٩٢٠ ، وأعيدت مرة ثالثة سنة ١٩٣١ ولا زالت قائمة
إلى اليوم ، أي أن مراکش حكمت حكماً عسكرياً عرفياً نصف المدة التي أقامها في ربوعها

الفرنسيون . وهو أمر لم يسمع بمثله في قطر من الأقطار في أظلم أيام الجهالات والاستبداد .
فهذه البلاد جميعاً تسير من الناحيتين السياسية والاقتصادية إلى الوراء ، وتلك حقيقة
ما نفلن أحداً من الفرنسيين — منصفين وغير منصفين — إلا ويُسلم بها ، لأن الدولة
الفرنسية نفسها تقرها ولا تنفيها .

الرهوط المعنوي :

هذا هو وضع أهل المغرب من الناحيتين الاقتصادية والسياسية . بقى أن ننظر في أحوالهم
من النواحي المعنوية الصرفة : نواحي العقيدة والتعليم والثقافة .

انصراف الإسلام :

ربما بدا غريباً أن يقال إن الدولة الفرنسية هي الدولة الأوربية الوحيدة التي تستهين
بمقائد من تتولى أمرهم من الناس وتحاول تغييرها أو الخط من قدرها بكل ما تستطيع من
وسائل القهر والإرهاب .

فقد بدأت الدولة الفرنسية ، فوضت يدها على الموارد ، التي جرت العادة بأن ينفق منها في
البلاد الإسلامية على شئون الدين وما يتصل به من مساجد ومعاهد : استصفت أموال
الأوقاف والعيون المرصودة لشئون الدين واعتبرتها أملاكاً للشعب الفرنسي ، وخصصت
أكثر من ثلثها لإغايات المهاجرين الفرنسيين ، أما الثلث الباقي فقد رصدته لشئون العقائد
إسلامية وغير إسلامية ، ولا يزيد مقدار المخصص من هذا الثلث لشئون العقيدة الإسلامية
على الثلث ، أما الثلثان الباقيان فموقوفان على مصالح الكنيسة الكاثوليكية ، ولا يزيد عدد
أنباعها في المغرب كله على $\frac{1}{10}$ من عدد السكان . وهذا وحده كاف لكي يمين لنا موقف
الحكومة الفرنسية من الإسلام في هذه البلاد التي تعتبر بحق حصناً من حصون هذه
العقيدة السمحاء .

محاولة تنصير أهل البوم :

ولم تخف الحكومة الفرنسية في يوم من الأيام نيتها في تنصير أهل البلاد ، وقد أطمعها
في ذلك مؤرخون ومفكرون فرنسيون استوفقت انتباههم السرعة التي تحولت بها البلاد من

الجزائر فجأة الباب المذير الذي تنفذ منه يوماً بعد يوم ، وفي سرعة مشاعل الوحي النصراني إلى قلب القارة السوداء ! »

وكانت هيئة هذا المجمع تجعل أغراضها في عبارة صغيرة كتبها بأحرف كبيرة جداً في أعلى ما أذاعته من منشورات وهي « الكفاح ضد الإسلام » .

وهذه الأدلة وحدها تكفي لتعيين موقف الحكومة الفرنسية من الإسلام والمسلمين . ولم تغير الحكومة الفرنسية من سياستها هذه شيئاً رغم ما ابتلاها الله به من ذل واستعباد على أيدي النصارى الألمان ، ففي سنة ١٩٤٥ أصدرت الحكومة الفرنسية منشوراً أخرجت به من إدارة المساجد والمعاهد الإسلامية كل من لا يعرف الفرنسية . ولا حاجة بنا إلى القول بأن قليلاً جداً من هؤلاء الأئمة والخطباء والمدرسين يعرفون الفرنسية ، والنتيجة الواضحة لذلك هي بقاء المنشآت الإسلامية من غير أئمة أو شيوخ أو مدرسين .

والأمر في مراکش لا يختلف عن ذلك في كثير أو قليل .
والحال في تونس أسوأ ، فالإسلام هناك عقيدة ممتحنة ، ويُنظر إليه كأنه بقية من بقايا الوثنية التي ينبغي أن تزول ، ولا يجرؤ مسلم واحد أن يتحدث في هذه البلاد الإسلامية باسم الإسلام .

التعليم :

وطبيعي أن يكون موقف الفرنسيين من تعليم الأهليين موقف العدو الذي لا يأذن لخصمه المغلوب بشيء من العلم أو النور يرفع به قواه المعنوية ، أو يأذن له في أن يخطو خطوة واحدة نحو العصر الذي يعيش فيه .

فاللغة العربية معتبرة في المغرب جميعه لغة أجنبية لا تحفل السلطة المحتلة لها أي حفل ، بل تقف منها موقف العدو . ونجترئ من التصريحات الكثيرة والقرارات المتوالية بقرارين أصدرهما رجالان من كبار المشرفين على شئون التعليم في الجزائر ، فقد جاء ضمن قرارات أصدرها الحاكم لاريشال في سنة ١٩٠٤ ما يلي : « وللسلطات أن تلغى — إلغاء مؤقتاً — أو نهائياً — كل تصريح للمدرسين بأن يدرسوا اللغة العربية » . وفي ٨ مارس سنة ١٩٣٨ وزعت الحكومة الفرنسية على مدارس الأقطار المغربية منشوراً تعتبر فيه اللغة العربية « لغة أجنبية » وتحرم تعليمها .

ويذهب الفرنسيون إلى أن ذلك قاصر على المدارس المدنية . أما في المعاهد الخمسة للأهليين

فتعليم العربية مطلق مباح ، فأين هي هذه المعاهد المخصصة للأهلين ؟ إليك مقارنة بسيطة توضح الموضوع :

فالمعروف مثلاً أن سكان مراكش المسلمين يبلغون ستة ملايين ، وأن عدد الفرنسيين فيها نحو ربع مليون أى أن النسبة هي ٢٤ : ١ أى أن الفرنسيين يكونون ٤٪ من السكان . لهؤلاء الـ ٤٪ ١٥ مدرسة ثانوية كاملة و ٩٨ مدرسة ابتدائية و ٩٦٪ الباقين مدرستان ثانويتان ناقصتان وأربعون مدرسة أولية وابتدائية ، وعدد جميع طلبة التعليم الثانوى المراكشيين لا يزيد على ألف تلميذ ، أى دون عدد طلبة مدرسة ثانوية مصرية واحدة هي الحديثة !

وإليك ما يقوله الأستاذ ليقى بروئنسال فى ختام فصل طويل عن حياة المراكشيين : إن إنشاء الحماية الفرنسية فى مراكش ونشر الثقافة الفرنسية هذا النشر الرائع قد غير المثل الأعلى للجيل المراكشى الجديد تغييراً تاماً ، والوقت لا زال مبكراً جداً ولايسمح لنا بتعرف الاتجاه الذى ستأخذه الحياة الفكرية للمراكشيين خلال السنوات المقبلة .

المسألة كلها عنده مسألة الثقافة الفرنسية ، والوقت لا زال فى نظره مبكراً جداً لتعرف اتجاه الثقافة فى هذه البلاد ! يقول بروئنسال هذا بعد نحو خمسة وثلاثين عاماً من الاحتلال الفرنسى !

الفرقة المغربية المتنازعة « الأيليت » :

ويذهب كثير من الفرنسيين إلى أن هذا الأسلوب فى القضاء على الثقافة العربية الإسلامية فى البلاد قد آتى ثمرها طيباً جداً . فإن توجيه النابيين من أهل البلاد توجيهاً أوروبياً فرنسياً قد حول أذهان المفكرين المغريين تحويلاً أوروبياً حديثاً وجعلهم يقفون فى نفس المستوى الذهنى الذى يقف فيه المفكرون الفرنسيون أنفسهم وسلك بهم طريقاً هو أسلم من الطريق الشرقى الذى سار فيه أبناء عمومته من الناطقين بالعربية فى البلاد الإسلامية الأخرى .

وليس أبعد عن الصواب من هذه الدعوى ، لأن الفكر الإسلامى الحديث لا يكاد يعرف إنتاجاً أدبياً هو أنفه أو أقل روحاً من إنتاج هذه الطبقة المختارة من أهل الفكر الجزائريين الذين يسمون أنفسهم « الفرانكو آراب » ومن حسن الحظ أننا نملك بين أيدينا بسملة أمثلة تصور لنا تفكير هذه « الأيليت » فى السياسة والفكر والأدب الخالص ، نملكها بالفرنسية ، كتابها

إنتاج أجنبى عنا أغراب عن لغتنا وثقافتنا ، ومن غرائب العقلية الفرنسية أنها تبيع للجزائرى شيئاً من الحرية إذا كتب بالفرنسية ، والويل له إن قال نفس الكلام بالعربية ! وإليك بعض نماذج منها مترجمة :

« المتنازرو » ورايهم فى استقلال بلادهم :

فهنالك فى الجزائر طائفة من هؤلاء الجزائريين المتفرنسين يجتمعون فى هيئة تسمى « حزب الاستقلال » ، استقلال الجزائر طبعاً ، وإليك كيف يتصور هؤلاء المفكرون استقلال بلادهم : أعلنت الحكومة الفرنسية خلال سنة ١٩٥٧ عما سمته « الاتحاد الفرنسى » وهو اتحاد يجمع فرنسا ومستعمراتها فى نظام قريب الشبه من اتحاد الكمنولث البريطانى ، أقول شبيهاً فقط ، لأن الاتحاد البريطانى يعطى أعضائه نصيباً طيباً من الاستقلال . أما الاتحاد الفرنسى ففرضه تحويل الحمايات والمستعمرات إلى وحدات إدارية يحكمها حكام فرنسيون ويديرونها لمصلحة فرنسا وحدها ، مع منح أهاليها بعض الحريات الداخلية .

ومعظم هؤلاء الشبان الذين يعينهم الفرنسيون « المتنازرين » يقبلون لبلادهم هذا الوضع ، ولا يضيرهم أن تتخلى بلادهم عن شخصيتها الكريمة وتنسى ماضيها المجيد .

يقول باشى أغا بن شنوف نائب قسنطينية : « إن دخول الجزائر فى الاتحاد الفرنسى سيهيئ لها السلام والوثام والرخاء ، وهو يؤمن مصالح فرنسا الرئيسية ويضمن لها أكبر نصيب من الخير » .

ويقول قاضى عبد القادر ، وهو نائب آخر من نواب قسنطينية :

« إننى أدعو إلى المساواة فى الحقوق بين مواطنى الجزائر أجمعين من غير تفريق بين جنس وجنس أو دين ودين ، وأقترح أن يمثل الأوروبيين والجزائريين عدد متساو من النواب فى البرلمان الجزائرى وفى كل الجمعيات الانتخابية (يريد أن يقول أن يكون للجزائريين عدد مساو لما للأوروبيين ، وهو ينسى أن مواطنيه يعدلون الأوروبيين ١٦ مرة ، وأن مواطنيه أصحاب البلد والأوروبيين أجنبى) وأنا أرى أن تكون الإدارة مسئولة أمام البرلمان الجزائرى فإذا حدث خلاف بينهما فصل فيه البرلمان الفرنسى » .

ويقول عماد إسماعيل أحد نواب الجزائر :

« إن المشكلة الأولى التى ينبغى حلها هى مشكلة اختلاف الأجناس ، لا بد أن نصل قبل كل شيء إلى الاتحاد . فإذا تم هذا الاتحاد استطعنا أن ننظر إلى المستقبل فى شيء من

الاطمئنان ، إننى أريد أن يتكون البرلمان الجزائرى من أعضاء يمثلون الحضارتين على قدم المساواة . نحن نريد أن تتم الإصلاحات المطلوبة على أسس فرنسية لسكى يكون لها أثر ، وينبغى أن يتساوى عنصر السكان فى هذا الصدد (الفرنسيون والجزائريون) وأن يمثل البرلمان الجزائرى لدى برلمان باريس عدد أكبر من النواب . وإننى أرى أن يسمح للجزائريين بأن يكون لهم الحق فى شغل الوظائف التى يشغلها الأوروبيون ... »

هذا هو منتهى فهم هؤلاء الاستقلاليين الجزائريين لسكرامة بلادهم وحقوقها . بيد أن شباب المغرب لم يخل من نفر كريم فيهم نخوة وشجاعة . فهم يهاجمون السياسة الفرنسية هجوما صريحا غير هيايين لسخط الفرنسيين ، ولا يستطيع الإنسان أن يتصور قسوة الفرنسيين على الأحرار فى البلاد التى تبغى باحتلالهم ، إلا إذا اتصل بالمجاهدين المغاربة خارج المغرب ، وعرف منهم مصارع إخوانهم فى هذه البلاد المسكينة ، فلم يجن شعب أوربى على قضية الحرية بقدر ما جنى الفرنسيون ، إن أعداد من قتلهم وشردوهم لا تدخل تحت حصر ، ولا زالوا ماضين فى ذلك رغم تقدم الدنيا وإفلاس سياسة القهر والاستبداد .

إليك مقتطفات من كلام أحد هؤلاء الأحرار الجزائريين الأبطال ، وهو كلام قريب من روح الوطنية الصحيح . قال السيد مزرنه أحد نواب الجزائر ورئيس « جماعة انتصار الحريات الديمقراطية الجزائرية » :

« تعيش الجزائر منذ أكثر من قرن تحت نظام استعمارى . وهذا النظام يقوم على أساس الفتح الحربى والاستغلال الاقتصادى لصالح الأقلية الأوربية وحدها على حساب أهل البلاد ، وهو يعتمد على التفوق المهنى والسياسى والاجتماعى لهذه الأقلية . وقد فشل هذا النظام رغم ذلك فشلا تاما فى القضاء على الشخصية الجزائرية كقومية قائمة بذاتها .

« وقد استطاعت هذه الشخصية أن تعبر عن نفسها دائما بقوة شعب عقد العزم على أن يحيا محترم التقاليد والعقيدة والحضارة ، وأن تحترم حياته السياسية ومصالحه العامة التاريخية . » ثم إن إنكار الدول المتحدة الموقمة على ميثاق الاطلنطى للنظام الاستعمارى ، والتضحيات الجسيمة التى تحملها الشعب الجزائرى للدفاع عن الديمقراطية عامة ولتحرير فرنسا خاصة ، كل ذلك يعطى الشعب الجزائرى الحق الذى لا يمارى فيه فى أن يستمتع بالحريات الديمقراطية وأن يشرف بنفسه على مصائره .

« من ثم لا يمتنع الشعب الجزائرى لغيره بالحق فى أن يشترع له ، ومن ثم فلا بد من انتخاب هيئة تشريعية ذات سيادة ، ولا بد أن تنتخب هذه الهيئة بالاقتراع العام من غير

تميز بين جنس و جنس أو بين دين ودين ، وأن يتم ذلك في جو من الحرية المطلقة لكي تكون الهيئة الانتخابية مرآة للأراء كلها ، ومن ثم تكون جديرة بأن تحمل جميع المشاكل التي تشغل الأذهان في الجزائر حلا عادلا .

وهذا كلام حسن فيه صراحة وحق ، وإن كان لا ينفحو نحو الاستقلال التام بحال . ولو قاله صاحبه بعيدا عن الإرهاب الفرنسي لكان أشمل وأكثر تفصيلا ، ولكنه خير على كل حال ، لأنه يقال للغاصب في وجهه ، وهو خير من ألف حديث يقوله صاحبه وهو آمن في ناحية لا تناله فيها يد الظالمين ، ولا تعظم منه لذلك فائدة المظلومين .

فهم الحرية في المغرب :

وقضية الحرية في المغرب العربي باب في ذاته لو فتحناه لما فرغنا منه بحال^(١) ، فإن العجب ليأخذ النفس حينما يجد شعبا كالشعب الفرنسي يتحدث عن الحرية هذا الحديث الطويل ، ومع هذا لا يأذن لمن تحت يده بأبسط نصيب منها ولا يتردد في العسف بمن يقول كلمة «الحرية» عسفا لم يعرف من أبعد أم الأرض عتوا وجهالة . ففي خلال هذا القرن الذي ابتلى فيه المغرب بالاحتلال الفرنسي قتل الفرنسيون من أحرار المغاربة أضعاف ما قتلت أم الاستعمار جميعا من المستعمرين أجمعين وألقت فرنسا في غياهبات السجون ألوفاً ممن كان الوطن الفرنسي يشرف بهم لو كانوا فرنسيين . وإن الإنسان لا يكاد يطالع أخبار مصاب الفكر والضمير الحى في المغرب العربي على يد الفرنسيين حتى يفقد كل احترام للذهن الفرنسي كله ، وكيف تريد أن يصدق الإنسان أن الفرنسيين آمنوا بالحرية يوما إذا كان هذا موقفهم من الأحرار ؟

ولكن هذا كلام قد قيل وقيل حتى عرفه الناس أجمعون ، وما أقل جدوى شكوى الجريح حين يكون سامعه أحد اثنين : متألم لحاله عاجز عن إسعافه ، أو مستريح إلى شكاته لأنه الجاني عليه ، وهذه الشكاة هي — بعد كل شيء — غايته ومشتهاه ، كما تدوى صرخة القتل فيعلمن لها فؤاد القاتل ، لأنه يطمئن بها إلى أنه أصاب المقتل واستراح .

(١) لا يوسع المقام هنا للكلام عن الحركات الوطنية في المغرب ، لأننى حرصت هنا على أن أعرض الحالة الراهنة كما هي ، دون الكلام عن الحركات المعارضة ، وهى سجل حافل بالمجد للمغرب وأهله .

ماذا هبّت فرنسا من وراء ذلك كله :

ولنا بعد ذلك أن نسأل : ماذا جنت فرنسا من هذا العسف والاستبداد ؟ وماذا عاد عليها من وراء هذا الاستغلال الذي ينافي كل فضيلة ، وهذه الخيانة الخسيسة لكل تراث للانسانية من الضمير الحى والفكر الحر والقلب الكريم ؟ إن الفرنسيين يفخرون بأنهم قد كسبوا من المغرب العربى كسباً مادياً خالصاً لا خسارة فيه ، فهم لم ينفقوا على المغرب العربى فرنكاً واحداً من خزانته منذ فتخوه إلى اليوم ، لأنهم حرصوا على أن يستردوا من دم المغريين عن كل رصاصة قتلوا بها مغربياً ، ولأنهم يرغمون المغربى الآمن ، مزارعاً كان أو صانعاً ، على إعالة المهاجرين ، ودفع نفقات الإدارة والاحتلال ، ولأنهم يفرضون على كل مغربى قادر الخدمة العسكرية إلى أجل غير محدود ، وقد استنزفوا بذلك دماء المغرب على نحو نقشمر منه الأبدان . فلم يظهر فى أية ناحية من نواحي المغرب شاب قادر على حمل السلاح إلا طوحوا به يحارب فى سبيلهم فى ألمانيا أو فى الهند الصينية أو فى مدغشقر ، ولقد حارب هؤلاء المغريون دفاعاً عن فرنسا حرباً نبيلة كريمة لا تجد فرنسياً إلا ويقربها دون شكر أو تقدير ، كأنها شىء مقرر مفروض على هؤلاء المغريين .

ولكن فرنسا لم تجن من ذلك المال النهوب وذلك الدم المسفوك شيئاً على الإطلاق ، بل هى أقل شعوب الأرض إفادة من الرعايا والمحكومين .

فبعد عشرات السنين من السلب والاستصفاء لازالت فرنسا أفقر الدول التى كانت تريد أن تكون فى مستواها ، فهى مفلسة مدينة ، ولن تفرغ من ديونها إلا بعد عشرات وعشرات السنين ، ولن تصبح ذات يوم شعباً ذا مال وغناء .

وقد نقلت إلى المغرب من أبنائها نحو مليون ونصف ، هى اليوم فى أشد الحاجة إليهم فى بلادها ، لأن نسبة السكان فيها فى انهيار ، ولأنها تستخدم الملايين من العمال الأجانب ليعملوا فى أرضها وليسدوا هذا النقص المتزايد فى الجنس الفرنسى الأصيل .

وقد ضحت بألوف المغاربة للدفاع عن نفسها ، فلم تسلم من أن يخونها أبنائها ويسلموها للعدو العنيد ، فذاقت بين سمع الدنيا وبصرها ذل الاستعباد وعرفت عار الخيانة ، وامتهنت كرامتها على نحو لم تعرفه قبل أن تكون لها امبراطورية أو مستعمرات ، وذلك فى ذاته من تقديرات العناية الإلهية القياضة بالعبر ، لو كان الناس يعتبرون .

فهى لهذا لم تجن من وراء خيانة نفسها وخيانة من أوقعهم الله بين أيديها إلا مذلة

العار ، وذل الدين ووصمة خيانة البادية والأخلاق ، وقد أخذت في الانحدار منذ بدأت تفعل في المغرب هذه الأفاعيل ، ومضت أيام عزها مع أمس الدابر ، وسبحان من يرث الأرض ومن عليها وهو أعدل العادلين .

وماذا خسر المغرب :

ثم ماذا خسر أهل المغرب من وراء ذلك كله ؟

لا زالت أم المغرب بخير ، ولا زالت أمماً إسلامية عربية تتوفر في كيائها الحياة ، والمغربيون من غير شك اليوم خير منهم منذ مائة عام ، لم يحس المستعمر روحهم ، ولم يفل من قلوبهم مثلاً ، لقد جرد بلاد المغرب من أموالها ، واستصفي خيرات أرضها ، ولكنه يشمر الآن أنه لم يفعل شيئاً ، لأن كتلة المغريين لا زالت سليمة كريمة ، تستمسك بالإسلام وتتجه نحو العروبة ، وكأننا أحسن إليها المستعمر من حيث لم يحتسب ، لقد أغلق عليها الباب ومنع عنها النور ، فظلت كما هي حيث تركها ، وهي اليوم أحضر ما تكون وعياً وأسلم ما تكون جوهرها ، بل قد أنجبت من أبطال الحرية خلال هذا القرن المظلم عددا يحسدها عليه المستعمر نفسه ، وإذا ذكرت ما أوردته لك عن نظرة الفرنسيين الأول إلى الإسلام وإزدرائهم له ، واستهانتهم بالمغريين ، فاقراً الآن ما كتبه أحد أعلام الفرنسيين منذ عام فقط ، مسلماً فيه بجلال الإسلام ومعترفاً فيه بفضائل الجنس المغربي الكريم ، ومقرراً فيه هزيمة أبناء جنسه في كل ما رجوه من القضاء على المغرب وأهله وتحويله إلى بلد فرنسي كاثوليكي .

« في مارس سنة ١٨٣٩ كتب الأمير عبد القادر إلى ملك فرنسا لوى فيليب يقول : لو أردت السلام حقاً لاستطاع بلدانا أن يتحدا فلا يصبحان إلا بلداً واحداً ، ولعاش أقل رعايك بين قبائلنا في أمان تام ، ولأصبحت التجارة حرة فعلاً .

« لو كنت تريد السلام حقاً لما كان من المسير أن يطرد امتزاج الشعبين يوماً بعد يوم وبهذا تكون قد كتبت لنفسك سعادة إدخال الحضارة — التي يحمل النصارى مشعلها — إلى بلادنا دون أن تراق قطرة من الدماء .

« إن مشا كل الشمال الإفريقي الدائمة لا زالت على حالها منذ مائة وعشر من السنين ، ولم تزل كما هي منذ ثلاثة آلاف من السنين ، ولم تتغير إلا الظواهر ، وقد نشأت الفوضى التي تسود السياسة الفرنسية في الجزائر عن تعلقنا بهذه الظواهر تعلقاً تاماً ... ولقد شهد تاريخ المغرب في نواحيه الواسعة كثيراً من الإمبراطوريات الباهرة السريعة الزوال ،

طوتها جميعاً يد الحدنان ، ولقد صدق ا . ف جوتييه حينما قال : إن الدول في المغرب أشبه ما تكون بعيش الغراب ، يفضج في ليلة ويذبل في ضحوة ، ولكن رباطاً واحداً عَبَر القرون وسما على الأحداث ، وهو يتوثق مع الزمان ويصبح عامل الاستمرار ، ذلك الرباط هو الإسلام ! وهو شيء أكثر من دين ، إنه عالم سياسى واجتماعى صقلته العقيدة صقلا . إن المسلم يجد نفسه في وطنه مادام في بلد إسلامى أيما كان ، وإن نظامه الشخصى والدينى والاجتماعى يظل ثابتاً دون تغيير ما أقام في دار الإسلام ، ومن هنا نتج أن معنى الوطنية عند المسلمين يخالف معناها عندنا نحن الغربيين ، وأن الحقائق الأرضية الجغرافية لا وجود لها عند الشعوب المستعربة . وإنه لما يساعدنا على فهم الإسلام معرفة الرجال الذين خدموه ، لقد قدم الإسلام للعالم فلاسفة وأبطالاً وأدباء وسياسيين . وحينما اتصلت فرنسا بشعوب الإسلام اتصالاً وثيقاً وجدت نفسها وجهاً لوجه أمام رجل ضم في نفسه كل صفات الشعوب التي أخذت على نفسها مسئولية حكمها ، ذلك هو عبد القادر .

لقد ترك هذا الرجل طابعه الذى لا يمحو في التاريخ الإفريقى للعلاقات بين أوروبا والعالم الإسلامى . . عن طريق هذا الرجل تستطيع أن تفهم معانى ذلك الإسلام الذى يعود إلى اليقظة بكل غرائزه وتقاليده وفلسفته ومطالبه^(١) .

ذلك اعتراف صريح بالهزيمة أمام أهل المغرب ممثلين في شخصية بطلمهم الخالد عبد القادر يحميمهم ذلك الإسلام المجيد من كل ضير . لم يخسر المغرب شيئاً ، وأمامه المستقبل الطويل المجيد .

ليبيا :

بقيت كلمتان عن ليبيا وبلاد الريف .

فأما ليبيا فقد دهمها الاستعمار الإيطالى منذ ١٩١١ ، والإيطاليون أقل من الفرنسيين حضارة وأقل منهم خبرة في مسائل الاستعمار وسياسة الشعوب ، ومن ثم لم يتقيدوا في سياستهم الطرابلسية بعرف ولا بخلق ولا بتقليد ، وضمو أيدهم على الأرض كلها بالغصب والقهر وأخذوا ينقلون أسرات إيطالية وقيمونها في الأراضي المغصوبة ، ويقدمون لهذه الأسر قروضاً

(١) نشر هذا الكلام بتوقيع M.I كقدمة لمدد مجلة Le Monde illustre الحاس بالجزائر . ولم أستطع تعرف شخصيته الحقيقية .

تمكنهم من استغلال هذه الأراضي . ولما كان الإيطاليون شعباً معظمه من الصنّاع والزراع الفقراء فقد رحبوا بالفرصة وهاجروا آلافاً حتى كاد البلد يتحول إلى بلد إيطالي لو لم تتداركه رحمة الله بالحرب الأخيرة التي كسرت ظهر الإيطاليين وحالت بينهم وبين الإجهاد على شعب أعزل مسكين .

وإليك حقيقتان تجملان السياسة الإيطالية في هذا القطر وهما تغنيان عن كل تعليق : أصدرت الحكومة الإيطالية قانونين سنة ١٩٢٢ وسنة ١٩٣٣ حرمت فيهما على الأهالي امتلاك الأراضي الزراعية ، ولم يُسمح لهم إلا امتلاك النخيل وأشجار الزيتون وحق استعمال أراضي المراعى .

واستقدمت المهاجرين بالآلاف حتى بلغ عددهم ٧٠٠٠ في سنة ١٩٣٥ ووزعت عليهم أراضي الأهليين .

في هذا كفاية ، وليقل الإيطاليون بعد ذلك إنهم أنشأوا المدن والطرق والموانئ والمدارس والشركات ، ليقولوا ما يشاءون ، فهذه كلها لا تعيننا لأن شيئاً منها لم ينشأ لمصلحة أهل البلاد ، ولم يكن الغاصب ينوى إلا شيئاً واحداً وهو استئصال الليبيين . ولقد استئصل منهم بحد السيف بقدر ما سمحت به الظروف . إن مصير هذا البلد العزيز اليوم بيد المنتصرين ، وقد زعموا أنهم يستفتون أهله ، ولكننا لا نشك في أنهم لن يأخذوا برأى الأهليين في كثير أو قليل .

نبذة تاريخية عن مطامع إسبانيا في مراکش :

كانت للإسبان في المغرب خلال القرن السادس عشر آمال كبار ، فقد كانت دولتنا بنى عبد الواد والحفصيين ضعيفتين في أوائل هذا القرن ضعفاً شديداً ، واستقلت بلاد الساحل الهامة مثل تونس وبنزرتة وبجاية والجزائر ووهران ، وسيطرت عليها جماعات من الملاحين صرفت همها إلى غزو السواحل الإسبانية لإيقاد من تستطيع إيقاده من المسلمين المذنبين في إسبانيا وللغزو بما تستطيع اغتنامه من سواحل الإسبان وموانئهم وسفهم . فنهض لهم ملوك الإسبان الكاثوليكيون يُحترضهم راهب شديد العصية هو فرانسيسكو رخيبييس ديسيروس آلى على نفسه أن يحول المغرب إلى بلاد كاثوليكية ! وقاد الإسبان في هذه الحرب الصليبية القائد « يدرو فاثارو » . واستطاع الإسبان أن يحتلوا على الساحل المغربي مراكش في موانئ المرسى الكبير ووهران وبجاية وفنارس ودأس وشرشل

ومستقائهم ، بل احتلوا طرابلس نفسها سنة ١٥١٠ . ولو لم يتدارك الله المغرب بالإخوة الأتراك الأربعة عمرُوج وخير الدين وإسحاق وإلياس — الذين أنقذوا المغرب ببطولتهم وانتهوا بأن جعلوا الجزائر ولاية عثمانية — لطال أجل الإسبان في المغرب . ثم اضطربت أحوال إسبانيا بعد ذلك اضطراباً أرغمها على ترك كل مراكزها على الساحل الإفريقي إلا سبتة ومليلية ، واجتهد سلاطين الدولة السعدية الشريفة في مراكش في القضاء على هذه البقية الباقية وتطهير بلادهم من الغزاة الدخلاء ، ولكنهم لم يستطيعوا استخلاص سبتة ومليلية من يد الإسبان .

وحينما ضعف أمر الدولة السعدية وأخذت عيون الأوروبيين تتجه نحو بلاد الإسلام من جديد ، كان الإسبان في جملة الطامعين ، فتمكنوا من توسيع منطقة نفوذهم ، واستولوا على تطوان في سنة ١٨٦٠ . ثم عقدت هدنة بينهم وبين السعديين تنازلوا فيها عن تطوان مقابل عشرين مليوناً من الريالات الأسبانية .

مؤتمر الجزيرة الخضراء :

وبلغت أحوال إسبانيا خلال القرن التاسع عشر مبلغاً من السوء جعل بلادها رمزاً للفوضى وموضعا لسخرية الأوروبيين أجمعين . ولكن فرنسا كانت طامعة في مراكش ، ولم تكن لتجروء على مهاجمتها منفردة مخافة الإنجليز والألمان ، فلم تزل تفرى الأسبان حتى وقموا معها بمهادنة سرية في مدريد قسمت مراكش بمقتضاها إلى مناطق ثلاث : فرنسية وإسبانية ودولية ، وأثار هذا الاتفاق مخاوف مولانا السلطان عبد العزيز سلطان مراكش إذ ذاك ، فدعا اثنتي عشرة دولة أوروبية إلى مؤتمر دولي في الجزيرة الخضراء ظننا منه أن اجتماع الدول يؤدي إلى اختلافها وسلامة بلاده . ولكن المؤتمر لم يكبد يجتمع في السابع من إبريل سنة ١٩٠٧ حتى خيب ظنونه ، فقد قرر المؤتمر ما يلي :

— احترام الدول الأوروبية لاستقلال مراكش ووحدتها أراضيها

— فتح مراكش لتجارة الدول على السواء

— السماح لفرنسا وإسبانيا بتقديم مساعدات فنية ؛ لتنظيم الشرطة المراكشية في

بعض الموانئ .

وكان هذا البند الأخير هو الباب الذي نفذ منه كل البلاء .

فإن فرنسا ما زالت تتوسع في استعمال هذا الحق حتى انتهت إلى فتح مراكش وإلزام سلطانها مولانا السلطان عبد الحفيظ في ٣ مايو سنة ١٩١٢ بتوقيع معاهدة فاس ، وقد ورد في هذه المعاهدة المشثومة بند يبيح للحكومة الفرنسية مفاوضة الحكومة الأسبانية فيما لها من مصالح جغرافية على شاطئ العدو المراكشية . وتم الاتفاق بين فرنسا وإسبانيا في ٢٧ نوفمبر سنة ١٩١٣ . وعقد اتفاق بينهما فازت منه إسبانيا بالمنطقة التي تسمى الريف وهي شبه قوس يمتد من مجرى نهر مراكوية إلى حدود منطقة طنجة الدولية .

أعطيت إسبانيا هذه المنطقة لتنظيمها ولتحضرها وتمشي بها إلى الأمام ، ولم يكن في إسبانيا نفسها في ذلك الحين نظام أو حضارة أو سير إلى الأمام ! ولكن الدول الأوروبية اعترفت لأسبانيا بهذا الوضع . وذلك في إذاته خيانة من الخيانات التي لا تنتهي ، والتي اقترفها هؤلاء الأوروبيون في حق الحضارة والحرية والنظام .

بل كان أحرار الأسبان أنفسهم من أعداء فكرة التوسع في مراكش ، ولكن أحرار الأسبان في كل زمان ضحية الرجعيين ورجال الدين في هذا البلد ، وكانت هذه المنطقة معتبرة نظريا جزءاً من سلطنة مراكش ، وأعطى السلطان الحق في تعيين خليفة له في المنطقة الأسبانية .

ولم يكد الأسبان يضعون أيديهم على هذا الإقليم حتى أسدلوا عليه ستاراً من حديد ، فلم يعد أحد يعرف عن أهله شيئاً . وليس أدل على ذلك مما يقوله جوتييه أعظم جغرافي الشمال الأفريقي والمارفين بشئونه ، فقد قال في سنة ١٩٣٥ : « إن معرفتنا عن هذا الإقليم سيئة جداً ! » ولا تعرف بقية العالم عنه أكثر مما يعرف جوتييه .

فإن البلاد لم تدرس الدرس الكافي ولم تنظم التنظيم المطلوب وتراجعت المنطقة على يد الأسبان إلى الوراء خطوات ، لأن الأسبان لا يملكون فضلاً من نظام أو حضارة يهبونه للناس .

ولو لم تتدخل فرنسا لحماية المصالح الأسبانية لإخماد ثورة الأمير عبد الكريم في سنة ١٩٢٤ لاستقلت هذه المنطقة من ذلك الحين ولرفرف عليها علم الحرية منذ سنين ، لأن الحكومة الأسبانية كانت قد فاوضت الأمير في الصلح فعلاً .

عادت إسبانيا إلى السيطرة على المنطقة منذ منتصف سنة ١٩٢٦ وقررت أن تسير على أسلوب من العنف يقضى على مسلمي المنطقة قضاء ، وأحبت أن تقتدى في ذلك بالفرنسيين .

ثم قامت الحرب الأهلية الإسبانية ، ومن غرائب المقادير أنها نشأت في المنطقة الخليفية ، أعلن فرانكو ثورته فيها واستقل بها عن مدريد واحتاج إلى عون المراكشيين الأشداء فوعدهم بالخير إذا هم عاونوه ، وقد انتهز سمو خليفة المنطقة الخليفية هذه الفرصة وأعلن استقلال وزارتي العدل والأوقاف عن الإدارة الأسبانية وأرسل إلى مصر بعثة ثقافية ، لعلها أول بعثة علمية مغربية تصل بلداً شرقياً . وأسس في القاهرة بيت المغرب ومكتبة التبادل الثقافي ، وهذه كلها مفاخر تذكر بالشكر الجزيل لهذا الأمير الكريم .

والإدارة الأسبانية في هذه المنطقة لا تزال ينقصها الكثير من المرونة وحسن النظر حتى تستطيع أن تؤدي لأهلها خدمة طيبة .

بيد أن العزاء الوحيد عن ذلك كله هو أن الأسبان أنفسهم في بلادهم في مثل هذا الحال السيئ من ضياع الحريات وضيق المعاملات .

مسيء مؤنس

سياسة أسبانيا في المغرب العربي

للمؤستاذ محمد أحمد بن عبود

ظل الأسبان منذ زمن بعيد ينظرون إلى المغرب العربي - تونس والجزائر ومراكش - على أنه يؤلف مع أسبانيا وحدة جغرافية واقتصادية ولذلك بدأ اهتمامهم بالسيطرة عليه سياسيا قبل أية دولة أخرى ، ويتمثل ذلك في محاولتهم النزول إلى تونس والجزائر ومراكش في فترات مختلفة من التاريخ بعد سقوط الأندلس مباشرة .

ولقد بذلت أسبانيا أثناء القرن التاسع عشر جهوداً يائسة للاستيلاء بمفردها على مراكش ، ولكن فرنسا استطاعت أن تغلب عليها بحكم احتلالها للجزائر . وتم الاتفاق بين الدولتين أولاً على اقتسام البلاد بشكل يكاد يكون منصفة . ولكن فرنسا في آخر لحظة لم تسمح لها إلا بالاستيلاء على منطقة صغيرة في الشمال مساحتها ٢٠ ألف كيلو مربع بينما تقارب مساحة البلاد ٦٠٠ ألف كيلو مربع .

فلما خضعت هذه المنطقة الصغيرة لنفوذ الأسبان بدأوا يحققون فيها هذه الفكرة واتخذوها في نفس الوقت مركز ارتكاز يتحينون منها الفرص لتحقيق الوحدة السياسية مع المغرب العربي تحت سيطرتهم .

وتسير السياسة الإسبانية في المنطقة التي تخضع للنفوذ الإسباني شمال مراكش وفق خطة مرسومة وضعت منذ بضعة قرون ، وتتجه هذه السياسة إلى أهداف واضحة محددة ، وقد اجتازت هذه السياسة عدة مراحل ، وتلون تنفيذها بحسب الظروف والأحوال المتغيرة ، ولكن الأهداف والمبادئ الرئيسية لهذه السياسة لم تتأثر بالأحداث السياسية الداخلية في إسبانيا ولا بالتطورات الكبيرة والانقلابات في السياسة الدولية .

وقد اعتمدت إسبانيا على عدة عناصر قوية للقيام بتنفيذ خطتها المحكمة وزودتها بكل ما يلزمها من وسائل مادية ومعنوية ، ونستطيع بواسطة تحديد هذه العناصر وتحليل وسائلها وعرض أعمالها أن نصل بسهولة إلى لمس تلك الأهداف التي ظلت إسبانيا تسمى إلى تحقيقها ولا تزال تعمل بمختلف الوسائل للوصول إليها .

وقد كانت الكنيسة والامتيازات الاجنبية والجيش ثم الإدارة الأدوات الفعالة في تنفيذ سياسة إسبانيا في المغرب ، ولذلك نرى من المهم عرض الدور الذي لعبه كل منها في هذا السبيل ، وبذلك نستطيع أن نتصور حقيقة السياسة التي تسير عليها إسبانيا في شمال مراکش ، ونذكر أهدافها بالنسبة للمغرب العربي كله . ويتضح من التطور التاريخي للعناصر المذكورة أن الكنيسة كانت أول من اضطلع بتلك المهمة ، ثم أضيف إليها عنصر الامتيازات الأجنبية ، ولما دخلت إسبانيا إلى شمال مراکش تضافرت جهود الجيش والإدارة مع الكنيسة على تحقيق غاية إسبانيا من تلك السياسة .

ويرجع تاريخ قيام الكنيسة الإسبانية بمهمتها في المغرب العربي إلى أوائل القرن الثالث عشر الميلادي ، وقد وقع الاختيار على جماعة الفرانسيסקان لما تمتاز به هذه الطائفة من الصبر ، وتحمل الآلام والمشاق ، بوحى من مبدئها الذي يقوم على الزهد والتقشف ، وكانت هذه الصفات لازمة لمن يريد أن يقوم بمهمة خطيرة في ذلك الوقت ، داخل (أراضي الأعداء) وبناء على ذلك دعا القسيس سان فرانسيسكو دى آسيس مؤسس المذهب إلى مؤتمر عقد في جبال البرانس في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي ، وحضره ٥٠٠٠ راهب ، وتقرر فيه وجوب القيام بمهمة تعليم (قانون الإنجيل للشعوب الكافرة) وحدد المؤتمر أهم منطقة لتلك الشعوب بالأراضي التي كان العرب يحتلونها يومئذ في الأندلس ، وشمال أفريقيا . ولم تكن ظروف ذلك الوقت تسمح بإرسال بعثة كبيرة العدد ، ولذلك قرر المؤتمر الاكتفاء بإرسال بعثة مكونة من ستة من الفرانسيסקان . وقصدت البعثة في بادئ الأمر أشبيلية وبدأت تقوم بمهمة التبشير فيها جهاراً ، حتى اضطر الحاكم العربي للمدينة إلى إبعاد أفرادها ، فهاجروا إلى مراکش في نفس السنة ، وأقاموا في الماصمة ، حيث جعلوا يقومون بمهمتهم علناً في إنقاذ الأرواح ، وتعليم قانون الإنجيل (لشعوب الكافرة) كما كانوا يقولون ، فبلغ ذلك السلطان أباً يعقوب المستنصر بالله فطردهم من الماصمة ، فذهبوا إلى مدينة سبتة وبعد الإقامة فيها سنة واحدة رجعوا إلى الماصمة ، وأعادوا الكرة للقيام بمهمتهم ، فألقت الحكومة المراكشية القبض عليهم وأعدمتهم سنة ١٢١٢ ، وكان سبب الإعدام هو تجاوزهم حد اعتقادهم بدينهم والتعبد به وفق ما تسمح به المبادئ الإسلامية إلى محاولة التبشير به جهاراً والقيام بالدعاية لدولتهم . وقد رجعت الحكومة المراكشية في سنة ١٢٢٥ ، وأذنت لطائفة أخرى من الرهبان بتأسيس خمسة معابد ليعلموا داخلها طقوسهم الدينية . وفي القرن الخامس عشر أنشأ جماعة الفرانسيסקان فروعاً أخرى في طنجة والمراثش .

وكانت هذه الجماعة قد زارت ملك البرتغال الفونسو الثاني قبل أن تذهب إلى إشبيلية ثم إلى مراكش في أوائل القرن الثالث عشر ، فرحب بأعضائها وأكرمهم وأمدهم بالمال للاستعانة به على أداء مهمتهم في الأندلس وشمال أفريقيا . فلما بدأت الجيوش البرتغالية تحتل شواطئ مراكش بعد ذلك ، كانت جماعة الفرانسيסקان بمثابة ما يعرف اليوم باسم الطابور الخامس ، كما قاموا بمثل هذا الدور أيام الحرب المراكشية الأسبانية سنة ١٨٥٩ ، وكان الاحتلال البرتغالي للمدن المراكشية على شاطئ البحرين الأبيض والأطلسي يفسح أمامهم المجال لإنشاء الكنائس والمؤسسات ، والقيام بمهمتهم في نشر عقيدتهم . وظل نشاطهم مرتبطا بالجيوش البرتغالية يضيق ويتسع بحسب تقدمه وتقهقره ، ثم انقرضت حركتهم بانقراض الاحتلال البرتغالي حتى انحصرت في مدينة سبتة ، ثم عادت إلى الظهور في القرن السابع عشر في صورة جديدة حيث أن الحكومة الأسبانية بدأت ترسل منهم سفراءها إلى مراكش للمفاوضة في شئون الأسرى ، إلى أن سمح لهم السلطان مولاي اسماعيل بإعادة مؤسساتهم في تطوان وسلا والرباط . وفي القرن الثامن عشر أعطيت لهم بعض الحقوق المتعلقة بالإقامة ومباشرة العبادة . في هذا الوقت جاء القسيس برنابو خيروس سفيراً لأسبانيا في مراكش ، فساعدتهم هذه الصفة الرسمية على تقوية نشاطهم ، وقد وقفت حركتهم تماماً في سنة ١٧٩٠ بمناسبة قيام الحرب بين مراكش وأسبانيا ، فلما انتهت بعد أربع سنوات عادوا إلى نشاطهم . وفي سنة ١٨١٦ أصدر السلطان مولاي سليمان المفو عن جميع الأسرى المعتقلين وأطلق سراحهم ، فقامت جماعة الفرانسيסקان بتنظيم شئونهم في مراكش ، وقد عين فيها عدة قناصل لأسبانيا من الرهبان ، منهم مرتين دى أروساريو قنصلها في طنجة ، وسمح لهم بإنشاء بعض الملاجئ الخيرية والمعاهد الدراسية في بعض المدن الساحلية .

وعند ما فرضت الحماية على مراكش ، وقسمت إلى منطقة تحت الحماية الفرنسية ومنطقة النفوذ الأسباني ، ومنطقة طنجة ، تلونت حركة الفرانسيסקان مع هذا الظرف وانقسمت إلى قسمين مستقلين ؛ اتخذ الأول مركزه في الرباط واختص بمنطقة الحماية الفرنسية ، واتخذ الثاني مركزه في طنجة واختص بمنطقة طنجة ومنطقة النفوذ الأسباني . وبذل هذا التقسيم دلالة واضحة على أن مهمة جماعة الفرانسيסקان كانت سياسية أكثر منها دينية . فبينما بقي نشاط مركز الرباط يتابع أعماله في دائرته السابقة نرى مركز طنجة قد نسق عمله مع السلطات الأسبانية في المنطقة الحليفية فوسع نطاق أعماله ، وأنشأ فروعا في جميع المدن والقرى وصار يشرف على كثير من الشئون الاجتماعية والإدارية مثل التعليم والطبع والنشر وعرض

الأفلام وإقامة المستشفيات ، وقد أمدته السلطات الأسبانية بنفوذ سياسى وعينت له مخصصات كبيرة من الميزانية المراكشية .

وقد كان نفوذ جماعة الفرانسييسكان وسيطرتهم على الشؤون الثقافية سببا فى تدهور التعليم بمنطقة مراكش الشمالية لأن مذهبهم — كما يقول الأب خوس لبيس — يقوم على تغليب الروح على الفكر ولذلك استحبوا الزهد على التعليم كما استحبوه على متاع الدنيا كلها . وهكذا نستطيع بواسطة هذا العرض الموجز أن نتبين أهم الأهداف التى ترمى السياسة الأسبانية إلى تحقيقها فى المغرب العربى معتمدة على جهود الكنيسة فى أن تستغل جماعة الفرانسييسكان لاستعمار البلاد روحيا كما تعتمد على الجيش فى الاستعمار المادى .

كانت الامتيازات التى يتمتع بها الأسبان فى مراكش من أهم الوسائل التى استغلتها أسبانيا للسيطرة على المغرب ، ويرجع أساسها إلى المعاهدة التى أبرمت بين مراكش وأسبانيا فى مدينة مكناص سنة ١٧٩٩ ، ثم اتسع نطاقها فى معاهدة الصلح على أثر انهزام الجيش المراكشى فى موقعة تطوان سنة ١٨٦٠ ، وقد ساعد ضعف مركز الدولة المراكشية فى القرن التاسع عشر أسبانيا على التوسع فى التفسيرات وتحميل تلك الفصوص ما لا تحتمل ، وبقدر ما كان يزداد ضعف مركز الدولة المراكشية كان يتسع نطاق تلك الامتيازات من غير اعتماد على اتفاق دولى أو تشريع مغربى ، وقد حاولت الحكومة المراكشية باحتجاجاتها أن تحد من طغيان هذه الامتيازات ولكن ظروفها لم تساعد على ذلك .

وكانت الامتيازات تنقسم إلى عامة وخاصة ، وتتلخص العامة منها فى النقاط الآتية :

١ — حق الإقامة والتنقل :

لما بدأت أسبانيا تعقد معاهدات الأمن والتجارة مع مراكش سار دعاياها من المستأمنين ، وأعطى لهم حق الإقامة والتنقل ، وصار دخولهم إلى مراكش والتنقل والإقامة فيها لا يحتاج إلى إذن خاص .

٢ — حرية المساكن :

نص فى المعاهدة البرمة بين أسبانيا ومراكش سنة ١٨٦٣ على أن (مساكن الأسبان ومتاجرهم موقرة ، ولا تفتش إلا بأذن القنصل الأسبانى فى مراكش) .

٣ - من العبادة :

كذلك سجل في تلك المعاهدة حق حرية العبادة للجالية الأسبانية ، ولكنهم أساءوا استعمال هذا الحق وجعلوا يبشرون بدينهم في مرا كش كما لو كانت هذه البلاد مجموعة من القبائل المتوحشة لا دين لها .

٤ - من التجارة :

أعطى هذا الحق للرعايا الأسبان في المعاهدات السابقة ولكنهم استغلوه في خلق حماية السماسرة الذين استغلوا في التجارة والسياسة معا .

تلك هي الامتيازات العامة التي استغلتها أسبانيا للسيطرة على المغرب ، وانتهت آخر الأمر بأن صارت قيداً خطيراً على سيادة هذه البلاد قبل فرض الحماية . أما بعد ذلك فقد صارت القاعدة العامة هي أن يتمتع الأسبان في مرا كش بجميع الحقوق العامة التي يتمتعون بها داخل أسبانيا ، كحرية النشر والاجتماعات العامة وتأسيس الجمعيات ، وهذه الحقوق مضمونة لهم بتشريعات خاصة ، فإذا وردت قيود على بعضها فعلى سبيل الاستثناء ، أما بالنسبة للمراكشيين فإن القاعدة هي منعهم من تلك الحقوق ، وإذا سمح لهم بالتمتع ببعضها فعلى سبيل الاستثناء . وتتلخص الامتيازات الخاصة في النقاط الآتية :

١ - الامتياز القضائي :

نص في معاهدة سنة ١٨٦٣ على (أن الحكم في المنازعات بين الأسبان أو الأجانب والأسبان يكون من اختصاص القنصل الأسباني ، أما المنازعات بين الأسبان والمراكشيين فالدعى يتبع الدعى عليه) . وكان القنصل الأسباني زيادة على ذلك يختص بتحديد الحالة المدنية لرعاياه ، ويشرف على الشئون الدينية ويختص بإبعاد وإلقاء القبض على الفارين من الجندية من أسبانيا ، وكان يتدخل في تقدير الضريبة المقررة على الرعايا الأسبان وجبايتها . وبعد ما خضعت المنطقة الخليفية للنفوذ الأسباني أنشئت بها محكمة أسبانية على أساس هذه الامتيازات ، وقد طنى اختصاصها اليوم على جهات القضاء المراكشى .

٢ - الامتياز المالى :

كان الأسبان كغيرهم من الأجانب لا يدفعون الضرائب العقارية حيث لم يكن يباح لهم تملكها فى مراكش ، إلى أن أعطى لهم هذا الحق فى معاهدة مدريد سنة ١٨٨٠ ، وقد حاولت الحكومة المراكشية أن تفرض عليهم نفس الضرائب التى كانت مفروضة على المراكشيين فى سنة ١٩٠٢ ، ولكنها لم تستطع بسبب ضعف مركزها فى ذلك الوقت وقد استغلت إسبانيا هذا الامتياز ، بعد أن فرضت نفوذها على المنطقة الخليفية ، وذلك بإرهاق كاهل المراكشيين بالضرائب وإعفاء الإسبان منها .

٣ - حق التملك العقارى :

أحرز الأسبان هذا الحق بمقتضى معاهدة مدريد كما ذكرنا . وقد استغلت إسبانيا هذا الامتياز بعد دخولها إلى المنطقة الخليفية بشكل واسع النطاق ، واتخذت منه أساساً لنزع ملكية الأراضى من يد المراكشيين وتمليكها للإسبانيين الذين هاجروا لهذه الغاية .

سكان المنطقة الخليفية لا يتجاوز عددهم مليوناً واحداً ، ومساحة المنطقة كلها ٢٠ ألف كيلو متر ، ومع ذلك يوجد فيها جيش إسباني قوامه ٨٠ ألفاً من الرجال ، ولذلك ليس من المقول أن تكون مهمة هذا الجيش مجرد القيام بالمحافظة على الأمن ، بل لابد أن تكون له مهمة أخرى أكثر خطورة من ذلك ، وسنعرض هنا بعض التقسيمات وتوزيع الاختصاصات والمهام التى يقوم بها جانب من هذا الجيش فى المنطقة الخليفية ، لعل ذلك يكشف لنا عن مهمته الحقيقية .

تحكم المنطقة الخليفية حكماً عسكرياً والوظائف المدنية تابعة أو مساعدة للجيش ، وبعد المقيم العام الإسباني فى تطوان الرئيس الأعلى للجيش والحاكم العسكري ، وتتفرع عن المقيمة شبكة من التقسيمات تسيطر سيطرة تامة على مختلف المرافق الإدارية ، وستحدث عن الإدارة فيما بعد ، ونقصر الحديث هنا على النواحي التى تكشف لنا عن الأهداف السياسية التى أعد هذا الجيش لتحقيقها .

يوجد فى الجيش الأسباني بالمنطقة الخليفية قسم كبير مهمته الأعمال التى يقوم بها لبس السياسى عادة ، وتدخل تحت هذا القسم عدة مكاتب يشرف الأول منها على شؤون

الهجرة الإسبانية إلى مراکش ، وجوازات السفر والدعاية ، ويقوم الثاني بمهمة الاستعلامات ومقاومة الشيوعية والماسونية والحركة الوطنية المراكشية ، ويختص المكتب الثالث بشئون الأجانب ويتبعه قسم البوليس الحربي السرى المتنقل ، ويشتمل المكتب الرابع على قوة مسلحة مهمتها الفتك بالأفراد والهيئات التي يقرر مكتب الاستعلامات وجوب التخلص منها ، وقسم الاستعلامات في هذا الجيش هو أخطر أقسامه ، وقد نظمه الأسبان بمساعدة الخبراء الألمان الذين التجأوا إلى إسبانيا بعد الحرب الماضية ، ويتصل بالمقيم عن طريق أركان الحرب ، وهناك مراكز في جميع مدن المنطقة تحتوى على جميع تلك الفروع ، لتكون على اتصال دائم بعضها ببعض ، وتمتد دائرة القسم ونشاطه خارج المنطقة الخليفية ، فهو يتتبع نشاط الحركة الوطنية في أقطار المغرب العربي بصفة عامة ، ويهتم بالحركة الوطنية المراكشية في المنطقة التي تخضع للحماية الفرنسية ، كما يتتبع السياسة في بلدان الشرق العربي ، وعلى الخصوص النشاط الذي يقوم به القارة فيها .

يتضح من كل ذلك أن مهمة هذا الجيش لا تقف عند حدود المنطقة الخليفية ، بل تتعدى ذلك من غير شك ، وإذا انتبهنا إلى انتقال القوات الكبيرة من هذا الجيش إلى داخل إسبانيا كلما حدث اضطراب فيها أدركنا أن مهمته حماية نظام فرانكو الفاشيستي ، وإذا تذكرنا انقضاضه على منطقة طنجة لاحتلالها سنة ١٩٤٠ في نفس اليوم الذي سقطت فيه باريس أدركنا أيضاً أن من مهمة هذا الجيش تحيين الفرص لاحتلال أقطار المغرب العربي ، وإخضاعها للاستعمار الإسباني .

وجود إسبانيا في المنطقة الخليفية لا يعتمد على اتفاق مباشر بين إسبانيا ومراكش ، وإنما يعتمد على اتفاقية سرية أبرمت بين فرنسا وإسبانيا في سنة ١٩٠٤ ، ثم معاهدة أبرمت بينهما في سنة ١٩١٣ ، وقد نص في المادة الأولى منها أن (إسبانيا ستساعد الحكومة المراكشية على إدخال إصلاحات ضرورية في الإدارة والاقتصاد والمالية والتشريع والعسكرية وغيرها) ومعنى النص واضح في أن مهمة إسبانيا ستقتصر على المساعدة ، وأن إدارة البلاد ستبقى في يد الحكومة المراكشية ، ولكن الذي حصل يخالف ذلك تماماً في السياسة التي سارت عليها إسبانيا في المنطقة الخليفية رامية إلى هدف معين ، وهو أن تصبح إدارة هذه البلاد تحت سيطرة الأسبان ، وأن يباشر العمل فيها موظفون إسبانيون ، وأن تسير على نفس المنهج الذي تسير عليه الإدارة داخل إسبانيا ، والوصول من كل ذلك إلى حكم هذه البلاد حكماً مباشراً ، وقد تركت

السلطات الإسبانية الحكومة المراكشية جانبا كأداة عاطلة ، واستحوذت على عناصر السيادة ، ويكفى أن نذكر أن الإدارة الإسبانية تكلف الميزانية المراكشية عشرة أمثال ما تكلفه الحكومة المراكشية كلها .

وتتركز السلطة في يد المقيم العام الإسباني تساعده « النيابات » التي هي بمثابة وزارات ، كما ينوب عنه في مباشرة السلطة التنفيذية مراقبون في جميع المدن والقبائل .

وقد صدر مرسوم من إسبانيا في ١٢ يوليو سنة ١٩٢٤ بشأن تنظيم اختصاصات المقيم العام الإسباني في المنطقة الخليفية ، تركزت بمقتضاه مباشرة السيادة الخارجية والداخلية للمنطقة الخليفية في يد المقيم العام الإسباني ، فجاء فيه أنه يختص بتمثيل إسبانيا في مراكش ، وهو وحده الوسيط في الاتصال بين الحكومة المراكشية في المنطقة والدول الأجنبية ، وهو الذي يشرف على تحضير ميزانية المنطقة ، وعلى تنفيذها ، والمصادقة على ما يصدره سمو الخليفة من مراسيم ، وما يصدره رئيس الحكومة المراكشية من قرارات ، يضاف إلى ذلك حقه في إصدار قرارات في كل ما يتعلق بشئون الجالية الأسبانية ، وهو المرجع فيما يتعلق بالسياسة الداخلية العليا وبخاصة شئون الموظفين . وفي ٨ نوفمبر سنة ١٩٤١ صدر مرسوم آخر من إسبانيا أعيد بمقتضاه تنظيم اختصاصات المقيم العام ، فأضيف إلى الاختصاصات السابقة اعتباره ممثلا لإسبانيا في جميع مستعمراتها في إفريقية ، كما نظم العلاقات بين القومية في تطوان والحكومة الإسبانية في مدريد ، وهذه الخطوة تدل دلالة واضحة على ما ترمى إليه السياسة الإسبانية من إلحاق هذه المنطقة بالمستعمرات ، ثم ضمها إلى إسبانيا في النهاية ، وطريقة سياسة الحكم المباشر التي سارت عليها السياسة الإسبانية في المنطقة الخليفية تؤكد ذلك كل التأكيده .

وتساعد المقيم العام خمس نيابات ؛ وهي نيابة الشؤون الوطنية والثقافة والأشغال والاقتصاد والمالية .

وتختص نيابة الشؤون الوطنية بأعمال وزارة الداخلية ومراقبة الحكام المغاربة ، ولها في كل قبيلة ومدينة مراقب بيده السلطة الفعلية وبجانبه حاكم مغربي كقناص له ، وتشرف هذه النيابة على البلديات والعديلية الإسلامية والأوقاف وأمالك الحكومة المغربية وشؤون الموظفين المراكشيين ، وبها قسم للاستعلامات يحتوي على جيش من الجواسيس يقومون بمراقبة كل فرد وكل عائلة في المنطقة ، ولما نجا أحد من أذاهم ، ولا حصر لعلمى الإجرامية والأخلاقية التي سببها لبلاد ، ولعل هذه هي المهمة الرئيسية لتلك النيابة .

وتشرف نيابة الأشغال على الناحية العمرانية والزراعية ، ولا دخل لأى موظف مرا كشي فى هذه الشئون ، وتسير السياسة فى هذه الشئون بتوجيهها لصالح الجالية الإسبانية فى مرا كش . وتقوم نيابة المالية بالإشراف على ميزانية المنطقة الخليفية ، فتعمل على تحضيرها وعلى تنفيذها وعلى جباية الضرائب مساعدة للمقيم العام ، ولا دخل للحكومة المرا كشية فى المسائل المالية حتى بصفة استشارية .

ونىابة الاقتصاد تهيمن على كل ما يتعلق بالإنتاج والتوزيع ، وتتبع سياسة الاقتصاد الموجه ، وبذلك استطاعت أن تهىء الفرص للاسبانيين للحصول على ثروات واسعة على حساب إفقار المرا كشين ، وبالرغم من تزايد عدد الأسبان فى مرا كش بالهجرة المستمرة لا تجد عاطلا منهم عن العمل ومن يشتكى من نزول مستوى حياته ، بينما يجد المرا كشيون سبل العيش مقفلة فى وجوههم وقد مات مائة ألف من المرا كشين سنة ١٩٤٣ — ١٩٤٤ بسبب المجاعة فى منطقة الريف .

أما نيابة الثقافة والتعليم فهى المستحوذة على جميع شئون الفكر والثقافة والتعليم للمرا كشين والأسبان ، والسياسة التى تسير عليها هى تقوية الثقافة الأسبانية ومقاومة الثقافة العربية ، وتجد ازدياداً مطرداً فى عدد المدارس والمعلمين والتلامذة الأسبان فى الاحصاءات التى تزيدها كل سنة نيابة الثقافة ، بينما تجد عكس ذلك فيما يخص التعليم العربى وللدلالة على هذه السياسة ننقل هنا فقرة من مذكرة رسمية قدمها الأستاذ محمد داود مدير المعارف المرا كشى إلى نائب الثقافة فى ١٥ أغسطس سنة ١٩٤٦ وهذا نصها حرفياً :

(لا تتمتع إدارة المعارف المغربية فى وضعيتها الحاضرة بأية سلطة حقيقية فى التعليم الغربى ومهمتها محصورة فى تقديم المطالب والاقتراحات إلى « نيابة التربية والثقافة » والإجابة على المكاتبات أو الأسئلة التى تصلها منها ، ولنيابة التربية والثقافة مطلق الحرية فى أن تقبل أو ترفض من مطالب الإدارة المغربية ما تشاء ، وأن تضع من القوانين والأنظمة والميزانيات للتعليم الغربى ما تريد ، دون رجوع إلى الإدارة المغربية ، وبما أن نيابة التربية والثقافة هيئة أسبانية يتولى أمورها أسبانيون مهما تكن مكانتهم الإدارية والثقافية فهم أجنب عن التعليم المغربى ، وليس لهم من الاطلاع على مشاكله والشعور بحاجاته والغيرة عليه ما للمغاربة ، وليس لهم بطبيعة الحال من الاهتمام بالتعليم الغربى بقدر ما لهم من الاهتمام بالتعليم الأسبانى ، فقد وجهت نيابة الثقافة اهتمامها الأكبر إلى التعليم الأسبانى ، وأصبح التعليم المغربى نوعاً ثانوياً على هامش التعليم الأسبانى ، وهذه الوضعية الإدارية هى التى جعلت التعليم المغربى يسفل إلى الحالة التى وصل إليها من الضعف والإهمال) .

ثم استمرت المذكرة في تحليل السياسة التي تسير عليها النيابة في محاربة الثقافة العربية والتقاليد الإسلامية في مراکش ، مستدلة على ذلك بالإحصاءات والوقائع الرسمية .

تلك هي الأهداف التي ترى إليها السياسة الإسبانية في المغرب العربي وبعض الوسائل التي تعتمد عليها ، ويحسن بنا قبل أن نختم هذا الفصل أن نشير إلى أن سياسة التملق للعرب لم تكن مطلقا من الوسائل التي اصطنعتها إسبانيا داخل المغرب .

ومن الغريب أن الأسبان يميلون إلى اصطناع هذه السياسة في بلدان الشرق العربي لاستغلال ما يدعى بملاقات تاريخية ، وذلك لغرضين . أولهما استعطاف دول الجامعة العربية للاستفادة من مركزها في العالم الدولي ، وعلى الخصوص في هذه الظروف التي توجد فيها إسبانيا في شبه عزلة دولية ، وثانيهما صرف نظر دول الجامعة العربية عن السياسة الاستعمارية التي تسير عليها إسبانيا في المغرب العربي .

« محمد بن عبود »

الحركات الاستقلالية في المغرب العربي

لأستاذ عمول الفاسي

لم يسجل التاريخ صفحة من صفحات الكفاح القومي أنصع ولا أقوى من كفاح شعوب المغرب العربي في سبيل الدفاع عن حريتها واستقلالها ، ومقاومة الاعتداءات الاستعمارية التي دبرتها ضدها أم لا تينية مدفوعة بتمصّبها الديني وشرها للسيطرة واستعباد الغير .

ولئن كان المغرب العربي ما يزال حتى الآن يرزح تحت ثقل الاستعمار الأجنبي فليس ذلك إلا لأن هذه الأمم اللاتينية تعاند كل العناد في الاعتراف بالحق ، وتأبى أن تتقهقر أمام القوات التحريرية ما دامت تجسد من غفلة الإنسانية وتغاضي التمديفين ما يفسح لها مجال الاتحاد المؤقت للثورات التي ظلت أفريقية الشمالية مسرحا لها منذ مائة وسبع عشرة سنة .

وإذا كان تغفل الاستعمار الفرنسي في الجزائر هو الذي مهد السبيل لتحقيق المطامع الأجنبية في الشرق العربي فإنه لا يمكن أن يطمئن عرب المشرق على ديارهم وأمنهم ما دامت أمم المغرب العربي خاضعة للمستعمرين ، وما دامت ديارهم قنطرة يمكن أن يجتازها الفاتحون ليصلوا إلى أهدافهم في هذا السد الإسلامي الذي حكم أسلافنا العرب في مصير العالم كله .

لذلك تعتبر الحركات الاستقلالية المغربية ذات أهمية عظيمة لا المغاربة وحدهم بل لسائر العالم العربي الذي ينشد الاستقرار والطمأنينة والعدل والحرية . ويحق للعرب في سائر الدنيا أن يعنوا بهذه الحركات ويؤيدوها عنايتهم بالحركات المشرقية ، خصوصا وأن القاعين بها معرضون أكثر من غيرهم لعجرفة الأجنبي وغطرسته وللسائسه ومكره لاسيما بعد ما جربه المستعمرون من دهاء العرب وحسن تدبيرهم في الأفطار العربية التي حصلت على قسط لا يستهان به من الاستقلال .

اعتدت فرنسا على الجزائر في وقت كانت السيادة فيها للدولة العثمانية التي لم تستطع من المقاومة إلا قليلا ، ولما استسلم الولاة الأتراك في الجزائر حتى بدأت المقاومة العربية التي افتتحها وصول الجيش المراكشي في أكتوبر سنة ١٨٣٠ لمدينة تلمسان ، حيث استطاع

نائب سلطان المغرب القائد أبو الحسن أن يؤلب قبائل الناحية من حوله ويسير بهم لمقاومة
الفتح الفرنسي والاستسلام التركي ، ثم انضم إليهم الأمير محي الدين عبيد القادر البعلل
الجزائري الشهير ، فكان له فضل تأسيس المملكة الجزائرية العربية المستقلة .

استمر الأمير الجزائري يدافع عن استقلال مملكته الفتية المستقلة ستة عشر عاما كاملة
انتهت بانقصار القوة الغاشمة على الحق . وكانت السلطة الفرنسية تغرس خلالها نفوذها في
داخل البلاد ، ولكن لزرع في نفوس الأهالي روح الثورة الدائمة التي ظل الضغط يحمدها
أحيانا ، ولكن الطموح للتحرر يبعثها لتعلن حكم الشعب الجزائري الذي لا يرضى بغير
الاستقلال بديلا .

وقد رمت سياسة نابليون إلى التوفيق بين مصالح الأهالي ومصالح فرنسا وذلك بإعلان
المساواة التامة بين العرب وبين الفرنسيين ، ولكن ذلك هاج هؤلاء الأخيرين الذين قاوموا
كل عدل وانصاف للعرب . وما سقطت الإمبراطورية سنة ١٨٧٠ حتى تقدم « غامبتا »
رب الجمهورية الثالثة بإعلان قانون (الأنديجينا) وتأسيس مبدأ الاستثناءات التشريعية .

ويعتبر هذا التحول في السياسة الجزائرية فاتحة عهد الاستعباد الغاشم والاضطهاد الماكر
في الجزائر ، أي في شمال أفريقيا كلها ، لأن الجزائر كانت المدرسة التي أخرجت أساندة العنصرية
الاستعمارية الفرنسية .

وإزاء هذه التدابير الظالمة التي تبعثها سلسلة من الاضطهاد الديني والعنصري ثارت
الجزائر مرة أخرى ثورة اندلع لهيبها في بلاد زواوة ومقاطعة قسنطينة وعمالة الجزائر . وكان
يتزعم الثورة الباش أغا الحاج محمد القراني والشيخ محمد الحداد شيخ الطريقة الرحمانية الدرقاوية .
واستمرت هذه الثورة الاستقلالية ستة أشهر كاملة كلفت عرب الجزائر ما لا يقل عن
ستين ألف شهيد وكلفت الفرنسيين عشرين ألف قتيل ، ولم تخمد إلا بعد أن أطلق بشارك
سراح الجيش الفرنسي الذي كان معتقلا في ألمانيا (بعد حرب السبعين) .

وبعد أن نجح الجيش الفرنسي في إخماد هذه الثورة حكم على ستة آلاف من رجالها
بالإعدام ، وأقصى من زعمائها أبا مزارق والشيخ الحداد وابنيه عزيزاً ومحمداً ومهمهم خمسمائة من
أعيان الثوار إلى جزيرة كاليدونيا الجديدة في المحيط الهادي ، واستمروا في هذا المنفى القصي
إلى أن ماتوا جميعا . وحكم على الجزائر نفسها بغرامة قدرها ستة وثلاثون مليوناً من فرنك
ذلك الوقت ، ولم تجز القبائل عن دفعها قررت الحكومة مصادرة أملاكهم وإجلاءهم
عنها وإحلال مهاجري الأتراك والاورين فيها .

ولكن أثر هذه كان عظيما في تقوية الوعي القومي في نفوس الجزائريين ولم تلبث إلا قليلا حتى أعقبتها ثورة استقلالية كبيرة في عمالة وهران بزعامة الباش أغاسليان بن حمزة قائد (أولاد سيدى الشيخ) واستمرت هذه الثورة خمس سنوات كاملة بدون انقطاع .

وفي سنة ١٨٨٢ قامت ثورة القبائل الوهرانية بزعامة الشيخ أبى عمامة المراكشى ، واستمرت إلى سنة ١٨٨٥ .

وإلى جانب هذه الثورات المسلحة كان العمل السيامى يقوم بدعاية واسعة النطاق داخل الجزائر وخارجها ، ولكن الأقاليم الجزائرية لم تتحرك بصفة منتظمة إلا منذ سنة ١٩١٠ ، حيث تكون الرعيل الأول من المثقفين المصريين وتأسست لجنة وطنية بزعامة أبى دربة أول محام جزائرى (تخرج بعد مضى ٧٥ سنة على الحكم الفرنسى فى الجزائر) ومساعدة الصحافى السيد صادق دندان والنائب السالى الحاج عمار ، وكانت غاية اللجنة العمل على تحقيق الجامعة الاسلامية ولذلك ارتبطت بالحركات التحريرية القائمة فى الممالك العثمانية إذ ذاك .

وقامت أثناء الحرب الكبرى حركات ترمى لمنع الجيش من المحاربة إلى جانب فرنسا ، ففر من الجندية آلاف ، والتجأ من الشباب القادر على القتال بشواحق البلاد الجزائرية زهاء المائة والعشرين ألفا ، وقامت مظاهرات عديدة تطالب بالانفصال عن فرنسا ، وفر الجانب الدولة العثمانية التى أعلنت الجهاد القدس فرقة الضابط الحاج محمد بوكاية برمتها ، فاضطر المسيو بريان إلى إعلان ضرورة القيام باصلاحات عملية فى الجزائر .

ولما انتهت الحرب الكبرى تكون وفد جزائرى برئاسة الأمير خالد ، وقدم للرئيس ولسن مذكرة يطالب فيها بتطبيق المبادئ الولسنية على الجزائر وتكونت حول الأمير خالد أثناء مقامه بفرنسا حركة مغربية أدت إلى عقد مؤتمر مغربى فى أواخر سنة ١٩٢٤ قرر العمل على تحرير الشمال الأفريقى ، وبعث برقيات تضامن لمصر والشام ومراكش تحمى الحركات التحريرية القائمة إذ ذاك ، وتدعو لضرورة تنسيق العمل وتوحيد الصفوف العربية للكفاح من أجل التحرر والوحدة .

ثم اصطبغت هذه الحركة بصبغة مجهود إسماعى نقابى فى دائرة جمعية النجم الأفريقى التى ترأسها صديقنا مصالى الحاج وكان لها فضل حشد الطبقة العاملة من أبناء المغرب العربى فى فرنسا . وقد تطورت هذه الجمعية إلى حزب يطالب بحرية الجزائر ويكافح من أجل استقلالها . وبينما كانت هذه الجمعية تقوم بعملها السياسى المنتظم كانت جمعية العلماء المسلمين

برئاسة الشيخ ابن باديس تعمل على تثقيف الشعب وتنويره وبعث الروح العربي الإسلامي في نفوس أبنائه .

والتقى المجهودان معا بعد أن أعلن الشعب الجزائري رفضه لسياسة جبهة المؤتمر التي كانت ترى تجنيس الجزائر بالجنسية الفرنسية كوسيلة لاستقلالها . فقد أعلن ابن باديس في مجلة الشهاب لسان حال جمعية العلماء أن الجزائر بلاد غير فرنسا ولا يمكن أن تصبح هي فرنسا . بينما أسس مصالي الحاج حزب الشعب الجزائري الذي حشد الشعب كله للمطالبة باستقلال المغرب الأوسط وانفصاله عن فرنسا .

ويمتاز زعيم حزب الشعب بكونه من أبناء الشعب ، فقد نبغ من بين العمال الجزائريين وأحسن بآلامهم وتجرع غصص المعاملة السيئة التي يعامل بها الفرنسيون إخوانه الجزائريين ، لمسه في نفسه كما أحسها في إخوانه ، فكان له فضل الدعوة لتجمع القوة الجزائرية التي لم تضعف والانتباه إلى أن خير وسيلة لخلاص الجزائر هي في توحيد صفوفها مع إخوانها المغاربة والعرب لتحرير المغرب العربي من السيطرة الأجنبية . وسوف يأتي اليوم الذي يعترف فيه التاريخ بالقيمة الحقيقية لهذا البطل الذي بعث الشعب من مرقدته ، وقلب وجهته للطريق المستقيمة التي كان بعض البله يحاولون بينه وبين السير فيها .

أما مطالب الشعب الجزائري فهي مطالب التونسيين والمغاربة : الاستقلال التام والانضمام إلى الجامعة العربية ، والبعث الروحي والاجتماعي للشعب المغربي . وأما التضحيات التي تكبدها حزب الشعب ورجاله فتهفوف ما تكبده غيرهم من المجاهدين الجزائريين ومع ذلك فإن شجاعتهم وثباتهم وصمودهم أمام المستعمر لا يجازيه إلا أن نعمل جميعا لتحقيق أمانتهم في تحرير الجزائر العربية .

وطبى أن تطمح فرنسا لبسط نفوذها على تونس ومراكش بعد أن تم لها فصلهما عن بعضهما باحتلال الجزائر . وقد قاومت تونس مقاومة دبلوماسية استمرت خمسين سنة ثم هاجتها القوات الفرنسية فاستبسل أبنائها في الدفاع عن بلادهم ، ولما احتل الجيش الفرنسي سائر مناطق القطر التونسي ، التجأ فريق من الشعب إلى طرابلس ، حيث استمر في تنظيم حرب عصابات بالجنوب التونسي حتى سنة ١٨٨٨ ، أي بعد أن تنازلت تركيا عن حقوقها في تونس واسكن ذلك لم يحمل التونسيين يقبلون الحماية أو ينسبون الاستقلال . وابتدأ عهد تكوين الحركات السياسية بمحاولات عديدة ، أهمها جماعة الحاضرة التي تأسست سنة ١٩٠٥ من الطلبة الذين

سبق أن أوفدتهم الحكومة التونسية قبل الحماية للدراسة في أوروبا ورجعوا إلى البلاد بعد إعلان الحماية عليها .

قامت هذه الكتلة بزعامه رئيسها السيد علي أبي شوشة صاحب جريدة الحاضرة بحركة قومية ودينية كانت تتغذى بالروح الواردة عليها من مصر كصدي للدعاية التي قام بها جمال الدين ومحمد عبده وتقتدى بالحركة الوطنية التي أوقد لهيها الزعيم الشاب مصطفى كامل . وكان لهذه الجماعة اتصال وثيق بالحركة الدستورية المراكشية التي كانت تنشر مقالات ضافية في جريدة الحاضرة بعد الاتفاق الودي الفرنسي الانجليزي سنة ١٩٠٤ .

وأعقبت هذه الحركة حركة أقوى وأكثر تنظيماً هي حركة تونس الفتاة التي كان يزعّمها علي باش حبه والتي كانت تحذو حذو تركيا الفتاة .

استمر هذا الحزب يعمل لتأليب الرأي العام التونسي ضد الفرنسيين واتصل بسائر الحركات القائمة في العالم الإسلامي وكانت له يد كبرى في توطيد النفوذ العثماني المعنوي في تونس والجزائر ، ولم يزل كفاحه يملو وينخفض حتى وقعت كارثة الجلاز سنة ١٩١١ حيث أضرب عمال الترام أمداً طويلاً ووقع صدام عنيف بين التونسيين والجالية الإيطالية كبداً الطرفين عديداً من القتلى والجرحى فاغتم المقيم العام الفرنسي مسيو أ . لابتيت الذي كان من أهم المستعمرين الفرنسيين هذه الفرصة واعتقل زعماء الوطنيين علي باش حبه وأخاه محمداً وعبد العزيز الثعالبي وعبد الجليل الزاوش والبشير الصفر وحل حزب تونس الفتاة .

وقد أبعد علي باش حبه والثعالبي للخارج فسافر الثاني للشرق ثم عاد إلى تونس . وأما الأول فالتجأ إلى الإستانة حيث تولى رئاسة التشكيلات مدة الحرب الكبرى وكانت له يد طويلة في الدعاية للعثمانيين وتنسيق حركات المؤتمر الإسلامي الذي تجول رجاله في أوروبا المحاربة يطالبون بتحرير الشمال الأفريقي والقضاء على مبدأ الاستعمار من أصله .

ويعتبر علي باش حبه أبغ شخصية أنجبت تونس في تاريخها الحديث .

ولما انتهت الحرب الكبرى تشكل وفد برئاسة الثعالبي فسافر لفرنسا وقدم مذكرة للرئيس وأسند مطالب فيها باستقلال تونس ، وأثناء مقامه بفرنسا أصدر كتابه تونس الشهيدة الذي كان له صدى كبير في الأوساط اليسارية في فرنسا والخارج .

أما في داخل تونس فقد اتصل أنصار الثعالبي بسمو الباي وطلبوا منه منح البلاد نظاماً دستورياً فوعدهم صموه بتحقيق رغبتهم ، وإزاء هذا الوعد الصريح قرروا تأسيس حزب جديد

أطلقوا عليه اسم الحزب الحر الدستوري التونسي ، وقد عبروا عن غايتهم من تأسيس هذا الحزب في البيان الذي أذاعوه على الشعب والذي جاء فيه : « الغاية من تأسيس هذا الحزب هي تبليغ الوطن رشده وتحريره من الاستعباد ، كي يصبح الشعب التونسي حراً متمتعاً بكامل الحقوق التي تتمتع بها الشعوب الحرة . وهو يريد أن يصل لهذه الغاية عن طريق التحقيق العاجل لنظام دستوري يسمح لهذا الشعب بحكم نفسه بنفسه وفقاً للأسس التي يسير عليها كل العالم المتمدنين » .

وقد ترأس الثعالبي هذا الحزب بعد رجوعه ، وقام بنشر دعوته وتشكيل شعبه وهيئته في سائر القطر فاضطرت الحكومة الفرنسية إلى إحداث تغيير موقت في سياستها وذلك بإعفاء المقيم فلان دان وتعيين مسيو لوسيان سان خلفاً عنه .

وما وصل المقيم الجديد يوم ٦ يونية سنة ١٩٢١ حتى تقدم لمقابلته وقد عرف بعد وفد الأربعين ، فأكد له المقيم العام عدم استعداده للتفاهم مع الوطنيين على غير ما يرجع للإصلاحات الداخلية لأن تغيير النظام التونسي من اختصاص الحكومة الفرنسية نفسها ، ثم توجه الوفد لمقابلة سمو الباي الناصر الذي أعلن تضامنه مع الشعب في مطالبه واستعداد جلالاته فيما يخصه للمصادقة على تكوين حكومة دستورية . وقد وقعت مشادة كبيرة بين الناصر باي وبين الإقامة العامة لم تنفج إلا بعد موت الناصر في ظروف مشبوهة ؛ حينئذ سافر الثعالبي سنة ١٩٢٣ للشرق حيث قام بتمثيل بلاده أصدق تمثيل وشارك في كثير من المؤتمرات الإسلامية والعربية بمصر والشام والعراق وفلسطين والهند ، ولم يرجع إلى وطنه إلا سنة ١٩٢٦ . واستمرت الحركة بعده تحت إشراف اللجنة التنفيذية التي واصلت كفاحها وفق ما كانت تسمح به ظروف الضغط والإرهاق ، وكان من أهم ما أشرفت عليه إعداد الشباب التونسي الذي تقدم للميدان للخطو بالحركة الدستورية خطوة واسعة إلى الأمام .

وقد اشتركت الأجيال التونسية كلها في مقاومة المحاولات التي بذلها الفرنسيون لفرض تونس عن طريق التمسيح أو طريق التجنيس .

وفي مؤتمر قصر الهلال ولد يوم ٢ مارس ١٩٣٤ حزب الدستور التونسي الجديد برئاسة الدكتور الماطري وانتخب السيد الحبيب أبو رقية أميناً للدewan السياسي الذي لم يكن يختلف في مبادئه وأهدافه عن اللجنة التنفيذية التي استمرت تمثل الدستور القديم بإمامة السيد الطاهر الصافي والمصالح فرحات ومحيي الدين القليلي

واستمر الكفاح الدستورى متواصلا منذ سنة ١٩٣٨ إلى أثناء الحرب حيث اعتقل زعماءه مراراً وسجن أنصاره وحكم بالإعدام على الكثير من أفرادهم .

ولما ارتقى محمد النصف بن الناصر عرش أسلافه الكرام فى أغسطس سنة ١٩٤٢ . نشط الحركة التونسية وقرب إليه رجالها وطالب الحكومة الفرنسية بتحقيق آمال الشعب التونسى ولكن موقفه وكفاحه هالا الفرنسيين ، فتولى الجنرال جيرو بمجرد ما نزل الحلفاء بتونس أقصاءه عن العرش وإبعاده إلى منفى بفرنسا حيث ما يزال يعاني إرهاب الفرنسيين وسوء معاملتهم له .

وفى أثناء الحرب الأخيرة تكونت حول الديوان السياسى الموقت الذى كان يرأسه الدكتور الحبيب نامر حركة فدائية مهمة ، وقد حكم بالإعدام على الدكتور نامر وثلة من رفقاءه ونفذ الحكم فى بعضهم بينما نجح الآخرون فى اللجوء إلى مصر والشام حيث التحقوا بالزعيم أبى رقية لمواصلة العمل فى ظل الجامعة العربية .

ولما ألفت الحرب الأخيرة أوزارها عقد المكافحون التونسيون مؤتمراً عاما شاركت فيه اللجنة التنفيذية باسم الدستور القديم والديوان السياسى باسم الدستور الجديد والاتحاد النقابى التونسى العام ، وأساتذة جامع الزيتونة واتحاد الموظفين التونسيين ، وشخصيات تونسية مستقلة وبعد أن أستمع المؤتمر الحالة ودرس الاعتبارات القائمة صرح :

١ — « بأن الحماية نظام سياسى واقتصادى يتناقض مطلقاً مع حقوق السيادة ومع مصالح الشعب التونسى الضرورية فى الوقت الذى لم يقم فيه بأية مهمة تمدنية كما يدعى » .

٢ — « وأكد أنه تبين بعد تجربة سبع وستين سنة فشل هذا النظام بما قام عليه من استغلال الإنسان لأخيه الإنسان » .

٣ — « وأعلن أن الاستقلال الماثل الكامل من غير قيد ولا شرط هو النظام الوحيد الذى يمكن أن يصلح غلطات الماضى ويحمى مصير شعب رشيد » .

٤ — « كما أعلن حق الشعب التونسى الذى لا يزول فى أن يستعيد استقلاله وحرية » .

وظلت مراكش تقاوم التهاافت الاستعمارى عليها منذ احتلال الجزائر إلى سنة ١٩١٢ ، حيث فرض عليها عقد الحماية الذى أدى إلى تقسيمها إلى ست مناطق :

١ — منطقة موريطانيا أو أقصى الجنوب المراكشي التي اقتطعت من البلاد تماما وألحقت بأفريقيا الغربية الفرنسية .

٢ — ومنطقة الحماية الإسبانية .

٣ — ومنطقة الحماية الفرنسية .

٤ — ومنطقة طنجة الدولية .

٥ — ومنطقة موريطانيا الإسبانية .

٦ — ومنطقة المقتطعات التي ألحقها السلطة الفرنسية بالجزائر .

حينئذ دخلت المقاومة المراكشية في طور الدفاع المسلح عن وحدة التراب المغربي واستقلاله ، ولم يستول الفرنسيون والأسبان على أهم المدن المراكشية إلا بعد قتال عنيف استمر ثلاثة أعوام كاملة ثم أعلنت الحرب الكبرى ، والمغرب كله — باستثناء بعض الشواطئ — في ثورة عنيفة على الأجنبي ، وكانت مناطق الثورة منقسمة إلى أربعة أقسام :

(١) جهالة والريف .

(٢) مركز الأطلس المتوسط .

(٣) الأطلس الكبير بجنوب المغرب .

(٤) تافيلالت وآيت عطا بالجنوب المغربي أيضا .

وقد استمر الكفاح في هذه المناطق كلها ثلث قرن كامل من غير انقطاع ، وضرب المراكشيون في الدفاع عن استقلالهم من أنواع البطولة والشجاعة ما شهد به الجميع ، وظلت الحرب الريفية مثالا يحتذى في البلاد العربية وغيرها . وظل اسم الأبطال المغاربة وفي مقدمتهم أسد الريف محمد بن عبد الكريم الخطابي رمزا للمقاومة القومية المستميتة التي يتأسى بها النكوبون في كل جهات الأرض .

وقد كان لهذه المقاومة المسلحة فضل في توحيد البلاد المغربية معنويا ، والقضاء على روح القبلية التي عمل الأجانب على بثها من مرقدتها وتشجيعها بما سنوه من سياسة القواد الكبار وما أسسوه من نظام الإقطاعية الجديدة الذي لم تعرفه مراكش من قبل .

وكان للحرب الريفية بصفة خاصة فضل بث ثقة الأمة بنفسها ، إذ ما كان المغاربة يمتدنون أن لهم من القوة الروحية ما يستطيعون به هزم دولتين عظيمتين في عدة مواقع كبيرة ، وبذلك فإن نهاية حرب الريف وضياع النصر العسكري لم يفت في عهد المراكشين ولم يبعث في نفوسهم اليأس الذي كان ينتظره خصمهم .

وإذا كان العهد الذى يفصل بين ١٩١٢ و ١٩٣٠ يمتاز بالمقاومة العسكرية ، فإن الحركة السياسية ظلت موازية للعمل العسكرى تؤيده وتمضده خصوصا أثناء الحرب الكبرى ، حيث التجأ عديد من المغاربة من بينهم السيد أحمد العتابى للأستانة ، وانضموا للمؤتمر الاسلامى الذى كان يجمع كثيرا من المجاهدين أمثال الأمير شكيب أرسلان ومحمد فريد وعلى باش حجة . وقد بذلوا جهدا كبيرا لإقناع الدول المحايدة كالسويد والنرويج وغيرها بالاعتراف باستقلال المغرب وتأييد رجاله . كما كانت الحركة السلفية فى الأوساط الجامعية تعمل عملها لتنوير الأذهان ، ومقاومة بعض المتصوفة الذين انضموا للأجنبي يؤيدونه باسم الدين ، والدين من أعمالهم براء . وما كاد عهد المقاومة المسلحة ينتهى حتى برزت الحركة الوطنية السائدة اليوم فى شكل الاحتجاج على السياسة البربرية التى كان ظهير ١٦ مايو سنة ١٩٣٠ أكبر مظاهرها .

كان لقيام هذه الحركة المفاجئ اندهاش عظيم فى الأوساط الاستعمارية الفرنسية خصوصا وقد استطاعت أن تلف من حولها بسرعة فائقة الشعب كله فى سائر المناطق المراكشية ، وقد أظهر فيها الشعب المجاهد من التضحية والفداء ما لا يقل عما عرف عنه فى أوقات الكفاح العسكرى ، وكان لهذه الحركة صداها فى العالم الاسلامى كله حيث قدم المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها احتجاجاتهم على سلوكها أزاء الإسلام فى المغرب ، وتأسست فى مصر وسوريا والعراق والهند وأندونيسيا لجان للمحافظة على إسلام البربر ، وتأكدت بذلك وبالجهودات التى بذلها الحاج الحسن أبو عياد بمصر روابط الحركة المغربية بالحركات العربية والاسلامية فى المشرق . وتأسست منذ ذلك العهد كتلة العمل الوطنى التى تعتبر أول حزب سياسى بالمعنى الحديث أسس فى مراکش بعد الحماية .

وفى سنة ١٩٣٣ وضعت الكتلة برنامج الإصلاحات المغربية ، وهو عبارة عن كراسة تحتوى على سائر ما يتوقف عليه المغرب من إصلاحات لينهض ، وقد قدم للحكومة الفرنسية ولجلالة الملك وأيده الشعب بمظاهرات عديدة انتهت بالاعتقال المتكرر للزعماء وأنصارهم . وفى سنة ١٩٣٦ عقدت الكتلة مؤتمرا فوق العادة قررت فيه قاعة المطالب المستعجلة التى يجب على إدارة الحماية تنفيذها حالا ، وكلها راجعة للحريات الديمقراطية والإصلاح الاقتصادى والاجتماعى وضمان حقوق الفرد والجماعة ، وتحسين حالة الفلاح والصانع والعامل . وقد وقع اسطدام عنيف بين الكتلة والحماية أدى لاعتقال علال الفاسى ومحمد الزبيدى ومحمد الوزانى ، فأعلنت البلاد كلها تضامنها مع رجال الكتلة وقامت مظاهرات عديدة بفاس

ومراكش والرباط والبيضاء ذهب ضحيتها كثير من القتلى والجرحى كما اعتقل أثناءها آلاف من الوطنيين المراكشيين .

وحينما قامت الثورة الأسبانية بزعامة فرانكو بالمنطقة الخليفية ، وسدت الحدود بين شمال البلاد وجنوبها ، تقرر أن تنقلب كتلة الشمال التي توفى زعيمها الحاج عبد السلام بنونة إلى حزب يعمل حسب الخطة التي تقتضيها ظروف المنطقة الخليفية إذ ذاك ، فتأسس حزب الإصلاح الوطني برئاسة الأستاذ عبد الخالق الطريس . وفي الوقت نفسه نظمت كتلة العمل في المنطقة السلطانية نفسها ، وفتحت مركزها العام برئاسة علال الفاسي ، ولكن إقبال المنخرطين على الكتلة هاج السلطات الفرنسية ، فأفقت دارها واعتقلت كثيرا من أنصارها غير أن ذلك لم يفت في عضدنا ، ولم يمض شهر كامل حتى كنا قد أعدنا فتح المركز العام والتشكيلات التابعة له باسم الحزب الوطني . سار الحزب الوطني ببذل الجهود الجبارة لخدمة القضية المغربية ، وتنظيم الجمهور المراكشي ، ولكن اضطهاد السلطة لأنصاره وبطشها برجاله أدى به إلى عقد مؤتمر عام انتهى بإعلان الميثاق الوطني الذي يقضى بالمعارضة الكاملة للإقامة العامة وعدم التعاون مع الحكومة مادام النظام الاستعماري قائما .

وعلى أثر إعلان هذا الميثاق اعتقل رئيس الحزب الوطني علال الفاسي ونفى للجبابون بأفريقيا الاستوائية الفرنسية ، كما نفى عمر عبد الجليل ومحمد اليزيدي وأحمد مكوار ومحمد الوزاني لمختلف مراكز الصحراء المراكشية .

وقد ثار الشعب ثورة عنيفة استمرت شهرا كاملا واستعمل لقمعها الجيش الفرنسي حربه في ضرب العزل من السلاح وقتيلهم واضطهاد المعتقلين منهم .

واستمرت الحركة سائرة سيرها الطبيعي متعاضة مع حزب الإصلاح ، ومؤيدة بحركة الوحدة المغربية التي أسسها الأستاذ المكي الناصري .

وفي يناير سنة ١٩٤٤ قرر الحزب الوطني أن يدعو لمؤتمر عام تشترك فيه سائر الهيئات القومية في البلاد ، فانهقد المؤتمر وقرر تأسيس حزب الاستقلال من الحزب الوطني وغيره من الهيئات والشخصيات المعروفة في المنطقة السلطانية .

وفي ١١ يناير سنة ١٩٤٤ قدم الحزب الجديد ميثاق الاستقلال جلالة الملك ومثلي الدول الأجنبية في المغرب ويشتمل الميثاق على :

١ - إعلان الاستقلال والوحدة الترابية لجميع مناطق مراكش .

٢ — المطالبة بتكوين نظام ديمقراطى شبيه بالأنظمة التى اتبعتها مختلف الحكومات الإسلامية.

وقد أبلغ جلالة الملك الميثاق رسمياً للحكومة الفرنسية بعد ما عقد مؤتمراً عاماً لممثلى السلطة المغربية فأقروه ، وأعطاه مولانا الملك بتأييده قوة الحق الذى لأشك فيه . ثم أخذت وفود الشعب المغربى من النساء والرجال تنهال على القصر الملكى (طيلة أسبوع التضامن) معلنة تأييدها لجلالة الملك ولميثاق الاستقلال ، وأعقب ذلك قمع عنيف لم يتقدم له مثيل فى البلاد .

وكان لإطلاق الرعاء المبعدين سنة ١٩٤٦ أثر فعال فى تغذية الحركة الاستقلالية التى خطت خطى فسيحة إلى الأمام وقد التف الرعاء كلهم حول جلالة الملك الذى ما انفك يوالى جهوده لإنقاذ البلاد وتحريرها .

وفى أثناء الزيارة الملكية لمدينة طنجة فى شهر أبريل سنة ١٩٤٧ أعلن الملك أمام ممثلى الأحزاب المغربية وجمهور الشعب أن مطالب مراكش هى نفس المطالب العربية ، وأن مصير المغرب العربى مرتبط بمصير المشرق العربى وفوز الجامعة العربية .

أما الكفاح الذى يبذله رجال الحركات الاستقلالية فى المغرب العربى فينقسم إلى نوعين :
١ — مقاومة المحتل الفرنسى والأسبانى والعمل على تحرير المغرب من احتلالهما البغيض وتمتعه بالاستقلال التام فى دائرة الجامعة العربية .

٢ — القيام بمجهودات جبارة لتحسين حالة المغاربة والنهوض بهم .
وفى كل من الجبهتين تقوم الأحزاب المغربية بأعمال جليلة توشك أن تؤتى ثمرها بإذن الله .

ومن مزايا الحركات الاستقلالية المغربية أنها شعرت بضرورة التضامن بينها مع تعدد أقاليمها فبذلت مختلف الوسائل لتنسيق أعمالها وتوحيد اتجاهاتها وانتهت إلى عقد مؤتمر المغرب العربى بالقاهرة فى فبراير سنة ١٩٤٧ ، وقد قرر هذا المؤتمر توحيد المكاتب المغربية فى الشرق ضمن مكتب المغرب العربى وتأسيس لجنة تنسيق عليها لحركات الشمال الأفرىقى .

ولما التجأ سمو الأمير محمد بن عبد الكريم إلى حى الفاروق العظيم واستقر بالقاهرة كان أول عمل قام به هو دعوة الرعاء المغاربة للالتفاف من حوله ، وقد تحقق بفضل ما أمله المؤتمر فتأسست لجنة تحرير المغرب العربى برئاسة الدائمة .

ويتضمن ميثاق اللجنة المبادئ التالية :

- (أ) المغرب العربي للإسلام كان وللإسلام عاش وعلى الإسلام سيسير في حياته المستقبلية
- (ب) المغرب جزء لا يتجزأ من بلاد العرب وتعاونته في دائرة الجامعة العربية على قدم المساواة مع بقية الأقطار العربية أمر طبعى ولازم .
- (ح) الاستقلال اللازم للمغرب العربي هو الاستقلال التام لكافة أقطاره الثلاثة تونس والجزائر ومراكش .
- (د) لا غاية يسعى إليها قبل الاستقلال .
- (هـ) لا مفاوضة مع المستعمر في الجزئيات ضمن النظام الحاضر .
- (و) لا مفاوضة إلا بعد إعلان الاستقلال .
- (ز) للأحزاب الأعضاء في لجنة تحرير المغرب العربي أن تدخل في مفاوضات مع ممثلى الحكومة الفرنسية والأسبانية ، على شرط أن تطلع اللجنة على سير مراحل هذه المفاوضات أولا بأول .
- (ح) حصول قطر من الأقطار الثلاثة على استقلاله التام لا يسقط عن اللجنة واجبها في مواصلة الكفاح لتحرير البقية .
- وعلى ضوء هذه المبادئ تسير لجنة التحرير في توجيه الحركات الاستقلالية المغربية مستمدة قوتها من الأحزاب الممثلة فيها ومن شخصية رئيسها بطل الريف العظيم .
- وإن في وجود هذه اللجنة بالقاهرة التي هي عاصمة الجامعة العربية أكبر دليل على ما يعلقه المغاربة من آمال على هذه الجامعة الخطيرة وما يحملونه بين جوانحهم من تمسك بمبادئ الوحدة العربية وتضامن بين شعوب العرب . ولقد ظهر التضامن عظيما بين جناحي النسر العربي في قضية الحرب التحريرية التي دخلتها الجامعة العربية لإنقاذ فلسطين المقدسة . ونحن لا نشك في أن هذا التضامن سيستمر كل يوم في ازدياد حتى يتم تحرير العالم العربي ورمته ويسير العرب إخوانا متحدين للمعمل على خير الإنسانية وإسماء الناس .

عزل القاسي

الأمين العام للجنة تحرير المغرب العربي

ماذا ينبغي أنه يكونه موقف العالم العربي

إزاء الفلسفة العربية والفلسفة الغربية

للمركنور محمد صليبا

١ - لمحة تاريخية

لما اتسع سلطان العرب في عهد العباسيين ، وانتشرت في الدولة الإسلامية ديانات ومذاهب مختلفة تحاول أن تثبت دعوتها ، اضطار الخلفاء إلى التنكيل بالملحدين ، وحث العلماء على وضع الكتب في الرد على المجوس والدهرية . وكان من أثر هذه السياسة أن تشوق العلماء إلى الإطلاع على العلوم الفلسفية التي كانت نافقة الأسواق في بلاد الروم ، فبدأوا بترجمة كتب الحكمة في عهد أبي جعفر المنصور ، ثم جاء المأمون بعد ذلك ، وكانت له في هذه العلوم رغبة شديدة ، فأوفد الرسل إلى بلاد الروم لاستخراج علوم اليونانيين ، ثم حمل المترجمين على نقلها إلى اللغة العربية ، فنقلوا كتب (أفلاطون) و (أرسطو) و (تيوفرسطس) و (جالينوس) و (فرفوريوس) و شروح الاسكندر الأفروديسي ، وبعض كتب (أمونيوس) و (نامسطيوس) و (أفلوطين) وغيرها ، كما ترجموا أيضاً بعض الكتب عن السريانية والفارسية والهندية . ويكفي أن ينظر المرء في فهارس الكتب القديمة كـ فهرست ابن النديم أو كشف الظنون للحاج خليفة ليقف على حقيقة هذه الحركة العلمية الواسعة النطاق . فقد بدأت الترجمة بكتاب في الكيمياء أمر بنقله إلى العربية خالد بن يزيد بن معاوية ، وبلغت في عهد المأمون درجة ليس فوقها زيادة لمستزيد . ولم يحض على نقل العلوم الفلسفية إلى اللغة العربية إلا القليل حتى عكف العرب على شرح معانيها والنسج على منوالها ، فابعدوا لأنفسهم فلسفة خاصة مقيدة بمقائدهم الدينية وحاجاتهم الاجتماعية والسياسية ، ثم نقلت هذه الفلسفة إلى الغرب وسيطرت على التفكير الأوروبي حتى نهاية القرن الخامس عشر . وهكذا مرّ العرب في تاريخ حضارتهم الفكرية بدورين هما دور النقل والإتباع ، ودور الإنتاج والإبداع .

ولم يكن موقف العرب إزاء الفلسفة اليونانية موقف القابل الذي ينقل ما يصل إليه من

العلوم دون أعمال الروية فيه ، بل كان موقفهم إزاءها موقف الناقد الذي يلتقي من العلوم ما يفهمه ويحتاج إليه في تفكيره . لذلك نقلوا عن اليونانيين كتب الهندسة والطب والمنطق والطبيعات والفلسفة وأعرضوا عن أدب اليونان وأشعارهم وأساطيرهم .

وليس أدل على اختيارهم هذا من موقفهم إزاء فلسفة أفلاطون وأرسطو . فقد كان نصيب العلم الأول من النقل أعظم من حظ أفلاطون ، لا لأن كتبه كانت أعظم انتشاراً وأقرب متناولاً لحسب ، بل لأن العرب وجدوا فيها ما يوافق ميولهم ووزعاتهم من الفنون العقلية والقواعد المنطقية . فأخذوا بها أولاً كما هي ، ثم زادوا عليها وعملوا على التوفيق بينها وبين العقائد الدينية ، ونفقت العلوم الفلسفية في العالم العربي على عهد الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد . إلا أن الدولة العربية لما غلبت على أمرها وتسلمت عليها الأتراك والبرابرة ركبت بها ربح العمران ، واضمحلت منها حرية الفكر ، واتهم الفلاسفة في صدق إيمانهم وصحة عقيدتهم وحاربتهم الخاصة والعامة فالغزالي هدم فلسفة ابن سينا واتهم صاحبها بالكفر والزندقة ، وابن رشد نكب في المغرب وأحرقت كتبه ، حتى قال الحاج أبو الحسين بن جبير فيه وفي نكبته .

نفذ القضاء بأخذ كل مموه متفلسف في دينه متردق

بالنطق اشتغلوا ففيل حقيقة إن البلاء موكل بالنطق

ولا يزال الناس في أيامنا هذه يطلقون كلمة « فلسفة » على الزندقة والتمويه ، أو على الثروة والكلام الفارغ . وربما كان في قول أبي نواس منذ أوائل العصر العباسي :
فقل لمن يدعى في العلم فلسفة حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء

إشارة إلى إبطال الفلسفة واحتقار منتحلها .

نعم إن الفلسفة العربية لم تكن مقصورة على الفلاسفة المشائين ، وإن هنالك طائفة من المتكلمين كالمعتزلة وغيرهم ضربوا في الفلسفة بسهم وافر . ولكن هذه الفرق لم تثبت قواعد الإنتاج الفكري الحر ، ولا وطدت أساسه وأحكمت عقدته إلا برهة وجيزة من الزمان ، فاتبعت طريق الفلسفة المشائية في النمو والاضمحلال . فحينما كانت بضاعة الفلسفة موفورة ، كان علم الكلام نائب الوطائد مشيد الأركان ، ولكن حينما وهت أركان الفلسفة وتضعضت دعائمها انقلبت مباحث علم الكلام إلى اتباع آلى واصطلاحات مدرسية جامدة . ويكفي أن ننظر في كتاب المواقف لمضد الدين الإيجي ونقارن بينه وبين كتب الغزالي وابن سينا للحكم

على تطور الفلسفة العربية . ففي كتاب المواقف علم مقيد واصطلاحات فنية جامدة وقواعد وأحكام ثابتة تريد أن تظهر بمظهر العلم المطلق ، وتتصف بصفة الحقائق الخالدة . وفي كتب الغزالي إلى جانب الضبط والإحكام لطف وروعة يفوح منهما عبر الحرية وشذا العاطفة والإبداع . ومن أراد الاطلاع على الفلسفة العربية الحقيقية ، فليطلبها من كتب ابن سينا والغزالي وابن رشد لا من كتاب المواقف .

إن هذه اللوحة التاريخية السريعة توضح لنا الطريق الذي يجب علينا سلوكه في تحديد موقفنا من الفلسفة العربية والفلسفة الغربية .

٢ — موقفنا إزاء الفلسفة العربية

ماذا ينبغي أن يكون موقفنا إزاء الفلسفة العربية القديمة . هل يجب علينا الأخذ بها كما هي ، أم ينبغي لنا الإعراض عنها والاتجاه نحو الفلسفة الغربية الحديثة ؟

لا شك أن الإعراض عن الفلسفة العربية ليس في مقدورنا . لأن هذه الفلسفة قد داخلت نفوسنا وصبغت أفكارنا وعواطفنا . وهي فلسفة عقلية — توحيدية — روحانية معاً . ومن مبادئها الأساسية أن الحقيقة الدينية لا تختلف عن الحقيقة الفلسفية ، وأن الحكمة هي صاحبة الشريعة والأخت الرضيعة ، ومن نظر في آراء فلاسفة العرب من الفارابي إلى ابن سينا ومن ابن سينا إلى ابن رشد وجد أن التوفيق بين الحكمة والشريعة كان همهم الأول ، حتى أن التأخرين من علمائنا كالأستاذ الإمام محمد عبده لم يخرجوا عن هذا المبدأ في تفسير آيات القرآن الكريم . وجميع ما جاء في الشريعة متفق عندهم مع ما يكشف عنه النظر العقلي : المقول المطابق للمقول ، ولا فرق بين حقيقة وأخرى .

ولا شك أيضاً في أن الأخذ بالفلسفة العربية كما هي لا يتفق مع ما بلغه العلم الحديث من الرق والكمال . ففي الفلسفة العربية أمور كثيرة لا تصلح لتوجيه سلوكنا في المجتمع الحديث : انظر إلى نظرية الفيض التي تخيلها فلاسفة العرب للتوفيق بين الدين والفلسفة . إن هذه النظرية مستندة إلى اعتقادهم أن الأرض هي مركز العالم ، وأن الأفلاك طبقات مختلفة تحيط بالأرض كما تحيط القشرة بالبيضة . ثم انظر إلى نظرية النفس أو نظرية العقل أو نظرية الطبيعة ، إنها مبنية على آراء لا يؤيدها العلم الحديث . إذن لا ينبغي لنا الأخذ بالفلسفة العربية كما هي ، وإنما يجب علينا أن تناولها بالبحث كما تدرس سائر الاتجاهات الفكرية القديمة

لا للاعتماد عليها في توجيه سلوكنا ولكن لاستكمال ثقافتنا الفكرية واطلاعنا على ماضينا وتعرفنا أنفسنا .

فإذا شئنا أن نكون لنا فلسفة عربية حديثة تأتلف وميولنا وحاجتنا الحاضرة ، وجب علينا أولاً دراسة الفلسفة العربية القديمة التي فقدت آثارها دراسة علمية توطن الارتباط بين اتجاهاتنا الفكرية الحديثة وعقربتنا القديمة . إن الحاضر كما قال (لينين) مثقل بالماضي وممتلئ من المستقبل . والأم التي ليس لها ماضٍ ليس لها شخصية كاملة ، ومن أعرض عن دراسة الماضى حرم الاطلاع على أجمل آثار الفكر التي خلفها الأجداد . على أن هذا الالتفات إلى الماضي يجب أن يكون باعثاً على الحركة دون الوقوف ، وعلى التقدم دون الركود . إن كثيرين من الشيوخ الذين يعيشون في الماضي يعجزون عن تفهم الحاضر ومجاراة تطوره ، حتى أن إعجابهم بماضيهم ليلهمهم عن كل مكرمة وبحول بينهم وبين فتح طريق المستقبل . لذلك كله ينبغي أن يكون موقفنا إزاء الفلسفة العربية موقفاً علمياً محضاً . ونعني بهذا الموقف العلمى أن تاريخ الأفكار يجب أن يطلب لذاته لا لغيره وكنوزه . ومتى طلب التاريخ لذاته انكشف هو نفسه عن كثير من العناصر التي توحى إلينا بالأفكار الجديدة ، وتكشف لنا عن كثير من الحلول التي نروم الوصول إليها .

هناك أمران يحددان لنا الموقف العلمى ، الأول : هو التعريف بالفلسفة العربية ، والثانى : هو نقدها وتحليلها .

١ - فالعرب لا يزالون حتى الآن جاهلين بكثير من مسائل الفلسفة العربية . وربما كان بعض المستشرقين أحسن إحاطة بهذه المسائل من بعض علمائنا المعاصرين . إن فلسفة الكندى والفارابى وابن سينا والغزالى وابن رشد لا تزال محاطة بكثير من الغموض ، كما أن فلسفة علماء الكلام من المعتزلة وغيرهم لا تزال مستورة غداً بحجاب كثيف ، والسبب في ذلك يرجع إلى أن كثيراً من الكتب الفلسفية القديمة لم تصل إلينا حتى أصبحنا لا نعرف منها إلا أسماءها ، كما أن كثيراً من المخطوطات لا تزال محفوظة في خزائن الكتب الخاصة لم يطلع عليها إلا القليل من الناس . وليس من مصلحتنا الفكرية أن تبقى هذه الكتب مخزونة في الصناديق في وقت نحن أحوج الأمم فيه إلى التعريف بماضيها . فينبغى لنا إذن إحصاء المخطوطات الفلسفية العربية الموجودة في بلدان الشرق والغرب ، والعمل على تحقيقها ونشرها ، ثم إعادة طبع الكتب الفلسفية المنشورة سابقاً لاشتغالها على كثير من الأغلط . فبعضها لم يطبع حتى الآن إلا على الحجر ، وبعضها الآخر طبع للتجارة لا للعلم والتحقيق . وبدهى أن

إحياء النصوص الفلسفية يجب أن يشمل كتب الفلسفة أولاً ، ثم كتب العقائد والنصوص ثانياً ، ففي كتب العقائد كثير من الفلسفة ، كما أن في كتب التصوف والأخلاق نزعات فلسفية أصلية لا يليق بنا إهمالها .

٢ — والأمر الثاني الذي يحدد لنا هذا الموقف العلمى هو وضع دراسات تحليلية عن فلاسفة العرب نشرح فيها فلسفتهم وننتقدها ، ثم نبين منابعها ومدى تأثيرها في الحضارة الشرقية والحضارة الغربية . ولا نغالى إذا قلنا إن هذه الدراسات هى الوسيلة الوحيدة لتعريف العرب بحضارة العرب . وكما يتقدم التحليل على التركيب فى ارتقاء العلوم الوضعية ، فلذلك يجب أن تتقدم الدراسات التحليلية الخاصة على النظرات التركيبية العامة فى تاريخ الفكر . إن مؤرخى الأفسار الذين يبدؤون بالتركيب قبل التحليل يشبهون الروائيين الذين يؤلفون الوقائع الخيالية من مواد أولية وهمية . فقد يبعدهم هذا البناء الوهمى عن معرفة الحقائق وقد يقلب التاريخ إلى أسطورة كاذبة . فإذا أردنا أن نطلع على حقيقة الفلسفة العربية وجب علينا أولاً تقديم التحليل على التركيب . وفى تاريخ العلوم آيات ناطقة تدل كلها على أن العلماء لا يصلون إلى المرحلة الوضعية إلا بعد عكوفهم على تحليل العناصر وإعراضهم عن حل المسائل الكبرى حلاً تركيبياً سريعاً . فالرياضى والفلكى والفيزيائى والكيميائى وعلماء الحياة والنفس والتاريخ يحددون فى مرحلة التحليل هذه دائرة بحثهم ، وينصرف كل واحد منهم إلى موضوع خاص أو إلى ناحية واحدة من موضوع خاص ، ثم إنهم إذا تم لهم هذا التحليل انتقلوا إلى مرحلة التركيب وكشفوا عن الخطوط العامة المشتملة على تحليل العناصر وتوضيحها ، لذلك كان من الصعب جداً على الباحثين فى تاريخ الفلسفة العربية وضع تاريخ جامع لتطور الفكر العربى قبل القيام بدراسة النصوص وتحليل العناصر وتحديد الاتجاهات الفكرية الخاصة ، التى تميز بها كل فيلسوف من غيره . وأتى لنا أن نضع هذا التاريخ الجامع إذا نحن لم نبدأ بتحليل العناصر ، ولم نكشف عن الاتجاهات الفكرية المختلفة ، ولم نؤلف منها منظومات عامة تقرب بين الأفسار المتشابهة وتجمعها كلها فى تيار واحد .

وقصارى القول أن موقفنا من الفلسفة العربية القديمة يجب أن يكون موقفاً علمياً محضاً غابته التعريف بها ونقدها وتحليلها ، لا الأخذ بها كما هى والنسج على منوالها ، فإن لكل زمان فلسفة موافقة لبنيتها الاجتماعية وحالته العلمية وتطوره الفكرى . ومن أراد أن تكون له فى القرن العشرين فلسفة القرون الوسطى كان كمن يمشى إلى الأمام مشية القهقري .

٣ — موقفنا إزاء الفلسفة الغربية

إن هذه الملاحظات السريعة كافية لتحديد موقفنا إزاء الفلسفة الغربية أيضاً . فكما أن تجديد الفلسفة العربية القديمة لا يغنينا عن الأخذ بأسباب الفلسفة الحديثة ، كذلك الأخذ بالفلسفة الغربية كما هي لا يهديننا سبيل الرشاد في مجتمع حائر بين روحانية العقل ومادية العلم ، فإذا شئنا أن نهتدي في ظلمات الفلسفة الحديثة وجب علينا أولاً التعريف بها ، ثم نقدها وتحليلها .

١ — ينبغي لنا أولاً ترجمة الكتب الأساسية من الفلسفة اليونانية القديمة كـفلسفة أفلاطون وأرسطو . فإن الكتب العربية القديمة المترجمة عن اليونانية مبهمة كثيرة التعقيد ، لا يتوصل القارئ إلى ما فيها من المعاني العميقة إلا بعد قراءتها عدة مرات . فقد حكى عن الفارابي أنه قرأ كتاب النفس لأرسطو مائتي مرة ، وذكر ابن سينا عن نفسه أنه قرأ كتاب ما بعد الطبيعة أربعين مرة من غير أن يفهم ما فيه . ومن نظر إلى كتاب (فاطيفورياس) الذي ترجمه حنين بن إسحق وجد فيه من الغموض وركاكة الأسلوب ما يدعو إلى قراءته عشرات المرات . كل ذلك يهيب بنا إلى ترجمة هذه الكتب من لغتها الأصلية بأسلوب عربي واضح لا كما فعل بعض المعاصرين الذين نقلوا كتب أرسطو عن اللغة الفرنسية ، وليس في تجديد هذه الترجمة مضیعة للوقت ، إذ أن أكثرها قد فقد ، والوجود منها يكتنفه الغموض والالتباس . ومن تذكر أن التفكير الأوروبي في أواخر القرن الخامس عشر قد استند إلى الفلسفة اليونانية في نهضته الحديثة أدرك ما لتعريب كتب اليونانيين من عميق الأثر في إحياء فلسفتنا العربية القديمة من جهة ، وفي تفهم الفلسفة الغربية من جهة أخرى . فالفلسفة اليونانية لا تزال حتى اليوم معجزة المعجزات ، تجد فيها أصولاً لجميع المذاهب من (لينين) إلى (نيتشه) ومن (ديكرت) إلى (كانت) . ومن أراد أن يكون له في الفلسفة أقل أثر فما عليه أولاً إلا أن يترقى من معين الفلسفة اليونانية .

٢ — وينبغي لنا ثانياً أن نترجم أمهات الكتب الفلسفية من اللغات الأوروبية الحديثة كـكتب (لوك) و (ديكرت) و (لينين) ، و (اسبينوزا) ، و (هيوم) و (كانت) ، و (هيجل) ، و (شوبنهاور) ، و (سبنسر) ، و (نيتشه) ، و (برغسون) ، وغيرهم . والترجمة ضرورية لنا في أوائل الأمر أكثر من الدراسات التحليلية التي يقوم بها بعضهم ، إذ أن فائدة هذه الدراسات مقصورة على التعريف بالفلاسفة الغربيين ، وهي لا تظلمك على

أفكارهم إلا من وواء حجاب ، وإذا فهمت ما كتبه أصحابها لم تجد في آرائهم ما يرفعك إلى فضاء الفكر . ويوحى إليك بالمعاني الجديدة والآفاق الواسعة . ومن شروط هذه الترجمة أن تنقل الكتب عن اللغة الأصاية التي كتبت بها ، لأنها إذا نقلت عن لغة ثانية كان ذلك باعثاً على غموض الأفكار وابتعادها عن الضبط . دع أن المترجم لا يحسنون الاختيار دائماً ، فيترجون ما يصل إليهم من الكتب على غير هدى ، من غير أن يكون لها قيمة حقيقية . مثال ذلك أن بعض قراء العربية كانوا إلى عهد قريب يظنون أن (غوستاف لوبون) هو أعظم فلاسفة الغرب . والسبب في ذلك يرجع إلى أن بعض الأسانذة نقل كتبه إلى اللغة العربية . لاشك في أن (غوستاف لوبون) قد شارك في علوم كثيرة ، إلا أنه لم يتعمق في أى علم من العلوم تعمق رجال الاختصاص . فهو قد كتب في علم الاجتماع ، ولكنه لم يكن عالماً اجتماعياً كدورتهايم ولفي برل ، وقد كتب في نظريات الفيزياء ، ولكنه لم يكن عالماً فيزيائياً كجان بران ، وطومسون ، وكتب في التربية والأخلاق ، ولكنه لم يبلغ في ذلك ما بلغه (جيمس) و (دوى) و (كلاباريد) . فن الضروري إذن أن يوضع برنامج خاص لترجمة أمهات الكتب خلال مدة محدودة من الزمان ، تتولى اللجنة الثقافية لجامعة الدول العربية الإشراف عليه ، ثم توزع العمل على الاختصاصيين في مختلف الدول العربية لتنفيذه وإنجازه . وينبغي لنا في الوقت نفسه العمل على وضع دراسات علمية عن اتجاهات الفكر الغربى ، وتحليل آراء الفلاسفة الغربيين ونقدها ، ثم المقارنة بينها وبين بعض الآراء التي نجدتها عند فلاسقتنا القدماء .

وقد يقال إن في العالم الغربى أنواعاً من الفلسفة لا تأتلف وعبقريّة الأمة العربية ، وإن نقل هذه المذاهب إلى لغتنا قد يؤدي إلى استهواء الكثير من الناس ، وإدخال الفوضى على العقائد الموروثة ، فنقول رداً على ذلك إن نقل هذه المذاهب لا يؤدي بالضرورة إلى اتباعها . ففي الفلسفة الغربية مذاهب روحانية ومذاهب مادية ، كما أن فيها مذاهب خيالية ومذاهب وجودية . وهى تهافت ويهدم بعضها بعضاً ، كما تتساند وتعاون . فإذا ترجمت كلها معاً استطاع القارىء العربى أن يقارن بينها ، وأن يكون لنفسه بعد ذلك رأياً شخصياً . وربما كان لنقل هذه المذاهب المختلفة أثر عميق في تربية حرية الفكر . لقد تعود مفكروننا أن يقيّدوا آراءهم الفلسفية بالعقائد الموروثة والتقاليد الاجتماعية المعروفة ، وإذا خرجوا على هذه التقاليد أناروا حولهم موجة من السخط والاستنكار ، إن الإبداع الفلسفى شبيه بالإبداع الفنى . لا ينمو إلا حيث تزداد حرية الفكر . ومتى خضع للقيود الاجتماعية والسياسية انقلب إلى

تقليد محض واتباع آلى . أضف إلى ذلك أن الفلسفة الغربية ليست مضادة لعبقرتنا ، فهي قد تولدت من الفلسفة اليونانية كفلسفتنا القديمة ، كما أن فلسفتنا القديمة قد أثرت في التفكير الغربى نفسه . إن القديس (توما الأماكونى) و (روجيه باكون) و (غيوم دوفرى) قد أخذوا كثيرا عن ابن سينا وابن رشد ، حتى إن إعجاب (غيوم دوفرى) بهما كان لا يقل عن إعجابه بأرسطو . فليس بيننا وبين الغربيين في هذه الناحية إلا فرق واحد ، وهو أن الفلسفة الغربية قد اضمحلت من العالم العربى إلا قليلا من رسومها نجدها في تفاريق من الناس وتحت رقبة من علماء الدين ، أما الغرب فقد عرف الفلسفة اليونانية أولا عن طريق الفلسفة العربية ، ثم عرفها ثانيا بصورة مباشرة ، وبقيت الفلسفة هناك نافذة الأسواق متعددة الرسوم حتى وصلت إلى ما هي عليه الآن من الإبداع والكمال . فليس في الفلسفة الأوروبية إذن ما يخالف عبقرية الشعب العربى وميوله . بل إن تكامل الفكر العربى يقتضى اقتباس الفلسفة الأوروبية وربطها بالأصول اليونانية القديمة التى حفظناها . ومتى تم لنا هذا الاقتباس استطعنا أن نجد تفكيرنا وأن نبذل لأنفسنا فلسفة عربية حديثة .

وقصارى القول أنه ينبغى أن يكون موقفنا إزاء الفلسفة الغربية ، كما كان موقف أجدادنا إزاء الفلسفة اليونانية . وهو موقف إيجابى يسعى إلى ترجمة الفلسفة الغربية ونقلها والأخذ بكثير من مسائلها ، ثم تأليف عناصرها في قوالب عربية ، مستوحاة من ماضى الأمة وحاضرها .

٤ — موقفنا إزاء الفلسفة بصورة عامة

لابد أن نشير في آخر هذا المقال إلى أنه ينبغى لنا في كل ذلك أن نتجنب التقليد المحض . إن مجلاتنا الشهرية طافحة بالمقالات الفلسفية ، كما أن دور النشر تصدر في كل شهر كتابا فلسفيا موضوعا أو مترجما . إلا أن هذه الزيادة في الإنتاج لا تدل على إنتاج حقيقى وإنما هي زيادة وهمية مبنية على التقليد المحض . لقد أصبح البحث في الأمور الفلسفية عندنا زيا من الأزياء لا أكثر ولا أقل . وقلما وجدت كتابا لم يكن له في هذا الحقل باب واسع وهذه الظاهرة تدل على أن القارئ العربى يرغب اليوم في مطالعة المواضيع الفلسفية بالرغم من اضمحلال الفلسفة العربية وزوال رسومها من دهرنا . ولكن معاجة هذه المواضيع لا تعتمد الآن على تطور التقليد الأسمى . إننا نأخذ الغربيين في كل شيء ، نأخذهم في الأزياء كما نأخذهم في الأفكار والمواظف . نعم قد يكون التقليد ضروريا في المرحلة الأولى من حياة

الفكر . إلا أنه إذا طال أفقد الفكر روعته وعبقريته . فإذا شئنا أن تكون لنا فلسفة عربية مستمدة من الفلسفة العربية القديمة والفلسفة الغربية الحديثة مما وجب علينا أولاً أن نتجنب التقليد الأعمى ، وأن نسمو إلى يفاع الاستبصار والإبداع ، وهذا لا يمنع من أن يكون في العالم العربي فلاسفة مقلدون يذهبون إلى ما ذهب إليه ابن رشد في وحدة العقل ، أو يقولون بما قاله ابن خلدون من إبطال علم ما بعد الطبيعة ، أو يعتنقون مذهب (كانت) أو (أغوست كومت) أو (سبنسر) في نظرية المعرفة ، إلا أنه ينبغي أن يوجد إلى جانب هؤلاء التابعين فلاسفة آخرون مبدعون يقتبسون العناصر من هنا وهناك ويصوغونها في قوالب جديدة . والشرط اللازم لهذا الإبداع هو في نظرنا فك الفلسفة من عقائدها وإطلاق حريتها وتجربتها من القيود التقليدية والضغط الاجتماعي . وليس في حرية التفلسف أى خطر على الدين ، لأن الإيمان أقوى من أن يتصدع بمعاول العقل . لا بل قد يكون في هفوات العقل تأييد له ورجوع إليه . وما الفلاسفة إلا شعراء يصوغون مادة العلم في قلوب العقل ، كما ينسج الشعراء من صور الطبيعة رموزاً ومجازات ، فإذا نظرنا إلى الفلسفة هذه النظرة الفنية ، أمكننا أن نحلها دار الأمان ، وأن نتغاضى عن المتفلسفين كما نتغاضى اليوم عن الشعراء .

هميل صليبيا

هل يمكن وضع خطة مشتركة للعالم العربي

في ترجمة أمهات الكتب الغربية في العلوم والآداب ؟

الدكتور موار علي

أنا من الداعين إلى ضرورة تنسيق الجهود في مختلف نواحي النشاط الإنساني في هذا العالم العربي ، في الأهداف السياسية وفي الشاكل والقضايا الاجتماعية والاقتصادية والصناعية ، والتعليمية والزراعية وفي كل حقل آخر . فالعالم مقبل الآن نحو تكوين المجتمعات والكتل الكبرى ، وفي العالم اليوم مجموعات من الكتل مثل الكتل السلافية والأنكلوأمريكية واللاتينية ، فحري بالعالم العربي أن يوسع مجال تماونه فلا يقصره على الأقطار الداخلة في نطاق جامعة الدول العربية ، بل يدخل في ذلك كل الأقطار التي تتكلم باللغة العربية ، ويسعى لتوحيد جهودها ومعالجة مشاكلها في نطاق المصالح العربية الخالصة البحتة ، ضمن الهدف القومي فقط .

والناحية الثقافية من أهم النواحي التي يجب توجيه عناية خاصة لها ، لأنها تمس أهم شيء في الإنسان وهو « العقل » وتحت تأثير هذه الثقافة يمكن ضبط المواطن وتدريب الاتجاهات وكبح الدسائس الأجنبية ، التي تحاول التفريق بين أبناء العالم العربي وأقطاره .

ولا بد للأقطار العربية اليوم من تغيير مجرى تفكيرها القديم ، وتوجيه توجيهها يتلاءم ومقتضيات الزمان الحديث . والانقلاب الذي طرأ على الإنسان والذي سيطر عليه في المستقبل ، فيكيف نفسه وفق هذه المقتضيات ، ويلائم بين حاجياته وحاجيات الزمان القادم . وحيث أن ذلك يتعذر على القطر العربي الواحد القيام به ، فلا بد للأقطار العربية من تنسيق جهودها مشتركة وتوجيهها اتجاهات تشد أزره كل الأقطار .

ولما كان لا بد للأقطار العربية من الامتلاء على مجارى التفكير العالي والإنتاجات الفكرية في الأقطار الراقية ، فإن من الضروري لنا نقل أمهات الكتب إلى العربية ، لتوقوف على أحدث ما أنتجه العقل وما أبدعه الفكر البشري في كل مكان .

هنالك مؤلفات أتيح للمثقفين ثقافة حديثة الوقوف عليها بلغاتها الأصلية مثل الإنكليزية التي وجدت لها قراءاً في الأقطار العربية التي كان ولا يزال لها اتصال سياسي وثقافي مباشر بإنكلترا وأمريكا ، مثل مصر والعراق وفلسطين ولبنان وسوريا . والفرنسية التي وجدت لها رواجاً بفعل العوامل السياسية ، أو العوامل الثقافية مثل المدارس الفرنسية والبعثات الفرنسية في قسم من الأقطار العربية ، وعلى الأخص سوريا ولبنان ومصر ، والألمانية عند المثقفين الذين درسوا في المدارس الألمانية أو في ألمانية نفسها ولا سيما في الطب والكيمياء والصناعة والاستشراق

أما الذين كانت ثقافتهم دون الثقافة العالية أو كانت ثقافتهم اللغوية ضعيفة أو دون الوسط ، أو اقتصرت ثقافتهم على الثقافة القديمة ، فقد حرموا من لذة الاطلاع على الثقافات الأجنبية ، وحرموا من الاستمتاع بها . وهذا طبعاً نقص كبير جداً يجب على البلاد العربية تلافيه .

وهناك مؤلفات لم يتح حتى لأغلب المثقفين ثقافة حديثة عالية الاطلاع عليها بلغاتها الأصلية ، وذلك لكون اللغة التي كتبت بها من اللغات التي لم يكتب لها الرواج ، ولكنها مع ذلك من اللغات التي كتبت بها مؤلفات قيمة وثمينة في مختلف نواحي النشاط الإنساني . مثل الروسية ، والهولندية والسويدية والنرويجية ، والدانماركية والإيطالية والأسبانية والبرتغالية ، وغيرها . وقد أتيح لقسم منها الترجمة إلى اللغات الرأجة ، مثل الإنكليزية أو الفرنسية ، فاطلع عليها من يحسن هاتين اللغتين ، وحرم من لم ينل الثقافة الحديثة حتى من هذه التراجم ، خلا مترجمات معدودة ظهرت في اللغة العربية عن هذه الترجمات في الأكثر ، وعن اللغات الأصلية بواسطة أشخاص ساعدتهم الظروف على التثقف بهذه اللغات وهذا في القليل ، وهم أشخاص يمكن عدّهم في كل العالم العربي . وينقص الكثير منهم التمكن من اللغة العربية وصعوبة التعبير عن أفكارهم بلغة فصيحة سليمة ، وبسبب تشتت هؤلاء في الأقطار العربية وعدم وجود المشجعات لهم على الترجمة ، ومن أهمها المال اللازم ، ولصعوبة قيام كل قطر بمفرده بتقديم المعونة اللازمة ، وجب على البلاد العربية مشتركة وضع خطة موحدة منسقة في ترجمة أمهات الكتب الغربية في العلوم والآداب .

لقد انصرف عدد لا يستهان به من المترجمين إلى ترجمة الكتب « الرخيصة » الكتب السهلة العامة ، والكتب التي تعالج القضايا التي يهتم بها الشباب في أدوار المراهقة ، أو الجمهور بعد حدوث مشاكل طارئة ، تحمل طابع التهريج في الغالب ، وهي كتب أطلق عليها اسم « الكتب الدورية » أو « الكتب الموسمية » وذلك لرواجها ولإقبال المتوسطين والجمهور

العام على قراءتها ، وضمان الربح منها أو الحصول على نفقة ما صرف عليها على الأقل .

أما كتب التخصص وكتب الدراسات العالية ونحن في حاجة شديدة إليها — هي في نظري أشد من كتب التاريخ أو الأدب — فقللة أصحابها وصعوبة فهمها على المتوسطين ومن هم دون المتوسطين . ولكونها من مواضع التخصص التي تحتاج إلى دراسات عالية . فقد أصبح تصيها الإهمال ، ولم يقدم الناشرون على طبعها في النادر إلا وهم على علم تام بأنها صفقة خاسرة ، أو عمل متعب غير مفيد من الوجهة التجارية ، وهي كذلك في بلاد الغرب ، غير أن مما يغلب على هذه الحوائل هناك كثرة عدد طلاب الجامعات والمدارس العالية ، وأصحاب التخصص وميلهم إلى زيادة ثقافتهم التخصصية ، حتى بعد تركهم مراحل الدراسة والجامعات بسنين طويلة ، من جهة ، ومساهمة الحكومات والجمعيات العلمية والجهات الخيرية في طبع هذه المؤلفات العميقة المركزة التي لا يطلبها في الغالب إلا ذوي التخصص والبحوث ، وتقديم المساعدات وكل وسائل التشجيع للمؤلفين والناشرين لنشر تلك البحوث من جهة أخرى .

ولنأخذ مثلاً على ذلك كتب المستشرقين فهي من الكتب التي لا يمكن أن تعود على المؤلف أو الناشر في الغرب بربح مادي ولا بمكاسب تعوض عن تلك الأتعاب . ولولا مساعدات الحكومات لأغراض سياسية ، ولولا مساعدات الجمعيات التي أنشئت لأغراض تبشيرية ، أو الجمعيات الاستشرافية العلمية ، والمؤسسات الخيرية ، لتوقفت حركة الاستشراق . فهذه المنشئات هي التي تقوم بسد نفقات النشر وحقوق التأليف ، وكذلك تفعل الحكومات والجمعيات في تشجيع الفروع العلمية الأخرى التي لا يمكن أن يشترجها إلا ذوو التخصص والأبحاث .

والعالم العربي اليوم في حاجة شديدة إلى نقل أمثال هذه الكتب إلى اللغة العربية لرفع كفاءة المتخصصين ، ولزيادة ثقافتهم الفنية والسلوكية ، لأننا على أبواب نهضة ، والنهضة لا بد أن تبدأ بالترجمة ، ثم تأتي بعد هذه المرحلة مرحلة التأليف ، وهي مرحلة لم نصل إليها حتى الآن . والأقطار العربية بمفردها عاجزة عن القيام بهذه المهمة الشاقة ، فلا المترجمون الاختصاصيون متوفرون في كل قطر ، بعدد كاف وبعدد كافية ، ولا الناشرون يقدمون أو يستطيعون تقديم المال اللازم للطبع أو تعويض الترجمين تعويضاً عادلاً يتناسب والجهود التي تبذل لترجمة الكتب الدقيقة والأمهات ترجمة علمية فنية ، ولا الحكومات العربية تستطيع كل بمفردها ترجمة ما تحتاج إليه من الكتب في مختلف العلوم بصورة منتظمة ومستمرة

في كل عام . أضف إلى كل ذلك الخطر الذي يفجم عن تكرار ترجمة كتاب واحد وفي عدة أقطار عربية ، فتذهب جهود المترجمين سدى .

وترجمة أمهات الكتب ترجمة أمينة دقيقة بأسلوب رصين ، وإعادة سبك المعاني التي صلبها المؤلف في قوالب غاية في الجمال وحسن الذوق ، وسمو الفن ، ليست من الأمور السهلة ، لأنها تستلزم فنا يكون موازيا لفن مؤلفها الأصلي ، وعلمنا باللغتين وتخصصا في الفن الذي وضع فيه المؤلف مؤلفه ، وأسلوبا بليغا في اللغة التي سيجريها إليها المؤلف الكتاب ، حتى لا يفقد المصنف الأصيل روعته وبلاغته وتأثيره في النفوس . ومثل هذا العمل يحتاج إلى جهد عقلي كبير ومدة طويلة من الزمن ، إلى أن تأخذ الترجمة شكلها النهائي المرضي ، وهو عمل قد لا يشجع ظروف المترجمين المالية أو ظروف الناشرين وميلهم إلى استغلال أتعاب المترجم — على ترجمة « الأمهات » والكتب الخالدات ، وكتب البحث والتخصص .

فلأجل تغذية العالم العربي بفذاء روحى دسم ، ولأجل تعريفه خلاصة عقليات الأمم الأخرى ، وتقريب عقليات تلك الأمم من العقلية العربية والعقلية العربية من تلك الأمم ، ورفع مستوى الأمة العربية الثقافية ، ولتخفيف الصعوبات التي تقف أمام المترجمين والناشرين في سبيل ترجمة أو نشر الكتب العلمية أو الفنية البحتة أو كتب الأدب الرفيعة ، ولتمويد الناس قراءة هذه الكتب ، وتشويقهم إلى قراءتها وإخراجها بصورة علمية فنية دقيقة ، لسكل هذه الأسباب ؛ وجب وضع خطة مشتركة للعالم العربي في ترجمة أمهات الكتب العلمية والأدبية والصناعية والفنية إلى اللغة العربية . كأن تقوم اللجنة الثقافية في جامعة الدول العربية وهي أعلى مؤسسة ثقافية رسمية للدول العربية ، بتنظيم حركة الترجمة وتوجيهها توجيهها يتفق مع حاجيات العالم العربي الثقافية والعلمية وأهمية المواضيع .

وفي دائرة منظمة « يونسكو » شعبة خاصة مهمتها تشجيع « الترجمة » وتقديم كل المعونات الممكنة إلى المترجمين ، ولها نشرات تصدرها وقوائم ترسلها إلى الدول الأعضاء ، وإلى من يطلبها ، فيها معلومات عن الكتب القيمة والمصنفات المفيدة التي تعد من الكتب الخالدة بالنسبة للتراث الإنساني والقوى في آن واحد . فخرى بجامعة الدول العربية أن تنشأ بها شعبة خاصة تتولى مهمة تفسير ترجمة أمهات الكتب ترجمة دقيقة صحيحة بحيث تكون صورة صادقة للأصل ، على أن نستعين بأراء الخبراء وبالخبرة الفنية التي حصلت عليها المؤسسات العلمية العالية التي تعنى بأمر الترجمة والتأليف وبما يتعلق بهما منذ نحو قرن .

ويمكن تحقيق هذا التعاون في نظري بتوزيع العمل بين هيئتين :

١ — هيئة اللجنة الثقافية نفسها .

٢ — الدول العربية دولة دولة .

فتقوم اللجنة الثقافية بجامعة الدول العربية بقسط من الترجمة ، وتقوم كل دولة بقسط آخر يوزع عليها حسب رغبتها وحسب الاختيار في ترجمة الكتب التي ترغب فيها . كأن تستشير اللجنة الثقافية الدول العربية ، قبل ابتداء العام المالي للجامعة ، لبيان رأيها في الكتب التي يستحسن نقلها من اللغات الأجنبية المختلفة ، وفي شتى المواضيع التي تحتاج إليها اللغة العربية . وبعد وصول ردود الدول إلى هذه اللجنة ، توحد وتصنف وتوزع حسب الأهمية والمنزلة ، ثم يضاف إلى هذه القائمة ما وصل إليها من ردود العلماء وذوى الاختصاص والتبحر في البلاد العربية ، بعد أن تكون قد وجهت إليهم دعوات خاصة تحثهم فيها على المساهمة في تقديم مشورة بالكتب التي تصلح للترجمة ، وبعد تصنيفها يضاف إليها ما لم يرد في قائمة الدول العربية إلى القائمة ، بعد اقتناع اللجنة الثقافية بأهمية تلك الكتب وفائدتها ، ثم توحد وتعرض على مجلس جامعة الدول العربية للنظر فيها نهائياً مشفوعة بتقرير اللجنة الثقافية عنها .

وبعد الموافقة عليها توزع على الدول العربية لاختيار كل حكومة ما ترغب في ترجمته من هذه الكتب ، وبعد وصول ردود الدول تنشر أسماء الكتب التي ستقوم كل حكومة بترجمتها إلى اللغة العربية في نشرات الجامعة ، وفي الصحف ، وتخطر دور النشر بذلك حتى تكون على علم بالموضوع ، فلا تتكرر الترجمات أو يفاجأ مترجم يوشك على الانتهاء من عمله بظهور ترجمة فتذهب أتعابه سدى .

وتقوم الجامعة نفسها بقسط آخر من الترجمة فتختار هي لنفسها عدداً من الكتب من هذه القائمة المختارة لترجمتها على حساب ميزانيتها الخاصة ، بعد أن تنشر أسماءها وتخطر الدول العربية ودور النشر بأنها ستعتمد ترجمتها ، وبعد معرفه إذا كان هنالك من قام بترجمتها للانصال به والوثوق من صحة قوله ودرجة ترجمته ، فإذا ما تأكدت من ذلك في خلال مدة معينة أخذت اللجنة الثقافية في مباشرة العمل .

وأرى أن تنوع الجامعة الكتب التي تصلح للترجمة فلا تقتصر على لون واحد وتترك سائر الألوان الأخرى ، ثم تنظر في توزيع تلك الكتب على من يصلح للقيام بعمل الترجمة من المتخصصين في هذا الفن في كل البلاد العربية .

وهناك مشكلة أعاق حركة الترجمة ، وهي أن أكثر المثقفين الذين تلقوا ثقافة حديثة والذين يتقنون لغة أجنبية إتقاناً جيداً عن اختصاص ، لا يحسنون وضع الكتب التي يريدون

ترجمتها بلغة عربية سليمة وبأسلوب تعبيرى قوى يعطى الترجمة روعة وبلاغة ، لذلك فهم ينفرون فى الغالب من الترجمة ، ولا يقدمون عليها ، ولا سيما الكتب العلمية التى تحتاج إلى مصطلحات ومسميات ، وإذا أقدموا كانت ترجمتهم ركيكة غامضة غير مفهومة لا تؤدى الغاية التى من أجلها ترجم ذلك الكتاب ، وقد نسيى إلى قيمة المؤلف العلمية ولغته الأصلية التى ألف بها .

وبوضع خطة موحدة مشتركة يمكن للعالم العربى الحصول على ترجمات علمية متقنة بلغة متينة ، وبأسلوب بليغ رصين ، ويمكن الحصول على مثل هذه الترجمات بتشكيل لجنة من كبار المتخصصين فى الموضوع بترجمة الكتاب مشتركة أو بتوزيع العمل على الأعضاء باتفاقهم ، بأن يقوم كل واحد منهم بترجمة الفصل الذى يرغب فيه ، وفى كلتا الحالتين لا بد من التشاور والتداول فى الترجمة وعرض كل واحد منهم ما ترجمه على الآخرين لتدارك ما قد يحدث فيه من سهو أو هنات فى التعبير أو ركة فى الجمل .

ومن الممكن وهو الأفضل فى نظرى إشراك جماعة من الأقوياء فى اللغة العربية ومن المعروفين بالكتابة وحسن الإنشاء وقوة التعبير ، فى صياغة المعانى التى يشرحها أصحاب الاختصاص لهؤلاء ، بعبارات عربية متينة فيها بلاغة ودقة ترضى أصحاب الاختصاص ، ولا تثبت إلا بعد اقتناعهم نهائيا من أنها منطبقة على مقصود المؤلف الأصلى تمام الانطباق ، وأنها لا تقل بلاغة وسبكاً عن اللغة الأصلية التى كان بها الكتاب .

ولنا فى هذه الطريقة سابقة فقد استطاع المرحوم المنفلوطى على قدر إلمامه بالفرنسية ونصرفه أو تصرف من كان يترجم له عن الفرنسية ، أو عدم تمكن من كان يقرأ له من اللغة الفرنسية ، من أحياء ما ترجم ومن تخليده بالعربية ، ومن تشويق الناس إلى المطالعة وإقبالهم عليها ، كأنهم يقرءون قطعاً أدبية رائعة كتبت بالعربية لا بلغة أخرى . فالترجمة نفسها يجب أن تكون آية من آيات البلاغة إن كانت من قطع الأدب مثلاً ، وغاية فى السهولة والقوة ورسالة التعبير العلمى إن كانت من الكتب الأخرى

وهناك مشكلة أخرى تدعو إلى وضع هذه الخطة المشتركة ، وهى مشكلة الكتب التى يجب أن تكون تحت متناول اليد فى الكليات والجامعات والمدارس العالية ، والمراجع الأساسية التى يستعين بها الطالب فى الدراسة العالية ، وكل البلاد العربية تنحصر اليوم من هذا الوضع وتستعين بالمصادر الأجنبية فى هذه المرحلة من الدراسة ، وتعرض للنقد من جانب الفيارى على لغتهم ، وثقافتهم القومية ، وما دامت الأقطار العربية توافقة إلى التقارب

في السياسة التعليمية والاتجاهات في التربية وفي التعليم ، وتهدف إلى توحيد أو تقريب المنظم الجامعية وبعثها على أسس متقاربة ، فإن من الممكن التغلب على هذه الصعوبة عن طريق اللجنة الثقافية ، بأن تتعاون الأقطار العربية على وضع مخصصات كافية في ميزانية الجامعة العربية ، لكي تتمكن لجنة الترجمة الدائمة المفروض تشكيلها من أصحاب الاختصاص العلمي والأدبي ، ومن أصحاب الدراسات الجامعية ، والدراسات العالية في الجامعة العربية ، من الانصال بوزارات المعارف ، والكليات والجامعات لاختيار الكتب العلمية المستعملة في الجامعات الغربية والأمريكية ، فتختار أحسن الكتب وأتقنها ، من التي وضعها جماعة من الأساتذة المتخصصين ثم تعهد إلى ذوي التخصص من أساتذة الجامعات في مصر وفي الأقطار العربية بترجمتها ولا بأس في نظري من إشراك الأساتذة الأجانب ، ولا سيما أصحاب التأليف في عملية النقل . وبذلك تخفف مشكلة المصادر والنصوص التي يستعان بها في الدراسات العالية في البلاد العربية ، ونكون قد عملنا نفس الوقت على تكوين ثروة علمية في البلاد العربية لا تقدر بثمن تكون أساساً لبناء الصرح العلمي و «التخصص» في العالم العربي . وبصعب في الوقت الحاضر على الأقطار العربية التغلب على هذه المشكلة منفردة لقلة المتخصصين واختلاف المصطلحات العلمية في هذه الأقطار ، وتنوع الدراسات واختلاف المستوى العلمي للأساتذة أنفسهم ، وصعوبة إيجاد المال اللازم لترجمة الكتب العلمية التي لا يقبل على قراءتها بالطابع إلا أصحاب التخصص وأصحاب الدراسات العالية . ولذلك وجب تدخل الجامعة .

فإذا ظهرت مثل هذه الترجمات العلمية المتقنة ساعدت على تقريب مناهج الدراسات والبحوث العالية في البلاد العربية ، وتوحيد المصطلحات العلمية وتقريب الاتجاهات والأهداف العلمية والثقافية ، وخففت من حدة الاختلاف الموجود في مستوى طلاب البلاد العربية العلمي والثقافي في المدارس العالية ، وأمكن ضمان الفائدة من زيارة أساتذة المدارس العالية والطلاب في كليات البلاد العربية وجامعاتها على نحو ما يحدث في الجامعات والمعاهد العالية في البلاد الأوروبية والأمريكية . ومما يلاحظ أنه حتى في إنجلترا وأمريكا تستعين الجامعات الإنكليزية والأمريكية في الدراسات العلمية والعالية بالمؤلفات الألمانية المركزة المشهورة ، في مثل الكيمياء العضوية أو النبات أو الفيزياء وبعض فروع الطب والفلسفة ، ولا ترى في ترجمتها بأساً ولا غرضاً ما دامت الغاية علمية عالية . وما دامت هذه المؤلفات مركزة عميقة ، بقدر وجود أمثالها في اللغة الإنكليزية ، ويفعل الألمان والفرنسيون نفس ما يفعله الإنكليز ، لذا فإن من اللازم لنا ترجمة أمثال هذه الكتب عن لغاتها الأصلية إلى لغتنا العربية ، على أن يراعى في

الاختيار كما قلت التركيز العلمى والتعمق فى البحث وشهرة المؤلفات فى أوربا وأمريكا ، فنقدم على ترجمتها من لغاتها الأصلية التى كتبت بها ، وبذلك نكون قد حصلنا فى مدة مناسبة على كتب علمية عميقة جداً ، هى نتائج تجارب وأبحاث مئات من السنين ، وخلاصة عقليات البشر . وتساعد هذه بالطبع المتخصصين الذين لا يحسنون الألمانية أو الفرنسية أو الإنكليزية على الوقوف على مواضع التخصص ، كما أنها ستكون مقدمة لهؤلاء وعاملاً مساعداً على التأليف .

ولا بأس من وضع جوائز مشوقة لحث أصحاب القابليات على الاستفادة من قابلياتهم وتشويقهم إلى الاستفادة من كفاءاتهم ، وتشويقهم للاقدام على الترجمة ، كأن تكون هنالك جوائز عربية عامة وجوائز محلية لتشجيع المترجمين فى كل قطر على الترجمة .

وأرى وجوب تعاون «لجنة الترجمة» فى جامعة الدول العربية ، مع دور النشر والمترجمين وكبار الأساتذة فى البلاد العربية ، أو الناشئين الذين تأنس فيهم الميل إلى الترجمة ، وإرشادهم إلى الكتب النافعة التى تصلح للنقل ، وتقديم المساعدات المادية والمعنوية اللازمة لدور النشر والمترجمين ، للتغلب على الصعاب ، ولإخراج تلك المترجمات فى أجل حلة فنية مع المحافظة على الطابع الأصلى للكتاب المترجم بصوره وخرائطه وجداوله ، إن كانت به صور أو خرائط أو رموز ، حتى يكون مطابقاً للأصل تمام المطابقة ، وقد تقف أمام الترجمة بالشكل الذى أريده بعض الصعوبات المادية ، مثل ارتفاع سعر النسخ وبطء التوزيع ، وأعتقد أن من الممكن التغلب على ذلك ببيع المترجمات بسعر التكاليف أو أقل من سعر التكاليف ، باشتراك الجامعة والدول العربية بدفع الفرق وتحمل الضرر ، لأن الغاية من نشرها هى غايات ثقافية وليست تجارية ، حتى نفكر فى الربح المادى قبل كل شئ .

ومن المستحسن فى نظرى عقد اجتماعات أو مؤتمرات دورية تحت إشراف الجامعة العربية ، للمداولة فى شئون الترجمة والتأليف والنشر ، يشترك فيها المؤلفون والمترجمون والناشرون لمعالجة المشاكل التى تخص هذه المواضيع فى البلاد العربية من جميع أوجهها النظرية والعملية ، والالتفاق على المصطلحات العلمية والأدبية التى يجب أن يستعملها المترجمون والمؤلفون فى البلاد العربية فتنشر على الملأ للاطلاع ، وبعد أن وافقت الجامعة العربية على قانون حماية حق المؤلف والمترجم والناشر ، اعتقد أنه لا بد من وضع تشريعات أخرى لتنظيم التأليف والترجمة والنشر ، وكيفية توزيعها فى البلاد بصورة عادلة متقابلة ، وحماية المترجمين والمؤلفين من الفقر والأمراض ، بالضمانات الاجتماعية على نحو ما يحدث فى الغرب .

المصطلحات العلمية

والخطة التي ينبغي أن يسير عليها العالم العربي في تعريبها

الدكتور داود الجلابي

العلم عند العرب قبل الإسلام :

لم يكن للعرب في جاهليتهم علوم راقية مدونة ، بل كان لهم معلومات يتناقلونها شفهياً . كان لهم معرفة لا بأس بها بحركات القمر والنجوم وحساب المواسم والأعياد والأنواء ومهاب الرياح ، وبالاhtداء بالنجوم في أسفارهم . وكان لهم معرفة أيضاً بالريافة وهي معرفة استنباط الماء من الأرض . وعرفوا الحيوانات التي في جزيرتهم بأنواعها وأشكالها وطبائعها ، الداجنة منها والوحشية . وعرفوا كذلك النباتات التي وقع نظرهم عليها وسموها وعلموا خواصها ، وما ينفع منها الماشية وما لا ينفع وما فيها من الخواص الدوائية وغيرها . وغرسوا النخيل والأعناب والتين والزيتون والرمان وزرعوا الحبوب . وعرفوا بعض الأدوية في الإنسان والماشية وعالجوها بالأعشاب والسكي . وكانت الرياضة راقية في اليمن خاصة . وكانوا يقرظون الشعر ولهم عناية خاصة بعلم الأنساب والقيافة وتربية الخيل واستعمال السلاح إلى غير ذلك من المعارف التي لم تبلغ من الرقي والنضوج درجة يمكن معها تسميتها بالعلوم .

اشتغالهم ببعض العلوم بعد الإسلام :

أكثر ما اشتغل به العرب بعد بزوغ شمس الإسلام الحروب وفتح البلدان وهداية الناس إلى دينهم . وفي الوقت ذاته كان أناس منهم يعنون باستنباط أحكام الفقه من القرآن والحديث ، ثم كثر اشتغالهم بنقل الحديث والتفسير وسيرة الرسول والفقه وعلم القرآن وعلوم اللغة من صرف ونحو وبيان وبديع وعروض ومفردات اللغة ودونوا الشعر ، ثم اشتغلوا بالمقائد وألفوا في جميع هذه العلوم وأكثروا . وكان الدين هو الحافز الأصلي للاشتغال بهذه العلوم . وكان أكثرهم في البدء عرباً خالصاً ، فلم يعمدوا بفطرتهم صعوبة في أخذ ما احتاجوا إليه من المصطلحات في هذه العلوم من لغتهم ذاتها مباشرة .

نقل الكتب اليونانية والفارسية وغيرها :

ثم إن العرب انتبهوا إلى وجود علوم راقية كالطب والفلسفة والمنطق والرياضيات والهندسة والكيمياء وغيرها عند أم أخرى أشهرها وأرقاها إذ ذاك اليونان ، فأحبوا الاطلاع عليها . وكان فريق من النصارى قد سبق لهم أن تعلموا لغة اليونان لاحتكاكهم بهم ودرسوا على علمائهم ونقلوا كثيراً من كتبهم إلى السريانية . فلما شعروا برغبة العرب في الاطلاع على هذه العلوم ، صاروا ينقلون للخلفاء والوزراء والعظماء كتب اليونان إلى العربية إما من ترجمتها السريانية أو من اليونانية رأساً . وكان النقل في بادئ الأمر من السريانية إلى العربية أسهل لتشابه اللغتين الأخنتين واشتراكهما في التعبير وفي كثير من الألفاظ . حدث أول نقل في زمن الأمويين لخالد بن يزيد بن معاوية . نقل له القس هارون الاسكندري شيئاً من كتب الكيمياء والنجوم والطب . ولكن جل النقلة كانوا على عهد العباسيين . نُقل لهارون الرشيد شيء قليل ، ثم كثر النقل في زمن المأمون وبمعه . فإن هذا الخليفة المحب للعلم هو الذي رغب النقلة وقربهم وأغدى عليهم العطاء ، فحصلت عند العرب تلك النهضة العلمية المعروفة في التاريخ . وكان النقلة كثيرين ، أشهرهم حنين بن إسحاق العبادي رئيس النقلة في بيت الحكمة الذي أنشأه المأمون . ومن مشاهير النقلة من الفارسية عبد الله بن المقفع ونقلت كتب قليلة من الهندية أيضاً .

هل صعب النقل إلى العربية على الناطقين :

لا أظنه صعب عليهم كثيراً ولو أن لكل نقل أو ترجمة من لغة إلى أخرى صعوبة ما لاختلاف في التعبير والتركيب ومغايرة خصائص اللغتين المنقول منها والترجم إليها واستعمال المجاز والاستعارة ، وبخاصة إذا لم يكن في اللغة المنقول إليها مصطلحات تؤدي معنى مصطلحات اللغة المنقول منها ، وقد وفقوا في نقلهم بفضل مرونة اللغة العربية وسهولة الاشتقاق فيها . إلا أنهم تركوا قليلاً من المصطلحات بألفاظها اليونانية لأنهم لم يستطيعوا يومئذ إيجاد مقابل لها بالعربية مثال ذلك : أناطوطيقا وسوفسطيقا وقاطاغورياس وارطاطيقا وايبذيميا . ثم أتى بعد ذلك من قابلها على الترتيب بالتحليل والمغالطة والقولات العشر والرياضيات والوافدة . وعربوا ألفاظاً لم يجدوا مندوحة من تعريبها حتى ظنّها بعض العرب لاحقة بالعربية كأنها منها . فإن كثيراً من علماء اللغة العربية لم يشعروا بعد استعمالها زماناً بأنها معربة ، بل

ظنوها عربية الأصل ، ككلمة جنس مثلاً العربية من Genus . وتركوا الأسماء اليونانية للنباتات التي لا تنبت في البلاد العربية على حالها . وهذا ضروري ، تعمل به جميع الأمم ، إلا إذا احتالوا لوضع اسم له في لغتهم . ولما تكاملت وتهذبت المصطلحات العربية في القرنين الثالث والرابع ، وكثرت التأليف عند العرب وازدهرت العلوم ، صارت اللغة العربية لغة علم وفن فضلاً عن أنها لغة أدب ودين . وأمست الأقوام التي دانت بالإسلام من غير العرب لا تستطيع التأليف في العلوم إلا بالعربية ، وهكذا كان شأن الفارابي والرازي وابن سينا وأضرابهم . وأخيراً لما تغلبت النزعات القومية على الوحدة الدينية ، صاروا يكتبون بلغاتهم العبارات العادية ، لكنهم يضطرون إلى استعمال المصطلحات العلمية العربية .

توقف سير العلوم عند العرب :

دام هذا الرقي عند العرب حتى كانوا طيلة بضعة قرون أعلم سكان الدنيا ، ومن مناهلهم كانت تغترف العطاش إلى العلم . لكنهم بقدر ما ارتقوا علماً انحطوا سياسة وتفرق شمل ، وحدتهم السياسية التي كانت لهم في الدولة الأموية ، وأفقدتهم الترف القدرة على معاناة الحروب والفاصمات فتسلط عليهم الأجانب وفقدوا استقلالهم . وكانت الطامة الكبرى استيلاء المغول على البلاد الشرقية وتغلب الأسبان على عرب أندلس وإخراجهم منه ، فعمقت أدمغتهم . غير أن شيئاً غير قليل من الحركة الفكرية كان قد بقي عندهم بقوة الاستمرار في الدولتين السلجوقية والألخانية . لكن هذه القوة كانت تضئف شيئاً فشيئاً حتى انطفأت أو كادت في الدولة العثمانية . حدث ذلك بعد أن تعلم الأوروبيون من العرب في أسبانيا وصقلية وصاروا ينقلون كتبهم إلى اللاتينية ويتدارسونها . وأصبحنا الآن نتطفل على موائد علومهم .

دورنا الحاضر :

لما صحنوا مما ألم بنا من صدمة استيلاء الأجانب على بلادنا ، وجدنا قافلة العلوم والفنون والصنایع قد سارت وتركنا وراءها بميدین . فرجمننا نتعلم من الذين كنا علمناهم ، واحتجنا إلى نقل كتبهم وتعلم علومهم ، كما احتجنا إلى نقل علوم اليونان من قبل . ورأينا ما كنا وضعناه من المصطلحات لم يعد يكفي لما وضعه الفرنج من المصطلحات التي تعد بعشرات الألوف . فإذا عملنا اتلافی هذا النقص ؟ سارت مصر سیراً حسناً بفضل الحديوى محمد على باشا

العظيم الذي أسس المدارس وجلب لها معلمين من الفرنج منهم كلوت بك الشهير ، وأنشأ جيلاً متعلماً يحسن العربية والفرنسية ، فأمرهم هو ومن أتى بعده بنقل وتأليف كتب العلم وأوقفت مدرسة أبي زعبل الطبية ، ووُضعت مصطلحات جيدة كان الافتقار إليها عظيماً . وأنشئت بيروت الكلية الأمريكية ، وعلمت باللغة العربية وخدم رئيسها الدكتور فان ديك العربية خدمة جلي بتأليفه ، فكان الأمل بمصر وبيروت عظيماً . ولكن يا للأسف ، استولى الإنكليز على مصر فجعلوا لسان التدريس في مدرسة الطب وغيرها الإنكليزية ، وصارت الكلية الأمريكية ببيروت تعلم بالإنكليزية أيضاً ، بحجة عدم وجود أساتذة متخصصين يحسنون العربية . وهكذا أصيب لساننا العلمي بنكسة كبيرة . فلو بقي التدريس بالعربية لاغتنى لساننا بالمصطلحات العلمية لأن الحاجة أم الإيجاد . والآن ، لما كان شبابنا يتعاملون العلوم بغير لسان أمهاتهم ، لا يكادون يفكرون في البحث عما ينقص العربية من المصطلحات ، لا بل يشيخون بوجوههم عما يجدونه منها . والإنسان عدو ما جهل . نرى الأطباء عندما يجتمعون لمباحثة طبية لا يسمع من أفواههم سوى رطانة أجنبية يخاطبها كلمات عربية عادية . وكما ازداد عدد المتعلمين بلسان غير عربي ، كثرت هذه الرطانة وأهملت العربية . فإذا لم تعالج الحالة معالجة أساسية ، ازدادت سوءاً . وما المعالجة الأساسية إلا جعل التعليم في المدارس العالية باللسان العربي . عندها يحس بالنقص الموجود فيسمى ذور الاختصاص إلى تلافيه . نعم لدينا مجامع لغوية علمية تففق عليها الحكومات العربية بسخاء وهي تضع ، ولو ببطء ، مصطلحات لشتى الفنون . ولكن لمن تضع هذه المصطلحات إذا لم توجد مدارس تعلم بالعربية فتستعملها ؟ لذا يحق لنا أن نقول إن جامعة دمشق أحسنت صنماً بجعلها التعليم باللغة العربية .

وقد خطت خطي لا بأس بها بإيجاد مصطلحات صالحة . فإن لم تصل إلى درجة الكمال بعد أو كان قليل من مصطلحاتها غير واف بالمرام فإن الزمان كفيل بتدريجها إلى الكمال ، وكل من سار على الدرب وصل .

فلذلك أتح بقوصية سائر الجامعات والكليات العربية أن تعمل كما عملت دمشق ، وإلا فلا نجاح للعربية .

قد كان بعض المدرس بالإنكليزية أو الفرنسية لعدم وجود أساتذة عرب أكفاء للقيام بالتدريس ، والآن قد زال هذا المدرس بوجود مدرسين عرب قادرين على التدريس . وأما قول من يزعم بأن العربية لا تصلح لتدريس العلوم العالية لنقص المصطلحات

فيها ، فهو قول هراء يراد به الخداع والمغالطة . نعم يوجد نقص في المصطلحات العربية ولكن هذا لا يمنع التدريس بالعربية ، لأن المصطلح الذي لا مقابل له بالعربية الآن ، يمكن ذكره بلسان أجنبي وقتياً إلى أن يوجد له مقابل . فنكون بذلك قد عملنا ما عمله أسلافنا في نقلهم من اليونانية ، فإنهم تركوا أولاً ما لم يستطيعوا إيجاد مقابل عربي له كما هو باليونانية ، ثم وجدوا له ما لم يجدوه أولاً ، كالأمثلة التي أوردناها آنفاً وهو قولهم أنالوطيقا ثم قولهم التحليل ... الخ .

هل العربية عاجزة عن أن تكون لسان علم :

ليست العربية بذاتها قاصرة عن أن تكون لسان علم ولكن التقصير من أبنائها الذين أهملوها . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى تجد من أقوى أسباب بقائها متأخرة عن بعض لغات الفرنج ظلم أعدائها لها ومحاربتها في عقر دارها ، أعني تسلط الدول الأجنبية على معظم الأقطار العربية وطردها لفتنا من المدارس العالية . أما الدليل على قدرتها فالرقى العلمي والتأليف الفاخرة في الدولة العباسية ، وكونها المهل العلمي الوحيد في الدنيا في تلك العصور . ودليل آخر نجاح التعليم بالعربية في مدارس الطب وغيره بمصر على عهد محمد علي وبعده إلى أن أقامت الدولة المتسلطة اللغة الانكليزية مكانها . ودليل آخر تدريس الترك العلوم في مدارسهم العالية بمصطلحات عربية . وآخر دليل نجاح التدريس بها في الجامعة السورية .

المقارنة بين العربية واللغات الفرنجية :

العربية من اللغات السامية ، واللغات الفرنجية الراقية هي من اللغات الآرية . ولكل منها خصائصها . فمن مزايا اللغات الأوروبية وجود أدوات كثيرة فيها ، منها ما يلحق بأوائل الكلمات (اللواحق prefixes) ومنها ما يلحق بأواخرها (الكواسم suffixes) فينقل معنى الكلمة إلى معنى آخر يختلف قليلاً أو كثيراً عن معنى الكلمة الأصلية حسب المقصود . ومن مزاياها أيضاً إلصاق كلمتين أو أكثر وجعلها كلمة واحدة تفيد معنى جديداً . وقد أحرزت اللغة الألمانية هاتين المزييتين أكثر من سائر اللغات بحيث لا يصعب فيها تسمية اختراع جديد أو أداء معنى مراد أو وضع اصطلاح حديث وذلك دون استعانة كبيرة باليونانية واللاتينية . يقابل مزية كثرة اللواحق والكواسم في لغات أوروبا مزية الاشتقاق بالعربية ، فإنها مزية عظيمة لا يضاهيها شيء في سائر اللغات . وأما الكلمات المركبة من

كلمتين أو أكثر تركيباً مزجياً في لغات أوروبا فيمكن التعبير عنها في العربية بالتركيبين الإضافي والوصفي .

كيف يمكن أن يكون لدينا مصطلحات علمية طافية ؟

يجب أن تقوم بهذا منظمة مركزية لها تخصصات كافية لهذا الغرض كجمع اللغة العربية لغوؤا الأول أو لجنة الثقافة في جامعة الدول العربية أو غيرها . تطلب هذه المنظمة وضع مصطلحات كل علم على حدة من ثلاثة علماء تختارهم من المتخصصين بذلك العلم على أن يكونوا ذوي اطلاع واسع على العربية وعلى لغة أوروبية ، وتحديد لهم زماناً كافياً عند انتهائهم يقدمون ما وضعوه من المصطلحات ، فتدرسه المنظمة وتقابل بين ما وضعه الثلاثة وتختار ما يرجح عندها ، ولا تكفى بإعلانه في المجلات والجرايد ، بل ترسل نسخاً منه خصيصاً للذين لهم اشتغال بتلك المواضيع ليبدوا آراءهم فيها . ثم تجمع آراء هؤلاء وتمحصها وتقابلها مع ما كانت أعلنته وتثبت أو تبدل أو تعدل حسب ما يبدو لها ويكون هذا قرارها الأخير فتشره بصورة نهائية وتطلب من المدرسين والمؤلفين استعماله . وعلى هؤلاء أن يتركوا العناد وألا يستعملوا كلمات غيرها حسب أهوائهم . تطبق هذه القاعدة على علم علم ، وفي العلوم الواسعة كعلم الطب على شعبه .

وعلى من يطلب إليهم وضع مصطلحات في علم ما أن يطالعوا كل ما كتب بالعربية في ذلك العلم قديماً وحديثاً منذ النهضة العباسية ، ويلتقطوا ما يرونه صالحاً ويقيدوه ثم يأخذوا بمطالعة معجم كبير كتاج العروس مثلاً من أوله إلى آخره وينقلوا منه كل ما يرونه مفيداً في وضع مصطلحات لذلك العلم . وبعد الانتهاء من المعجم يراجعون ما سجلوه ويختارون منه الأصلح ، وهكذا يكونون قد أكلوا شغلهم . وهذا شغل ليس بالهين ، بل هو عمل شاق متعب يستلزم صبراً ومثابرة ، فيجب مكافأة القائمين به بسخاء .

انتقاء المصطلحات :

(١) يجب قبل كل شيء ترجيح مصطلحات الكتب القديمة الواصلة إلينا من الدور العباسي فما بعده كيلا تنقطع الصلة بين ماضينا وحاضرنا ولأن تلك المصطلحات حاضرة مهيأة وهي رصينة متقنة قد رسخت وملأت كتبنا ، فيجب ألا ننبد منها إلا ما كان فيه قصور ظاهر .

(٢) يختار من الألفاظ ما ليس بغريب إن أمكن ، ولكن إذا وجدت لفظة عربية أو معربة تطابق المعنى المطلوب تماماً إلا أنها غريبة غير مأنوسة ، يجب ألا نتردد في أخذها

سواء استعملت قبلاً أم لم تستعمل . لأن ما كان غير مأنوس يصبح مأنوساً بالاستعمال ، وأكل الخبز (الخشكار) عند فقد الحُثْواري خير من الاستجداء .

(٣) يجب ترجيح الكلمة العربية على العربية إن وجدت ، وإلا فيجب عدم التردد في قبول المعرب قديماً .

(٤) يجب عدم التعريب حديثاً إلا في الضرورة القصوى وبعد انقطاع الرجاء من وجود كلمة عربية تؤدي المعنى المطلوب ، وبشرط مراعاة قواعد التعريب .

(٥) يجب ترجيح الكلمة الواحدة على الكلمتين والكلمتين على الثلاث في الاصطلاح . ولكن بشرط أن تؤدي الكلمة الواحدة المعنى المطلوب تماماً ، وإلا يرجح عليها الكلمتان . فإني وجدت الإفراط في ترجيح الكلمة الواحدة قد أدى عند بعض المعاصرين إلى اختيار مصطلحات بعيدة كل البعد عن إفادة المعنى المطلوب . مثال ذلك استعمال المعهد الطبي العربي (التناذر) لما تسميه الفرنج syndrome عوض أن يقولوا (مجموعة أعراض) فإن تناذر القوم تناذراً أي أنذر بعضهم بعضاً لا تؤدي المعنى المطلوب من كلمة سفندروم

(٦) يجب تجنب الترادفات . فإن الإتيان بكلمتين مترادفتين أو أكثر لمصطلح واحد إنما يدل على تردد الآتي بها وجهله أيها أفضل ، ويوقع المراجع في حيرة لا يدري أيها يجب أن يختار في استعماله ، ويكثر عدد المصطلحات بلا فائدة .

(٧) لا يستعمل الفتح إلا نادراً جداً عند الضرورة القصوى وبشرط ألا يحذف من الكلمتين المفتوح منهما حروف كثيرة بحيث لا يعلم أصلهما بل يجب أن يكون ما يبقى من حروفهما أكثر مما يحذف

(٨) الذوق العربي كثيراً ما يرجح التركيب الإضافي بخلاف الذوق الغربي فإنه يرجح التركيب الوصفي . فيجب عدم متابعة الفرنج في أدواقهم دائماً .

كلام في اصطلاحات بعض العلوم :

العلوم كثيرة ليس من شأننا هنا أن نعددها ، ونشكك عما يجب أن تكون مصطلحات كل واحد منها . لكننا نجتري بالذكر بعضها فنقول :

الفلسفة :

كتب أحد المتفلسفين وزعم أن مصطلحات الفلسفة تأتي أن يكون لها مقابل بالعربية ، لأن كثيراً ما يكون المصطلح الواحد عند فيلسوف معناه كذا وكذا ، وعند فيلسوف آخر

يختلف معناه عن المعنى الذى أراده الفيلسوف الأول ، وربما استعمل ثلاثة فلاسفة كلمة واحدة بـمعان مختلفة . أقول ما أسهل العمل فى هذه الحال ! نكون واقعيين ونعمل كما عملوا . فنترجم المصطلح ذا المعانى الكثيرة بكلمة واحدة كما هو عندهم ونقول ، عند الاقتضاء ، إن المقصود منه عند فلان كذا وكذا كما يقولون هم أنفسهم .

علم الحقوق :

مصطلحات الفقه عندنا تامة . لا يحتاج دارس الحقوق إلا إلى ترجمة مصطلحات خاصة بالحقوق عند الرومان والفرنج على ما أظن .

علم النبات :

لأكثر النباتات اسمان ، اسم لغوى فى مختلف اللغات ، واسم علمى وضعه علماء النبات . فعند ترجمة الاسم اللغوى يجب ذكر أشهر اسم له عند العرب ، وإتباعه بسائر الأسماء فى مختلف البلدان العربية ليعرف . أما الاسم العلمى فهو مكون فى الغالب من كلمتين لاتينيتين أو يونانيتين . فنحن علمائنا من يقول بلزوم استعمال الاسم العلمى للنبات كما هو ، كما نسمى الرجل باسمه الذى سماه به والداه . لكننا إذا فعلنا ذلك نكون قد ملأنا كتبنا بألفاظ لاتينية غريبة عن لغتنا . إنى أرى أن نترجم اسم النبات العلمى ترجمة كلنا اقتضى فنقول مثلاً للسوس (السوس الأجرد *Gbycyrrhysa glabra*) ، ولالمبروح (المبروح الخزفى *mandragora officinarum*) ، وللأنبة (الأنبة الهندية *mangifera indica*) ، والسوسن الاسمانجوتى (السوسن الجرمى *Iris germanica*) ، ونبات المغاث (اسانى الأسدية ابروغياذ *Glossosteman Bruguiera*) ، وبروغياذ اسم رجل ، ولالجنتيانا (الجنتيانا الصفراء *Geostiana luisa*) . وبعمل عين العمل بأسماء الحيوانات .

الكيمياء :

لا مفر من استعمال اللواحق والكواسع المعروفة فى الكيمياء . وتركب الاسم كتركيب الفرنسيين فنقول كلورور الكلسيوم *chlorure de calcium* ، أما عند الإنجليز فيختلف ، فإنهم يقولون *calcium chlorid* بتقديم وتأخير .

علم المعادن :

ليس لنا بالعربية إلا قليل من الأسماء لمختلف الحجارة ، فيجب أن نترجم الكلمة الأصلية ونستعمل كلمة حجر مكان *ite* . أمثلة ذلك : *calcite* حجر الكلس ، *ferroplumbite* حجر الحديد والرصاص ، *magnétite* حجر المغنطيس ، *chalcanthite* حجر زهرة النحاس . أما الجواهر أى الحجارة الكريمة فقد سبق لى ذكرها بأسمائها العربية والفرنسية فى جدول الحقة بمقالة لى عنوانها (ملاحظات على نخب الذخير فى أحوال الجواهر) نشرت فى مجلة المجمع العلمى العربى سنة ١٩٤٤ فى جزئها الخامس والسادس الزوج من مجلداتها التاسع عشر والجزء الذى يليه ص ٢٤٥ و ٣٤٣ .

الطب :

كفت حاضرت فى مصطلحات الطب فى المؤتمر الطبى المنعقد ببغداد سنة ١٩٣٨ ونشرت محاضرتى فى المجلة الطبية المصرية فى يناير ١٩٣٩ فى عددها الأول من سنتها الثانية والعشرين ص ٧٢ ، تلخصها كما يأتى : لا تعرب كلمة فرنجية تريد مقاطعها على الحقة ، ولا الكلمات المنتهى به *ture, ment, tion* وما شابهها بل نترجم ترجمة لأنها منافية فى صيغتها للعربية كل المناقاة ، ولأن العربية غنية بأسماء الأفعال — تقابل *ite* و *itis* بكلمة التهاب مضافة إلى المصو المتهب : *gastrite* التهاب المعدة — تقابل *isme* أو *ismus* بكلمة حالة إذا كانت دالة على حالة مرضية *ménigisme* حالة سحائية . وإذا دلت على تسم وتستعمل كلمة *alcoolisme* تسم بالمول . وإذا كانت لدلالة على علم أو مذهب ، فتقابل غالبا بأداة جمع المؤنث السالم بعد ياء النسبة *spiritisme* روحيات أو روحانيات أو بكلمة مذهب أو فلسفة *matérialisme* مذهب الماديين أو الفلسفة المادية — تقابل *tomie* بشق و *ectomie* بقطع : *néphrotomie* شق الكلى *néphrectomie* قطع الكلى — ترجم *logie* بعلم إذا كان المقصود علما قائما بذاته ، ويبحث إذا كان فرعاً من علم أو فعلا فى استتباب *pathologie* علم الأمراض ، *toxicologie* مبحث السموم — تقابل *ique* بياء النسبة بمدها أداة جمع المؤنث السالم *physique* طبيعيات (أو قل فيزياء) ، وإذا أفادت الإصابة بمرض فتقابل بكلمة مصاب *asthmatique* للصاب الربو ، ويمكن استعمال صاحب عوضاً عن مصاب فيقال صاحب الربو . وتأتى بالعربية صيغة المفعول مشتقة من اسم المفعول

المصاب للدلالة على الشخص المصاب : cystique ممشون ، néphrétique مكلو ،
hépatique مكبود ، ومثلها مفتود ، ومعمود . ونأتى أحياناً مشتقة من اسم المرض :
apoplectique مسكوت paralitique مفلوج ، ويؤدى وزن أفعل عين المعنى أحياناً .
ophtal-mique أرمد ، acromégalique افتخ . ومثل ique فى النسبة إلى المرض الأداة
eux lépreux مجذوم ، cancéreux مسرطن ترجم ose أو osis بداء trichinose
التريشين actinomycose داء الفطر الشعاعى ، ويستعمل وزن فعال بضم الفاء كلما أمكن .
cyanose زراق idipose douloureuse شحام موجع — a أو an النافية ترجم حسب
المعنى المطلوب بلا وعدم وعديم وانقطاع وقطع ونقصان واحتباس وفقد وزوال وإزالة وبطلان
وإبطال astigmatisme لا بؤرية ، asymétrie عدم التناظر amorphe ، عديم الشكل ،
acholie انتقطاع الصفراء amnésie نقصان الذكر ، aménorrhée احتباس الطمث ،
agraphie ، فقد الكتابة ، achromatisation إزالة اللون ، analgésie بطلان الألم ،
anesthésic ، إبطال الحس — ترجم able و ible يقابل أو يقبل أو بالفعل المضارع من نفس الكلمة :
acidifiable قابل للتحميض ، réductible يقبل الرد ، guérissable يشفى — ترجم
pathie بمرض و dynie بوجع و algie بألم و dysome بعسر و بورم و mégalie بضخامة
و phobie بخوف أو تفور و thérapie بعلاج و mètre بمقياس و métrie بقباس :
névropathie مرض عصبى ، pleurodynie وجع الجنب ، odontalgie ألم السن ،
dyspepsie عسر الهضم ، carcinome ورم سلطانى ، oplénamégalie ضخامة الطحال
hydrophobie خوف الماء radiothérapie علاج بالأشعة thermomètre مقياس الحرارة
alcoholométrie قياس الفول .

التعاون الأُمرى بين البلاد العربية

للكنور زكى محمد حسن

من نافلة القول أن نمرض هنا لوجوب التعاون بين البلاد العربية وأن نسرّد الوسائل التى تؤدى إليه ، فهذه كلها أمور مفروغ منها ، وقد وفاها حقها المؤتمر الذى عقدته الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية بدمشق فى شهر سبتمبر من العام الماضى .

ولارىب فى أن من أهم مقررات المؤتمر « أن تعمل جامعة الدول العربية على تأليف هيئة من المؤسسات العلمية الأثرية فى الدول العربية لتقوم بأعمال التنقيب ، وأن تعمل الجامعة على أن تحصل على إذن جلالى ملك اليمن وملك المملكة العربية السعودية بأن تبدأ هذه الهيئة عملها بدراسة الآثار فى هاتين الملكتين ، واقترح ما يلزم للقيام بأعمال التنقيب فهما نظراً لأهمية تاريخ اليمن والبلاد السعودية فى تاريخ الأمة العربية » . وتأليف هذه الهيئة هو الوسيلة المثلى لتعاون العرب فى كشف آثار شبه الجزيرة تعاوناً يحقق النفع العالمى ، ويحمد من أطاع الهيئات العلمية الأجنبية فى القيام بأعمال التنقيب عن الآثار فى هاتين الملكتين العربيتين ، ويرد ما نكيله هذه الهيئات من تهم للملكتين بشأن انصرافهما عن التعاون بفتح أبوابهما للبحث العالمى .

وفى رأينا أن جامعة الدول العربية مسئولة عن السعى لتنفيذ هذا المشروع . وإذا كانت بعض العقبات السياسية فى هذه الأيام قد تؤخر هذا التنفيذ فلا أقل من تأليف الهيئة المطلوبة ودرس النهج الذى يجب أن تسير عليه والأهداف التى تعمل لها . ومن المضى فى إتمام البحوث التمهيدية لعملها ، حتى يكون ذلك كله معاداً حين تتم موافقة الملكتين العربيتين . بل إن هذا الإعداد قد يساعد فى الحصول على موافقتهما على هذا المشروع العلمى الجليل .

وكان من مقررات مؤتمر الآثار « أن تعمل سلطات الآثار فى بلاد الجامعة العربية على تبادل التحف التى يمكن الاستغناء عنها ، وذلك لإمكان تمثيل مختلف الطرز الفنية فى متاحف تلك الدول » . ولارىب أن هذا من أول وسائل التعاون التى نشدها فإن كل بلد من البلاد

العربية غنى بأنواع معينة من الآثار ، ولكن متاحفه فقيرة جداً في التحف التي تمثل الطرز الفنية التي ازدهرت في البلاد العربية الأخرى . فمتاحف لبنان وسوريا والعراق خالية من الآثار الفرعونية التي تفخر بها متاحف الدول الأوروبية والأمريكية المختلفة . وفي مخازن مصلحة الآثار المصرية ومراكز الحفائر المختلفة في مصر كميات وافرة من الآثار الفرعونية المكررة يمكن أن تقدم إلى متاحف هذه البلاد العربية الشقيقة لتمثل فيها الحضارة التي قامت على ضفاف النيل في العصور القديمة . كما أن حفائر الفسطاط قد أسفرت عن ألوف التحف التي تمثل تطور الصناعات والفنون المختلفة في مصر الإسلامية . وهي عظمة الشأن في تسجيل هذا التطور ، على الرغم من أن معظمها قطع مكسورة وغير كاملة . وفي استطاعة دار الآثار العربية أن تقدم مجموعات كبيرة من مخازنها في حفائر الفسطاط لتعرض في متاحف الأقطار الشقيقة فتسد فراغا ملحوظا في مجموعات هذه المتاحف . والمعروف أن المتاحف المصرية فقيرة جداً في التحف التي تمثل الحضارة التي ازدهرت في العصور القديمة في بلاد النهرين ، بل أنها فقيرة أيضاً في التحف التي تمثل الطرازين العباسي والسلجوقي من الطرز الفنية الإسلامية التي ازدهرت في تلك البلاد . ولا شك في أن دائرة الآثار القديمة في العراق تستطيع أن تقدم إلى مصر وسائر الأقطار العربية ما يسد بعض النقص . ومتحف لبنان غني بالتحف التي تمثل الحضارة الفينيقية ، كما أن الحفائر التي تقوم بها مصلحة الآثار اللبنانية تسفر عن كشف كثير من هذه التحف . ومن الخير أن تكون هذه الحضارة ممثلة في متاحف سائر الدول العربية ، ولا ريب في أن لبنان يستطيع أن يسهم في سد النقص الموجود في هذا الميدان . وسوريا غنية في التحف التي تمثل الحضارات القديمة في الشام ، كما أنها غنية أيضاً بالزخارف المهارية التي تمثل الطراز الأموي من الفنون الإسلامية . وطبيعي أنها تستطيع مثلاً أن تقدم إلى الدول العربية الأخرى بعض التحف المكررة في متحف دمشق وحلب ، أو بعض نماذج الزخارف المهارية من قصر الحير ، في سبيل الحصول على تحف تمثل سائر الحضارات والطرز الفنية التي ازدهرت في الشرق الأدنى .

كل ذلك حسن جداً وواضح كل الوضوح ؛ ولكن الإبطاء في تنفيذه هو الذي يستحق أن ندهش له . وفي رأينا أن وزارات المعارف ودوائر الآثار في البلاد العربية المختلفة يجب أن تبادر بتأليف لجنة من رجال المتاحف وعلماء الآثار في كل منها لبحث الموضوع بحثاً وافياً ، وإعداد بيان بأنواع التحف التي يمكن النظر في إهدائها إلى سائر البلاد العربية . على أن تتبادل وزارات المعارف ودوائر الآثار هذه البيانات ، لتكون أساساً لاتصال وتقام

يعقبهما تبادل الآثار بين البلاد العربية المختلفة . ولكن ثمة مسألة يجب إثارتها في هذا الصدد . وهي أن قوانين الآثار في معظم البلاد العربية تحرّم إخراج التحف المسجلة من المتاحف ولو كانت مكررة . وربما أدى ذلك إلى أن تكون التحف التي يمكن تبادلها بين البلاد العربية من الآثار الضئيلة الشأن .

والحق أننا لا نرى إلى أن تكون تلك التحف مما لا يمكن المتاحف الاستغناء عنه . وقد يكون بين التحف غير المسجلة في المتاحف وبين ما تكشف عنه الحفائر ما يكفي لتمثيل مختلف الحضارات والطرز الفنية في متاحف البلاد العربية المختلفة تمثيلاً يمكن الاطمئنان إليه . ومع ذلك كله فإن طرفاً من هذه المسألة يجب أن يكون موضع البحث والدراسة العلمية والقانونية في دوائر الآثار المختلفة . ذلك أن بين التحف المسجلة والعظيمة الشأن في بعض المتاحف طائفة من نوع واحد ، ومن الخير أن ننظر هذه المتاحف في إمكان مبادلة بعضها بتحف أخرى . ولعل خير الأمثلة على ذلك ما في دار الآثار العربية بالقاهرة من مشكيات من الزجاج الموء بالينا . فإن في هذه الدار من المشكيات أكثر مما في سائر متاحف العالم وبمجموعاته الفنية مجتمعة . وبقدّر ثمن المشكاة بألوف الجنيهات ، ولكن دار الآثار العربية في حاجة ماسة إلى كثير من التحف الغالية التي تمثل سائر مبادئ الفنون الإسلامية . فهي لا تزال فقيرة في السجاد وفي فنون الكتاب وفي التحف التي تمثل الطرز الفنية الإسلامية التي ازدهرت خارج وادي النيل . ولا شك عندنا في أنها نتمنى أن تستطيع الحصول على بعض هذه التحف الغالية التي تنقصها ، حتى ولو كان السبيل إلى ذلك التنازل عن عدد من تلك المشكيات المكررة . ولكن النواحي والقوانين لا تسمح ببيع التحف المسجلة في الدار ولا تجيز مبادلها . بيد أن هذا كله لا يمنع من درس المسألة نأو سول إلى حلّ سليم فقد يمكن أن يعدّل القانون في هذا الشأن . وقد ينظر في إعادة مثل هذه التحف المكررة إلى متاحف الدول العربية الشقيقة إعادة طوية أو دائمة . وقد يهتدى أولو الأمر إلى حلول أخرى . فلا بد إذن من أن تبادر الهيئات المختصة إلى وضع المسألة كلها على بساط البحث ، ولا سيما أن من بين التوصيات التي انتهى إليها مؤتمر الآثار في البلاد العربية « أن يوضع في قانون كل دولة ما يبيح تبادل بعض الآثار المكررة ، أو إهداءها تسهيلاً لتبادل الآثار بين المتاحف .

ومن الأمور التي يجب أن يتجلى فيها التعاون بين البلاد العربية ، تبادل المطبوعات في الآثار والصور ونماذج التحف بين تلك البلاد . والحق أننا نود أن يكون في معهد الآثار بجامعة

فؤاد الأول سجلاً مصوراً بجمع رسوم الآثار والتحف في البلاد العربية كلها ، ليرجع إليه الاختصاصيون فيما يكتبونه عن المآثر والفنون الإسلامية . وليس مثل هذا « الأرشيف » بدعة أو أمراً صعب التنفيذ . وفوائده العلمية تبرر ما يتكلفه من نفقات يمكن توزيعها على عدد من السنين ، بحيث يتهيأ لنا بعد فترة من الزمن السجل الجامع الذي نطلبه والذي يمكن أن يصبح مرجعاً للاختصاصيين في الآثار من البلاد العربية كلها ، فضلاً عن الاختصاصيين في آثار الشرق الأدنى من العلماء غير العرب . ولا ريب أن مثل هذا السجل المصور الجامع سيكون خير عون للأساتذة في شرح محاضراتهم عن تلك الآثار . بل إن معهد الآثار قد يستطيع بفضلله أن يخصص بالعناية الآثار القديمة في البلاد العربية الشقيقة كالآثار السومرية والبابلية والآشورية والفينيقية . وهي الآثار التي لا تحظى الآن بالعناية اللازمة في هذا المعهد . ولن تستطيع دول الجامعة أن تحقق التعاون الأثرى بينها ، إلا إذا زاد الاتصال بين الاختصاصيين في الآثار بها . على أن يكون هذا الاتصال متشعب الوجوه . كأن يقضى بعض الاختصاصيين في مصلحة الآثار أو المتاحف في إحدى الدول العربية فترة من الزمن يعملون فيها بدوائر الآثار في دولة عربية أخرى . وكأن يدعى الاختصاصيون والقائمون بأعمال الحفر في إحدى الدول العربية لإلقاء محاضرات في معاهد الآثار والمتاحف بالدول العربية الأخرى ، يعرضون فيها نتائج بحوثهم ، ويطلعون الزملاء على ما يوقفون إليه من كشوف . بل إن من الخير أن يزور المشتغلون بالحفر الأثرى في أي بلد من البلاد العربية مناطق الحفر في سائر الأقطار الشقيقة للاطلاع على وسائلهم العلمية ، وتبادل الآراء الفنية التي تؤدي إلى تقدم هذه الناحية من علوم الآثار حتى يتهيأ للقائمين بالحفر من الاختصاصيين العرب أن يصلوا إلى ما وصل إليه زملاؤهم الغربيون من توفيق في هذا الميدان .

وفضلاً عن هذا فإن الدول العربية كلها تسمى إلى أن يكون من أبنائها من تستطيع أن تعهد إليهم بأعمال الحفر الأثرى فيها ، وذلك للحد من مطامع البعثات الأجنبية في آثار البلاد العربية . ومن الطبيعي أن تؤثر كل دولة عربية الاختصاصيين من أبناء سائر البلاد العربية في القيام بالحفائر الأثرية ، إذا لم يتهيأ لها من أبنائها من يستطيعون أن يأخذوا على عاتقهم هذه المهمة بغير عون خارجي .

ولا ريب في أن القائمين على الآثار في البلاد العربية يحسنون صنعا إذا عملوا على أن يكون بينهم اتصال وثيق لتنسيق كثير من الأمور المشتركة ، مثل قوانين حماية الآثار والتجارة في التحف ، ومنح امتياز القيام بالحفائر ، ومثل تنظيم المتاحف والسكنات عن معروضاتها .

وترميم العماز وتدريس الآثار والاتفاق على المصطلحات الفنية في علوم الآثار . فطبيعى أن اتحادهم في هذا الميدان قوة لا يستهان بها ، وأن كلا منهم يستطيع الإفادة من تجارب زملائه ، وأنهم يستطيعون - بعد هذا التنسيق في أعمالهم - أن يتقدموا جبهة واحدة في أى منظمة أو مؤتمر من المنظمات أو المؤتمرات الدولية في شؤون المتاحف والآثار . ومما يؤسف له أن الاختصاصيين في الآثار من أبناء البلاد العربية ليس بينهم من الاتصال والتعاون في الوقت الحاضر ما يمكن أن يحقق النفع العلمى المطلوب ، فإن كلا منهم يعمل على حدة ولا يكاد يتصل إلا بطائفة من الاختصاصيين في الغرب ، حتى أن القليل الذى نعرفه معشر العرب من رجال الآثار ، عن السكشوف الأثرية في البلاد العربية ، لا نكاد نأخذه إلا عن الغربيين . أما ما نعرفه عن أصوله في ديار العرب وعن زملائنا في الأقطار الشقيقة ، فلا يزال ضئيلا ، ولا يناسب الجهود التى يبذلها كل منا في ميدان اختصاصه . وإذا كان الاتصال في الإنتاج الأدبى وثيقا بين البلاد العربية فلأن عماده القراءة وانتشار المؤلفات . أما في الآثار فإن القراءة وانتشار المؤلفات العربية لا يكفيان . فلا بد من الاتصال الشخصى والدراسة في المتاحف ، وزيارة العماز ومناطق الحفر وتبادل الآراء في مختلف الأمور .

اليمن وآثارها

الدكتور أحمد فخرى

١ - مقدمة :

إذا جاء ذكر الحضارة العربية أو أثر جزيرة العرب في التقدم الإنساني ، ينصرف ذهن أكثر الناس إلى الوقت الذي ظهر فيه نور الإسلام فلأ قلوب العرب ، ووحد بينهم ، فخرجوا يفتحون الأمصار ، وأنشأوا إمبراطوريتهم العظيمة .

ولكن قبل أن يولد النبي العربي صلى الله عليه وسلم بأكثر من ١٥٠٠ عام كانت هناك في بلاد العرب حضارة عظيمة ، لا تقل عن حضارات بلاد الشرق الأخرى ، وما زالت بقايا هذه الحضارة قائمة في بعض جهات اليمن ؛ فعابد الممينيين وآثارهم الأخرى التي بنيت في القرن الثامن قبل الميلاد ما زالت تطاول السماء بأسوارها الضخمة ، وأعمدتها المرتفعة ، كما نقش سكان اليمن القدماء على جدران بعض معابدهم وعلى لوحات من الحجر والنحاس بعض أخبارهم ، فأصبحنا نعرف الكثير عنهم . وليس القرن الثامن قبل ميلاد المسيح عليه السلام هو مبدأ ظهور الحضارة في اليمن ، ولكنه تاريخ محدد معروف ، ولا شك في أن بدء ازدهار الحضارة في تلك البلاد يعود إلى عصر أقدم من هذا العصر ببضع مئات من السنين ، أو أكثر من ذلك ، كما أن صلة اليمن بالبلاد المجاورة لها تعود إلى آلاف السنين ، ولا يخالفنا شك في أن دراسة آثار اليمن بمد حفرة مناطقها الأثرية ، سيليقي كثيراً من الضوء ، ليس على تاريخ الجزيرة العربية أو الجنس السامي فحسب ، بل ستوضح لنا الكثير عن صلة الحضارات القديمة بعضها ببعض ، والدور الذي لعبه قدماء الممينيين في تاريخ حضارة الشرق .

٢ - أقدم العصور بين اليمن وغيرها من البلاد :

نعرف من الآثار المصرية أن المصريين القدماء كانوا يقومون منذ فجر تاريخهم برحلات بحرية في البحر الأحمر لإحضار البخور وبعض أشياء أخرى من بلاد بونت ، وهي البلاد الواقعة حول بونغاز باب المندب ، على الشاطئتين الآسيوى والأفريقى ، أى بلاد الصومال وجنوب اليمن وحضرموت .

وقد كثرت هذه الرحلات منذ ألقى عام قبل الميلاد ، واستمرت حتى آخر أيام الحضارة المصرية ، وأشهر هذه الرحلات هي الأسطول الكبير الذي أرسلته الملكة « حتشبسوت » في القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، وعاد محملاً بخيرات تلك البلاد ، كما عاد أيضاً ومعه أشجار البخور . لغرسها في حدائق معبد الإله آمون . وقد نقش الفنانون المصريون على جدران معبد هذه الملكة في البر الغربي بالأقصر ، وهو المعروف باسم معبد الدير البحري تفاصيل هذه الحملة وخيرات بلاد بونت ، ورسوموا بعض بيوتها وأهلها وحيواناتها وأسماك البحر الأحمر . ومما يجدر ذكره أن الصلات التجارية بين مصر واليمن لم تقتصر على مدن الشاطئ ، بل وجدت طريقها إلى داخل البلاد . وقد رأيت في رحلتي إلى اليمن في العام الماضي بعض الآثار المصرية ، وأهمها جمران من عهد الملك « امينوفيس الثالث » من الأسرة الثامنة عشرة المصرية ، في أوائل القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، وبعض آثار مصرية أخرى ، يرجع تاريخها إلى القرن السادس من قبل الميلاد . ولكن هناك ما هو أهم من هذه الصلات التجارية . ولقد عرف المصريون أن بعض أجدادهم أتوا من طريق قنط القصير ، كما أنهم كانوا يعلمون أن بعض آلهتهم وخاصة الإله حورس أتاهم من المشرق ، وأحياناً يقولون من الجنوب ، وليس الإله حورس هو الإله الوحيد الذي جعلوا بينه وبين بلاد العرب صلة بل إن هناك آلهة أخرى أشهرها الإله « بس » الذي كانوا يذكرون دائماً نسبته إلى بلاد بونت .

وكما اتصلت اليمن بمصر فإنها اتصلت بعهد الحضارة الآخر في العراق ، فقد ورد على آثار السوميريين منذ عام ٣٤٠٠ ق م . إشارات إلى الصلة بينهم وبين الجزيرة العربية ، وفي أحبار الملك « نيجلات باسر الثالث » حوالي عام ٧٣٦ ق م . أنه أخذ من أهل سبأ جزية من الذهب والجمال والبخور .

أما صلة اليمن بالشاطئ الأفريقي فلا بد أنها بدأت منذ أقدم العصور ، وتركت القبائل اليمنية على الشاطئ الأفريقي ، وأحياناً داخل البلاد ، أثرًا لا يمحي ، من حضارتها وثقافتها منذ آلاف السنين إلى اليوم ، وأهل أكسيوم القدماء ليسوا في الأصل إلا بعض من هاجر من اليمن إلى بلاد الحبشة .

٣ — ذكر حضارة اليمن في الكتب المقدسة :

وتعرف من القرآن الكريم ، ومن التوراة ، المدي البعيد الذي وصلت إليه حضارة اليمن ، وتكفي الإشارة إلى قصة سيدنا سليمان وملكه سبأ ووصف مملكته وعروشها ، لتدرك

ما كانت عليه اليمن حوالى عام ١٠٠٠ قبل الميلاد ، كما جاء ذكر ممالك معين وسبأ فى التوراة ، فى كتب الأنبياء ، مثل أرميا وحزقيال وأيوب ، تدرك من بين هذه الإشارات ما كانت عليه تلك البلاد من حضارة ، وما كان فى أيدى أبنائها من سيطرة على تجارة الشرق القديم ، وذلك قبل مجىء الإسلام بأكثر من ١٢٠٠ سنة .

٤ - اليونان والرومان :

ولم تخل كتب مؤرخى اليونان والرومان من ذكر الجزيرة العربية وذكر المعينيين والسبئيين والحيريين ، وذكر تجارة البخور والعطور التى كانت فى أيدى تجار اليمن ، وهى التجارة التى كانت تدر على أصحابها أرباحا توازى ثمنها مائة مرة ، ولم يكن مسموحا للسفن الهندية أن تجتاز ميناء عدن ، فكانت تضطر إلى أن تبيع حولتها إلى تجار اليمن الذين كانوا ينقلونها بقوافلهم إلى أسواق الشام مجتازين الجزيرة العربية ، من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال ، ومن غزة تأخذ طريقها شرقا إلى بابل ، أو غربا إلى مصر ومنها إلى أوروبا وتعود قوافل اليمنيين من الشام محملة بكل ما يجدونه فى أسواقها ، فيبيعونه مرة أخرى إلى سكان الجزيرة ، أو إلى التجار الهنود .

وأراد الرومان أن يخضعوا اليمن لسلطانهم ، ليفوزوا بالسيطرة على هذا الطريق التجارى الهام ، فأرسلوا فى عام ٢٤ قبل الميلاد حملة تحت إمرة القائد « أليوس جالوس » حاكمهم فى مصر ، فخرجت الحملة يساعدها الأنباط حلفاء الرومان ، يقصدون غزو اليمن ، فلاقى الجيش أهوالا كثيرة ، ثم وصل بعد ستة شهور إلى نجران . ولكن قبل أن يصل مأرب التقى باليمنيين فى معركة قضت قضاء تاما على أمل الرومان ، فعادت فلول الجيش إلى مصر بعد أن مات أكثرهم . وهذه الحملة هى أول وآخر حملة حربية ذات أهمية حاولت فيها أوروبا أن تستولى على جزيرة العرب .

٥ - اليهودية والمسيحية :

هناك فى اليمن جالية يهودية تعيش فى جميع أنحاء البلاد ، ويقدر البعض عدد اليهود بسبعين ألفا ، يقيم منهم فى صنعاء نحو سبعة آلاف ، وأعتقد أن هذا الرقم مبالغ فيه ، ولا يمكن أن يزيد عدد اليهود عن خمسة وأربعين ألفا فى اليمن كلها ، وهم لا يختلفون فى مظهرهم العام عن باقى السكان ، اللهم إلا فى بعض مظاهر ، منها ترك الرجال للدوابتين على جانبي الرأس ، ولبسهم

طاقة سوداء فوق رؤوسهم ، ويقول اليهود إنهم أتوا إلى اليمن من فلسطين في القرن الأول بعد الميلاد بعد تحطيم معبد أورشليم ، ولكن أكثر المؤرخين يميلون إلى عدم الأخذ بهذا الرأي ، ويعتقدون أن الدين اليهودي وصل إلى اليمن واعتنقه بعض اليمنيين قبل هذا التاريخ بوضع مئات من السنين . وقد كان المينيون والسبثيون يعبدون الآلهة المختلفة ، ويرمزون لبعضها بالتماثيل كما لاقت عبادة الكواكب إقبالا كبيرا منهم ، وكان بعض هذه الآلهة محلياً أما البعض الآخر فقد جاء إلى اليمن من غيرها من البلاد وخاصة بابل . وعلى أى حال فقد انتشرت اليهودية انتشارا كبيرا في جنوب الجزيرة ، وكان أهم أوقات ازدهارها في القرنين الخامس والسادس الميلاديين ، كما أن بعض ملوك اليمن الحيريين اعتنق الدين اليهودي وأخذ في اضطهاد غير اليهود وخاصة المسيحيين .

وبالرغم من أنه لا يوجد مسيحي واحد بين اليمنيين الآن فإننا نعرف أنه جاء وقت على تلك البلاد كانت الكنائس منتشرة في أنحاء البلاد المختلفة ، وكانت بلاد نجران هي أول مناطق اليمن التي رحبت بالدين الجديد .

ورأى اليهود في المسيحية خطراً عليهم ، وحدثت مذبحه الأخدود في نجران التي قتل فيها أكثر مسيحيي تلك البلاد ، وكانت السبب الذي تذرعه به ملوك يزنطة ليطلبوا من حليفهم ملك الحبشة أن يغزو اليمن ليثأر للمسيحيين وكان ذلك في أوائل القرن السادس الميلادي .

فغزا الأحباش بلاد اليمن ، وبنوا كنائس كثيرة أهمها «القليس» في صنعاء التي زخرفها أبرهة إلى أقصى حد ووضع فيها التماثيل ورسم فيها صوراً مذهبة ، وأراد أن يجعل من صنعاء مركزاً تجارياً وثقافياً تأتي إليه القبايل بدلا من مكة وكمبها في الحجاز ، وليكون في ذلك ما يحب الناس في قبول المسيحية ، ولكن حدث بعد ذلك ما أثار أبرهة ، فسار إلى مكة ليهدم الكعبة ، ولكنه عاد مدحورا إلى اليمن .

٦ - الاسلام :

وبينا كانت الجزيرة العربية في هذه الحالة غير المستقرة ، أراد الله أن يظهر في مكة دين جديد قضى على ما هناك من خلافاً وحقق معجزة اتحاد سكانها ، ثم خرجت الجيوش العربية لتقضى على جيوش الفرس والروم .

وكان لليمن دور هام في نشر دعوة الاسلام ، فإن قبيلتي الأوس والخزرج اللتين ناصرتا النبي الكريم عيينتان ، هاجرتا من الجنوب واستقرتا في المدينة على الطريق التجاري بين عدن وغزة ، كما أن دعوة الاسلام لقيت النجاح الكامل بين قبائل اليمن ، فلم يستسلموا لحسب

بل كانوا أول المستجيبين لدعوة رسول الله إلى الجهاد . فخرجوا من بلادهم لنشر الدعوة ، وفتحوا الأمصار ونشروا الإسلام ، وكانوا بحكم مدينتهم أقدر من سكان الحجاز ونجد على الحياة في البلاد التي خضعت لنفوذ الإسلام . فكان جيش عمرو بن العاص الذي فتح به مصر من اليمن كله ، كما أن الجيوش التي سارت إلى شمال أفريقيا كان أكثرها من القبائل القحطانية ، وهذا هو السبب في التشابه المحسوس بين عادات بعض سكان تونس والجزائر ومراكش وبعض الواحات في الصحراء الكبرى وعادات بعض سكان القبائل اليمنية وخاصة قبائل المشرق .

وأهل اليمن أذكاء ويستطيعون تكيف حياتهم في أي محيط جديد ، فلم يلبثوا إلا قليلا حتى امتزجوا بسكان مختلف الأمصار ، وتعلموا منهم أشياء كثيرة يجهلون بها ، كما علموهم أيضاً بعض ما يعرفونه من بقايا مدينتهم السابقة ، فكانوا من أهم بقاة الصرح العظيم الذي عرفه العالم باسم الحضارة الإسلامية .

٧ — بلاد اليمن في العصر الإسلامي :

لم تلبث بلاد اليمن إلا قليلا حتى بدأت الخلافات المذهبية تحدث أثراً كبيراً في وحدتها وأمنها ، ولكن رغم ذلك تمتعت البلاد في بضع فترات بازدهار كبير إذا لم يشمل اليمن كلها فإنه كان يشمل بعض مناطقها ، وخاصة اليمن السعيدة (لواء آب) ولواء تعز وزبيد وذمار وصنعاء . وظهرت دول كثيرة ترك بعضها ثروة هامة من العمارة وخاصة في بناء الجوامع مثل الدولة الرسولية ، كما تابع اليمنيون في العصر الإسلامي سياسة أسلافهم في العناية باستغلال مياه الأمطار والسيول ، وذلك ببناء السدود والخزانات والصحاريح لأن بلادهم تكاد تكون خلواً من الأنهار .

وظلت اليمن مقطعة الأوصال مقسمة إلى دويلات ، ساعد على وجودها كثرة المذاهب الدينية ، فهناك مثلاً الشوافع في بلاد تهامة وفي لواء آب وفي بلاد المشرق ، وهناك الزيدية أتباع الإمام زيد بن علي الذين بقيت لهم تقاليدهم الخاصة منذ ألف سنة ، ولهم إمامهم الخاص الذي لا يأتهمون بأمر غيره ، وهم يسكنون الجبال . وهناك أيضاً بعض الشيعة الإسماعيلية . وفي وقت من الأوقات اشتد ساعد أصحاب مذهب الباطنية ويسمون المكارمة ، وكانوا إلى سنوات مضت يمارسون مذهبهم في بعض البلاد على مقربة من ذمار ، وفي بعض بلاد همدان ، ولم يقض على أعمالهم إلا جلالة الإمام يحيى رحمه الله .

ودانت اليمن لحكم الأتراك ، ولكن نفوذهم لم يتعد الشاطئ وأقليم آب وصنعاء وما حولها ، وبقي أكثر البلاد يحيا حياة القبائل كما عاش أجدادهم ، ورغم الثلاثمائة عام التي انصل فيها الأتراك باليمن ، فإنهم لم يستطيعوا توحيد البلاد ، بل على العكس تسببوا في تمزيق أوصالها ، ولم تخضع لحكومة واحدة إلا في عهد المرحوم الإمام يحيى بن حميد الدين ابتداء من عام ١٩٣٦ فقط وبعد جهاده أكثر من ثلاثين عاما وهو يعمل لهذا الغرض .

ولا شك أن بلاد اليمن تأخرت كثيرا عن غيرها من البلاد ، ولكن يجب أن نقرر حقيقة هامة ، وهي أن الصناع اليمنيين لم يفقدوا مقدراتهم ، بل ظلوا محتفظين بها ، كما أن علماء اليمن حافظوا على ما كان يصل إليهم من علوم ، فظلت جذوة الذكاء مشتعلة إلى اليوم .

٨ — المناطق الأثرية في اليمن :

إذا أردنا حصر بقايا الحضارة الإسلامية في اليمن وجدنا أن هناك نوعين أحدهما الجوامع وأهمها الجامع الكبير في صنعاء وجامع الجند على مقربة من تعز وبعض المساجد في تعز نفسها وخاصة الأشرفية ، كما نرى في آب وزبيد وذمار بعض جوامع أخرى ، ولكنها في مجموعها لا يمكن مقارنتها بجوامع القاهرة أو دمشق وغيرها من الحواضر الإسلامية . وثاني آثار الحضارة الإسلامية هي آلاف المخطوطات المبعثرة في اليمن وأهمها في مكتبة المغفور له جلالة الإمام الراحل ، وفي مكتبة الجامع الكبير ، وهناك مئات من المجموعات الخاصة في جميع أنحاء البلاد ، وهي ثروة من العلم لا يوجد لها نظير في أي قطر إسلامي آخر .

ولم يبق في بلاد اليمن كلها شيء من بقايا الكنائس المسيحية ظاهرا فوق الأرض . كما أنه لا توجد في اليمن كلها بيعة قديمة لها أهمية . وأقدم المخطوطات العبرية لدى اليهود لا يرجع تاريخه إلى أكثر من خمسمائة عام .

ويوجد في أنحاء اليمن بعض بقايا الحصون من العصور الوسطى ، كما توجد فيها أيضاً بعض الأعمال الهندسية لحسن استغلال المياه ، ولكن أهم آثار اليمن هي بقايا الحضارات المينية والسبئية والحيرية .

والحضارة المينية هي أقدم حضارات اليمن ، وكانت عاصمتهم في بلاد الجوف ، وما زال هناك الكثير من بقايا المدن القديمة وفيها آثار المعابد وعلى جدرانها وفي أبنائها النقوش ، وأهمها مدن معين والحزم والبيضاء والسوداء وكنا . وقد عثر الأهالي على الكثير من الأحجار

المكتوبة وعلى التماثيل ولوحات البرونز والحلى والعملات القديمة ، ووجدت طريقها إلى عدن ثم إلى بعض المتاحف الأوربية والأمريكية .

وكانت عاصمة الحضارة السبئية في بلاد مأرب ، وما زالت خرائب العاصمة باقية إلى اليوم تنتظر يد العلم لتكشف عن وجهها القناع ، وخرائب هذه المدينة لا تقل في اتساعها عن أى عاصمة من عواصم العالم القديم ، وترى الكثير من الأعمدة والأحجار المنقوشة ملقى بين خرائبها ، كما ترى بعض جدران منازلها ومعابدها ظاهرة فوق الأرض . وحول خرائب مأرب نرى الكثير من المناطق الأثرية أهمها المعبد المعروف باسم محرم بلقيس والمعبد المعروف باسم الهامد ، كما يوجد على مسافة ثمانية كيلو مترات تقريباً غربى الخرائب بقايا سد مأرب الشهير ، وسنتحدث عنه بشئ من الإسهاب فيما بعد .

ومن أهم مراكز الحضارة السبئية مدينة صرواح وفيها بقايا المعابد ، كما نجد فيها أيضاً الكثير من النقوش الهامة .

أما تلك الحضارات وأقربها عهداً إلينا فهي الحضارة الحيرية ، وكانت في الجنوب ، وأهم بقاياها نجدها في مدينة ظفار على مقربة من مدينة يريم ، وفيها بقايا المعابد والمقابر ، ولكن قد تخرب أكثرها ، وسرق اللصوص أكثر ما فيها من نقوش أو أحجار مرسومة ، لأن ظفار واقعة في المنطقة التي كانت خاضعة لحكم الأتراك ، بينما بلاد مأرب وبلاد الجوف لم تخضع يوماً للحكم التركي ، ولم يجرؤ الناس على الذهاب إليها بكثرة خوفاً من سطوة القبائل التي تقيم هناك ، ولم يستطع جلالة الإمام الراحل أن يضمها إليه إلا حوالى عام ١٩٣٢ .

٩ - الرحالة الذين زاروا الآثار :

أخذ البدو منذ وقت طويل يبيعون ما يجدونه من الآثار إلى الذين يتجرون فيها في عدن وكان طبيعياً أن يسأل هؤلاء التجار عن البلاد التي أتت منها هذه الآثار ، فكانوا يحدثنهم عما في بلاد مأرب وبلاد الجوف من بقايا المدن القديمة . ولم يتيسر لأحد من الأجانب الوصول إلى تلك البلاد قبل الصيدلى الفرنسى « يوسف توماس أرنو » في عام ١٨٤٣ ، وقد لاقى أكبر الشقات وكان نجاحه محدوداً .

وفي عام ١٨٧٠ أرسلت وزارة المعارف الفرنسية العالم « يوسف هاليفى » لنقل كل ما يستطيع نقله من نقوش في بلاد اليمن لنشره في معجم النقوش السامية ، فكان هاليفى أول وآخر أوربي استطاع أن يزور بلاد مأرب والجوف ، ولاشك أن هاليفى نجح في عمله ، وأدى

للعلم أجل الخدمات ، وقد ساعده في عمله أنه لبس ملابس اليهود واليمنيين ، وكان ينام في منازلهم أينما سار ويتخذ أدلاءه من بينهم .

وفي عام ١٨٨٢ بدأ ادوارد جلازر رحلاته إلى اليمن — وهو إسرائيلي الدين مثل هاليفي — ولكنه لم يستطع الذهاب إلى مأرب إلا في رحلته الثالثة إلى اليمن في عام ١٨٨٨ وكان يدعى أنه من الحجاج الأتراك ، وسمى نفسه باسم الحاج حسين ، ورغم حماية أشرف مأرب له ، وتعهدهم للحاكم التركي في صنعاء بسلامته فإن رجال قبيلة عبيدة كادوا يفتككون به لولا هروبه أثناء الليل من مأرب . ولم يذهب جلازر إلى بلاد الجوف ، ولهذا بقي ما نقله هاليفي من النقوش مصدرنا الرئيسى إلى اليوم رغم مرور ثمانية وسبعين عاما .

ولم يجرؤ أحد بعد جلازر على المخاطرة بالذهاب إلى تلك البلاد ، وكان المرحوم الإمام يحيى يخشى على حياة ضيوفه ، فلم يسمح لأحد منهم بالسفر إلى تلك المناطق التي تعيش فيها قبائل لا تخضع لقانون ولا ترحح إلى رؤية شخص غريب ، ولم يسمح المرحوم الإمام يحيى لأحد بالسفر إلى مأرب إلا الأستاذ نزيه مؤيد العظم في عام ١٩٣٦ ، كما أنه سمح الأستاذ محمد توفيق بالسفر إلى الجوف وزيارة آثاره في عام ١٩٤٥ ، وكانت رحلة كل منهما برضاء جلالة الإمام ، وأرسل مع كل منهما الحراس اللازمين .

وفي شهر مايو عام ١٩٤٧ كان لي وفيير الحظ بارتداد المناطق الأثرية في اليمن ، فزرت بلاد صرواح ومأرب ، كما ذهبت أيضاً إلى بلاد الجوف وزرت خرائبها كلها . وعدت ومعى مجموعة صور فوتوغرافية لآثار اليمن ، وما رأيته فيها من كتابات أو أحجار منقوشة ، كما تمكنت من نقل نقوش كثيرة أكثرها لم يره أحد من قبل لأنه خرج من مكانه في العامين الأخيرين فقط . وقد أضافت هذه الكتابات ثروة كبيرة إلى معلوماتنا عن تاريخ تلك البلاد وديانتها القديمة . كما ألقت صور الأحجار المنقوشة كثيراً من الضوء على صلة الفن اليمني القديم بفنون البلاد الأخرى وخاصة الحضارة البابلية .

وكان الفضل أولاً وأخيراً في نجاح زيارتي لآثار اليمن إلى المغفور له جلالة الإمام يحيى الذى لم يكتف رحمه الله بتسهيل زيارتي لهذه المناطق ، بل أمر بأن أكون ضيفه أثناء إقامتي هناك وكان يشماني بطفه وعنايته فلن أنساه أبداً كراه الغالية أطيب الشكر والمرفق بالجميل .

١٠ - سر مأرب :

ومن أهم ما عثرت بدراسته في هذه الرحلة موضوع سد مأرب فأثارت على مقربة منه يومين

نقلت أثناءها جميع ما فيه من نقوش كما أخذت أبعاد بقايا الأبنية التي فيه . وقد كان هذا السد يؤدى غرضين أولهما حجز المياه خلف وادى مأرب المتسع عند مكان يكاد يلتقى فيه جبلا بلق الأيمن والأيسر ، فى نقطة تسمى الضيقة ، للانتفاع بالمياه مدة أطول من فترة مرور السيول ، وذلك بتصريفها من البوابات حسب الحاجة ، وثانى الغرضين رفع المياه خلف السد إلى علو خمسة أمتار على الأقل حتى يمكن رى أراضي الوادى المرتفعة . ولهذا الغرض بنوا فى عرض السابلة عند الضيقة حائطا ضخما جعلوا فيه فتحتين لتصريف المياه إحداها إلى اليمين ، وكانت تخرج منها ترعة كبيرة لتروى الجفة اليمنى ، والأخرى وهى الأهم إلى اليسار ، فكانت تخرج منها ترعة كبيرة تسير نحو ١١٦٠ مترا ، ثم تصل إلى حوض كبير يخرج منه أربعة عشر مجرى للمياه فى الاتجاهات المختلفة لرى الوادى المتسع .

وقد كان كل من الترعتين يروى عدة بلاد اندثرت الآن بعد تهدم السد ولم يبق فى المنطقة إلا قرية صغيرة وهى قرية مأرب وتحتل ركنًا صغيرا بين الخرائب وتعتمد فى زراعتها على الأمكن المنخفضة التى تستطيع أن تروىها مياه السابلة وتعتمد فى شرب سكانها وماشيتها على الآبار ، أما مياه الأمطار فتذهب الآن سدى فى الصحراء .

وهناك عدة خرائب لقرى كانت تروىها التركة اليمنى -- وهى الباقية من الجفة اليمنى -- وأهمها مدينة النحاس وخرابة مروت ومحرم بلقيس والعايد ، وفيها كلها بقايا معابد وأبنية بالحجر . أما التركة اليسرى فكانت لرى مدينة مأرب العظيمة وهى ملأى ببقايا المعابد المختلفة والقصور المبنية بالحجر وتظهر أعلى جدرانها من بين الأنقاض هى والأعمدة . ومن النقوش التى على مقربة من السد تعرف أن أول من فكر فى إقامته هو الملك « سمعل بنوف » وأنم العمل ابنه « يشع امر » اللذان عاشا فى القرن الثامن قبل الميلاد ، وقد تهدم السد عدة مرات وأصلحه الملوك المختلفون وهذا هو السبب فى وجود أسماء ملوك عديدين فى نقوش الأحجار التى أعادوا استعمالها فى البناء . وكان آخر ترميم للسد هو الترميم الذى قام به الملك أبرهة الحبشى فى النصف الأول من القرن السادس الميلادى وذكر تفصيل انتصاراته وترميمه للسد على لوحين كبيرتين ما زالتا على مقربة من مكانهما الأصلي وإحداهما مؤرخة فى عام ٥٤٢ والأخرى عام ٥٦٥ وأهم النصين يبدأ بقول أبرهة « بقوة وجبروت ورحمة الإله الرحيم ومسيحه والروح القدس نقشت أنا أبرهة هذا النقش كغائب لملك الجازر عيس وذويان ملك سبأ وذوريدان وحضر موت واليمن وأعراب الجبال وتهامة » ، ثم يتحدث النص بمد ذلك عن الثورة التى قامت بين القبائل فى بلاد مأرب وذهابها لإخضاعها ثم عمله وهو هناك بأن سد

مأرب قد تصدع فأمر بإصلاحه وتم ذلك في أحد عشر شهرا وصرفت المخازن للمال الذين قاموا بهذا العمل ٥٠٨٠٦ كيسا من الدقيق و ٢٦٠٠٠٠ حمل من البلح و ٣٠٠٠٠ حمل و ثورو ٢٠٧٠٠٠ رأس من الغنم وذلك عدا الحيوانات التي استعملها المال في النقل ، وذكر أبرهة في هذا النص أيضا مقاييس السد كما أشار إلى تفشى وباء الجدري في منطقة مأرب أثناء وجوده هناك .

وكان هذا الترميم هو آخر ترميم لسد مأرب ، إذ أصابه الخراب بعد ذلك بقليل فحدث سيل العرم الشهير ومنذ ذلك اليوم اندثرت جميع البلاد الزاهرة التي كانت في هذه المنطقة .
هاتمة :

إن فضل اليمن على الحضارة الإسلامية في غير حاجة إلى تذكير أو تعريف ، فقد كان لليمنيين الفضل الأكبر في نقل حضارتهم وحضارات الأمم المختلفة التي نقلت الإسلام من مكان إلى مكان ، ونشروا الكثير من فروع العلم والمهارة وخاصة إقامة السدود في جهات مختلفة في آسيا وفي شمال أفريقيا وفي أسبانيا .

ولكننا نعرف أيضا أن بلاد اليمن لعبت منذ فجر التاريخ دوراً هاماً في نشر التجارة بين بلاد الشرق القديم واستقر المهاجرون اليمنيون في شمال الجزيرة العربية فكان منهم البابليون الذين غلبوا السوميريين على أمرهم في بلاد ما بين النهرين في الألف الرابع قبل الميلاد . وكان منهم أيضا القبائل التي عبرت البحر الأحمر إلى الشاطئ الأفريقي وصنعت جزءاً كبيراً من تلك البلاد بحضارتها ، وأكبر الظن أن أحفاد بعض هذه القبائل وصلوا إلى وادي النيل من الجنوب ومن الشرق وذلك في فجر التاريخ أيضا .

إن مناطق الآثار في بلاد اليمن لم تمتد إليها يد العلماء بعد ، وكل ما وصل إلينا من مسلمات لم يعد ترجمة الأحجار التي أتت من سطح الأبنية وبعضها يرجع إلى القرن الثامن قبل الميلاد ولكن بعض هذه الأكوام والأنقاض يرتفع ارتفاعاً كبيراً ، وكلما تعمق الحفار في عمله وصل إلى عصور أبعد في التاريخ لأن هذه المدن بنيت على أنقاض مدن أقدم منها .

إن هناك فجوات كثيرة في التاريخ القديم للشرق بل لا نبالغ إذا قلنا إن هناك حلقات مفقودة في أصل تاريخ حضارة بعض بلاد الشرق القديم وهناك أمل كبير في أن الأبحاث المقبلة في جنوبي الجزيرة العربية ستتملأ هذه الفجوات وتصل بين هذه الحلقات بل وستلحق ضوءاً كبيراً على فضل الجنس السامي والدور العظيم الذي لعبته الجزيرة العربية في حضارة العالم قبل دورها العظيم الذي قامت به عندما أثبتت منها نور الإسلام .

أحمد فخري

مقومات الحضارة العربية

للمركز ساجد هزيم

لكل حضارة من الحضارات الكبرى في تاريخ البشر مقوماتها وأسسها التي تقوم عليها وتستند إليها . وحضارة العرب هي إحدى الحضارات الكبرى التي ظهرت في التاريخ، وعاشت فترة طويلة من الزمن ، وأثرت في غيرها من الحضارات . بل إن بعض مظاهر الحضارة العربية ، لا سيما في ميدان الثقافة والروح ، قد عاش وبقي على الأيام أطول مما عاش غيره من ألوان الفكر والثقافة التي ظهرت في جهات أخرى من العالم . ومن المظاهر الخالدة في ثقافة العرب لغتهم التي عاشت وأنتجت أدبا قام بذاته وعبر به أصحابه عن معاني الحياة ومشاعرها خلال فترة تقارب الستة عشر قرنا ، وهو ما امتازت به اللغة العربية على كثير من اللغات القديمة والحديثة ، فاللغة اللاتينية مثلا إنما عاشت بضعة قرون ، مات بعدها كلغة يتكلم بها الناس ويعبرون عن مشاعرهم ، ولم تبق إلا كلغة تدرس في الكتب . واللغات الأوروبية الحديثة كلها لا يكاد يجاوز أطولها عمرا ، كلغة حياة وأدب ، ألف عام أو نحو ذلك . أما اللغة العربية فقد عاشت وأنتجت أدبا فهمته الأجيال المتعاقبة وتذوقته رغم بعد الشقة في الزمن . ونحن الآن لا نزال نقرأ الأدب الجاهلي ونمتع لقراءته كما لا نزال نقرأ القرآن وبأخذنا سحره . وهذا ما يميز تراثنا الثقافي عن تراث كثير غيرنا من الأمم والشعوب .

وما يقال عن اللغة العربية يقال عن غيرها من نظم العرب الاجتماعية ، وما خلفوه من تراث حضاري عام . فقد بقي كله وخلد ، ولا بد لبقائه من سبب أو أسباب كانت من دعائم قوته ومقومات حياته . وقد يكون من المفيد في هذا الحديث أن نستعرض بعض تلك الدعائم والمقومات ، استعراضاً يهدف إلى تبسيط الحقائق التي وصلت إليها دراساتنا الحديثة للعرب وحضارتهم ، أكثر مما يقصد إلى التعمق في تفاصيل تاريخ الحضارة العربية .

وأول ما نلاحظه على حضارة العرب أنها حضارة أسيلة في البيئة العربية ، قد تأثرت بظروف مهدها إلى أبعد الحدود . فهي إذن ليست حضارة دخيلة ولا منقولة وإن كانت قد تأثرت بغيرها من الحضارات المجاورة . وقد كان ارتباط الحضارة العربية بالبيئة الجغرافية لبلاد العرب سبباً من أسباب قوتها واستمرارها على الزمن . ولكن الشيء المهم أن البيئة العربية

ليست كلها صحراء كما قد نتصور ، وإنما فيها البادية وفيها الحضر ، وفيها النجاد الداخلية والسهول الساحلية ، وفيها العيون وفيها الأودية وبحارى الأنهار ، وبعض جهاتها كالربع الخالى وصحراء النفود مقفر مجذب شديد الجفاف ، وبعضها الآخر كبلاد اليمن غنى التربة غزير الأمطار يشبه الجهات الموسمية ، ثم إن جنوب بلاد العرب على الجملة تسقط أمطاره فى الصيف أى فى موسم الحرارة ، على حين تسقط أمطار شمالها فى الشتاء ، أى فى فصل البرودة . لذلك كله فإن البيئة العربية كانت بيئة متنوعة أو هى بعبارة أصح وأدق تجمع بين الوحدة والتنوع : الوحدة من حيث الموقع الجغرافى العام والبيئة الصحراوية الحارة على الجملة ؛ والتنوع من حيث الاختلافات الإقليمية والمحلية . وقد انعكست الصورة الجغرافية فى حضارة العرب وثقافتهم . فهى وإن كانت ذات طابع عربى عام ، فإنها مع ذلك تنقسم بصفات عملية متنوعة . فهناك عرب الجنوب وعرب الشمال أو قحطان وعدنان ، وهناك أعراب البادية ، وأبناء الحضر . بل هناك فى شمال الجزيرة أرض العراق وأرض الشام ، ثم هناك حدة الإبل الذين يعيشون على اليابس ويعملون فى النقل على طول طرق القوافل ، وهناك العرب الملاحون الذين ورثوا الفينيقيين على سواحل البحر المتوسط وورثوا الملاحين القدماء فى الخليج الفارسى وبحر العرب . إلى غير ذلك من مظاهر التنوع التى كانت فى حد ذاتها مصدراً من مصادر القوة ، وعنصراً من عناصر اتساع الأفق وتفتح مجال الفرص فى حياة العرب وحضارتهم . ولولا ذلك التنوع الذى كان مرده إلى البيئة العربية ما كانت الحضارة العرب تلك القدرة المعجبية على أن تجارى الزمن وتجارى الظروف ، ولا كانت لها تلك الحيوية التى ميزتها عن غيرها من الحضارات .

وليس معنى التنوع فى البيئة العربية وفى تكوين العرب أنهم كانوا مجرد جماعات اختلط بعضها ببعض ، وإنما معناه الصحيح أنهم كانوا جماعة ذات مواهب متنوعة ، وحيوية استطاعت على الدوام أن تجد مجالها فى العمل والنشاط وبناء الحضارة مهما اختلفت الميادين ومهما تباينت الظروف . . . وذلك كله أمر صحيح يسلم به من يدرسون تاريخ العرب والحضارة العربية .

ولقد خرج العرب من بيئتهم إلى البيئات المجاورة واحتكوا بأهلها ، ونقلوا عنهم ما نقلوا كما منحهم وأعطوهم من نتاج بيئتهم العربية ما ساعد على تراوج الفكر والحضارة فى العالم القديم تراوجاً كانت له أطيب الثمرات . وكان ذلك على الأخص بعد ظهور الإسلام وانتشاره إلى الشرق والغرب وعلى طول طرق التجارة البرية والبحرية .

بل إن تجار العرب وملاحهم قد انتشروا إلى جهات بعيدة من الأرض وإلى بيئات متباينة أشد التباين ، فهم وصلوا قلب آسيا وأطرافها الشرقية ، بل وبلغ تجارهم البر البلطى ، وانتشر ملاحوهم إلى سواحل إفريقية الشرقية وبلاد الزنج من جهة ، وإلى بلاد الملايو وجزر الهند الشرقية وبعض شواطئ الصين من جهة أخرى . وفى كل هذه الأصقاع كانوا رسل الثقافة وحمله النور . ولعل العرب من هذه الناحية أن يكونوا أوسع شعوب الأرض اتصالاً ونشراً للثقافة ونور المدنية والحضارة . بل إنهم سبقوا فى سعة الاتصال وفاقوا فى اتساع الانتشار ما بلغه بعض شعوب أوروبا الحديثة بعد ذلك بعدة قرون .

والحق أن العرب أمة كان لها فضل كبير فى الحضارة والمدنية . وهم سلالة الشعوب السامية القديمة ، وورثة ذلك الموقع الجغرافى الفذ فى قلب العالم القديم وهو الموقع الذى اتصلت فيه السلالات من كل الألوان ، وتعلم الإنسان أن يأخذ ويعطى ، وأن يؤثر ويتأثر ، وأن يغدو إنساناً فى حضارة عالمية بالمعنى الكامل الشامل . ولكن المهم بل الطريف أننا إذ ندرس الحضارة العربية نلمس فى يسر أنها رغم اتصالاتها العريضة كانت على الدوام حضارة ظاهرة مميزة ، وقد يكون من الطريف فى هذا المقام أن نسجل عنها بعض الأمور التى ميزت طابعها وأبرزت الدور الحضارى الذى قام به العرب فى صورة واضحة للعالم .

وأول هذه الأمور أن حضارة العرب الإسلامية أفادت من سعة انتشارها ما زاد من قوتها وحيويتها ، وأضاف إلى اتساع أفقها وتنوعها ، فاختلطت حضارة العرب فى أرض الشام بحضارة آرامية قديمة ذات اتصال بحضارة الأغريق وفلسفتهم ، واختلطت فى أرض العراق بحضارة سامية أخرى كانت متأثرة بحضارة الفرس فى مجال المادة ومجال الروح ، كما اختلطت فى مصر وأرض النيل بحضارة عريقة أصيلة كان من حظ أهلها أيضاً أنهم تلقوا حضارة الأغريق وثقافتهم ونتائج فكرهم فاحتضنوه وغدوه وحفظوه للعرب والمستعربين من أبناء الشرق القديم ، الذين ما لبثوا أن غدوا هم ورثة الثقافة الإغريقية ، والقوامين عليها خلال بضعة قرون . وبهذا الاختلاط كله فى أرض الشام والعراق ومصر وكذلك باتصال العرب مع أجزاء أخرى من العالم كفارس وبلاد الهند وشرق إفريقية وشمالها . . . بذلك كله عدت حضارة العرب حضارة عالمية بالمعنى الصحيح ، وخرجت عن نطاقها ومهدتها الضيق إلى العالم القديم بأسره ، واتسمت أوجه الشبه والاتصال بينها وبين حضارات ذلك العالم . وهكذا وجدت طريقاً جديداً إلى الخلود والبقاء ولو فى سورة جديدة تختلف عما كانت عليه صورتها الفطرية فى قلب الجزيرة العربية .

والأمر الثانى الذى يهمنى هو أن الحضارة العربية فى نشأتها الأولى كانت حضارة بسيطة غير مركبة ، وذلك من حيث أسسها المادية ، ونظمها الاجتماعية الصحراوية ، واتجاهات فكرها ونزعاتها الروحية . وهذه البساطة فى حد ذاتها راجعة أيضاً إلى مقومات البيئة الجغرافية والاجتماعية بين الرعاة وحداة الإبل . ولكنها كانت إلى جانب ذلك مصدر قوة فى الحضارة العربية ، لأنها جعلت منها لوناً من الحضارة أو الحياة واضح المعالم محدد الأهداف والغايات قائماً على أساس خضوع الفرد للجماعة واندماجه فيها ، حتى فيما يمس حياته المادية ، فالألم والمروى وغيرهما من مرافق الحياة مثلاً كانت مرافق عامة تملكها القبيلة كلها أو العشيرة الضاربة فى جهة من الجهات ولذلك كانت حياة الفرد من حياة العشيرة ، كما كان دمه من دمها ، بل لذلك فإن الحضارة العربية حملت فى كيائها الأصلى روح الترابط بين الفرد والجماعة ولوناً من ألوان التأخى والتساند والتكافل بين الإنسان وأخيه الإنسان ، وهذا ما جعل منها حضارة عالمية تصلح لأن تنتشر إلى العالم الخارجى ، فتربط بين أطرافه ، ولا تميز بين عربى وغير عربى ، وإنما تشيع فى العالم كله لوناً جديداً من الحضارة الإنسانية ، التى تقوم على أساس الأخوة فى الحياة أو الأخوة فى الثقافة والدين على كل حال .

وأما الأمر الثالث فهو أن البساطة فى حياة العرب وحضارتهم قد ترتب عليها ظهور التجرد من المادة فى كثير من ألوان الفكر العربى ، ولعل خير ما يوضح لنا ذلك أن العرب حتى الآن لا يزالون يمجدون مثلهم العليا فى أمور مجردة غير ملموسة ، فهم يرون القصيدة الشعرية أدق تعبيراً عن معانى الحق والخير والجمال من التمثال الجسم أو البناء المشيد ، وهم كثيراً ما يأخذهم سحر القول بأكثر مما يخلب لبهم الزخرف اللعوس .. ولعل العرب أن يفردوا فى ذلك بين غيرهم من الأمم وأصحاب الثقافات الأخرى .

أما الأمر الرابع والأخير فيتمثل فى صفة لم تكن أقل تميزاً لحضارة العرب وثقافتهم من صفة البساطة ألا وهى الرونة والمقدرة على التجديد وعلى مجازاة الزمن ومجازاة ظروف البيئات المختلفة التى انتشر إليها العرب أو انتشرت ثقافتهم . ومن هذه الناحية ينبغى أن تصحح خطأ شائعاً عن العرب وعن حضارتهم الإسلامية . وذلك أن الاعتقاد السائد بين من يدرسون التاريخ العربى دراسة سطحية هو أن العرب قوم صحراويون ، قد انتشرت ثقافتهم ونجحت على الخصوص فى بيئات الرعاة المائلة للبيئة العربية الأصلية . ولكننا إذا درسنا خريطة العالم وجدنا أن العرب قد انتشروا ونقلوا معهم معالم حضارتهم وثقافتهم إلى بيئات متباينة أشد التباين .. منها أواسط آسيا وشمال أفريقيا وهى أقاليم رعوية ، ومنها مصر وأرض

العراق وهى بيئات زراعية مستقرة ، ومنها بلاد الهند وهى مناطق زراعية أيضاً ولكنها ذات مناخ يختلف تماماً عن البيئة العربية الأصلية ، ثم منها جزر الهند الشرقية التى تقع عند خط الاستواء . وليس فى بيئتها الجغرافية ولا فى تكوين سكانها ونظمهم الاجتماعية ما يشبه من قريب أو بعيد بيئة الصحراء وحياة الرعاة من الأعراب . ولعل هذا كله أن يكون دليل المرونة والمقدرة على التشكل والتطور فى الثقافة العربية بما يجارى البيئة الجديدة . . وذلك ما اكتسبه العرب من بيئتهم الجغرافية وموقع بلادهم الجغرافى ، واحتكاكهم منذ القدم بالشرق والغرب وبالشمال والجنوب .

تلك خلاصة موجزة عن حضارة العرب ومقوماتها ، ومصادر القوة وعناصر الخلود فيها . لم يكن القصد منها أن نستوفى معالم تلك الحضارة سرداً واستعراضاً ، فهيات أن نستطيع ذلك فى مثل هذا الحديث . ولكنها خلاصة أردنا بها أن نبرز ما فى حضارتنا العربية من قوة ، وما تستند إليه من مقومات ، لم يزدها الزمن إلا رسوخاً ولم تزدها الأيام إلا ثباتاً ، حتى غدت بذلك كله تراثاً خالداً من حقنا أن نفاخر به ، ورسالة تالدة ما أحراها أن تعيش وأن تبقى على مر الأيام .

سليم بن هزيم

أستاذ الجغرافيا بجامعة فاروق الأول

الجامعة العربية وأسسها الجغرافية والتاريخية

الدكتور سامي مازن

أثار تكوين جامعة الدول العربية اهتماماً كبيراً في العالم خلال الأعوام الأخيرة ، وإن اختلفت وجهات النظر ، وتباينت البواعث على هذا الاهتمام . فقد نظرت كثرة أهل المشرق العربي إلى تأليف الجامعة على أنه أمل تحقق ، وتطلع غير قليل ممن يتكلمون العربية من أهل المغرب الأفرقي وبعض جهات آسيا العربية ذاتها إلى الانضمام إليها على أنه أمل يرتجى ، ووقف العالم الخارجى بين مشجع لهذه الحركة الجديدة ومحذ لها ، وبين معارض لها ولل فكرة من قيامها ، أو محاذ يكاد لا يهتم لشأنها بأكثر من أن ينظر ليرى ما يكون من أمرها فى المستقبل .

ولسنا نود هنا أن نعالج موضوع الجامعة من حيث إنها أمل تحقق أو رجاء يرتجى ، ولا من حيث إنها حادث دولى نرتقب نتائجه ، وما عسى أن يكون من أمره . فذلك كله من شأن أهل السياسة ، وقد يكون من الخير أن نفرغ إلى معالجة الموضوع من ناحية الدراسة الخالصة . فهما قيل عن الجامعة وضرورة قيامها كدعامة من دعائم السلم فى الشرق الأوسط فإن مصيرها إنما يرتبط فى الحقيقة بالمقومات الأساسية التى يستند إليها وجودها كهيئة تألف من مجموعة مترابطة من الأمم ذات المواقع الجغرافية المتجاورة والتاريخ البشرى المتداخل والمصالح المادية المتشابهة . وهذه المقومات الجغرافية والتاريخية تمثل عنصراً دائماً ثابتاً لا يتغير كما تتغير الظروف والملاسات السياسية العارضة . وإذا نحن نظرنا إلى الجامعة ودرسناها من هذه الناحية التى تكشف عن الأسس والمقومات ، فإننا نخرج بصورة تسمح بالحكم على ضرورة قيامها حكماً يستند إلى الحقائق الثابتة أكثر مما يستند إلى الأعراض التى قد لا تلبث أن تتغير أو تزول .

لذلك كله رأيت أن أعرض للجامعة كما يمرض لها باحث الجغرافيا أو دارس التاريخ . ولعل فى هذا النحو من الدراسة ما يلقى ضوءاً جديداً على هذه الجامعة الناشئة ، يبرزها فى وضعها الصحيح ، أو فيما يقرب منه ، ويكشف لنا عن مكامن القوة وعوامل الدوام فيها ،

رغم ما قد يعترض سيرها من الناحية السياسية بين حين وحين بل يكشف لنا بقدر المستطاع عن قيمة هذه المنظمة واحتمالاتها الكامنة ، ومغزى تكوينها بالنسبة لأهلها من جهة ، وبالنسبة للعالم الخارجى من جهة أخرى .

ولعل أول ما ينبغى أن نسجله من الناحية الجغرافية أن الشرق العربى يحتل موقعاً جغرافياً فذاً فى قلب العالم القديم ، تلتقى عنده قارات ثلاث هى آسيا وأوروبا وأفريقيا ، التى كان لكل منها دورها الخاص فى تاريخ البشرية ، ويمتد من سواحلها من الشمال بحر قديم كان مهذاً لكثير من مظاهر المدنية القديمة والحديثة هو البحر الأبيض المتوسط ، الذى امتاز بهدوء مياهه ، وانتظام ريحه وانتشار جزره ، وكثرة تعاريج سواحلها وخلجانها ، حيث قامت المرافئ والموانئ منذ أقدم العصور . كذلك يتوغل فى هذا الشرق العربى من الجنوب ذراعان للمحيط الهندى والبحر العربى ، هما البحر الأحمر وخليج فارس ، وقد ارتقت كلا منهما سفن الملاحة آتية من بحار الهند والشرق الآسيوى البعيد ، أو من شرق أفريقيا . ولكن المهم أن الاتصال البحرى لم يكن تاماً بين بحار الجنوب وبحار الشمال ، وإنما قطعت بين تلك البحار أرض الجزيرة العربية الشمالية ، فكان لازماً أن تمر المتاجر بالبر فى تلك المرحلة ، ومن هنا أصبح لسكان تلك المنطقة التحكم فى المواصلات العالمية منذ القدم . ولو أن الجزيرة العربية كانت جزيرة بالمعنى الجغرافى المعروف ، فأحاطت بها المياه من كل جانب ، واتصل البحر المتوسط ببهار الجنوب لتغير وجه التاريخ تغيراً تاماً ، ولما كانت لشبه جزيرة العرب وما يتصل بها من بلاد وأقطار تلك الأهمية الفريدة فى تاريخ المواصلات العالمية وفى علاقات الشرق بالغرب والشمال بالجنوب .

والحق إن هذا الشرق العربى فى جنوب غرب آسيا وشمال شرق أفريقيا قد لعب بموقعه الجغرافى دوراً خطيراً فى تاريخ الاتصالات العالمية وتاريخ البشر بوجه عام ، وساعده على ذلك أنه كان مهذاً لكثير من الحضارات القديمة فى مصر وبلاد الشام وسومر وبابل وآشور وعمان وبلاد اليمن ، كما نشأت فيه عدة إمبراطوريات امتد نفوذها وسلطانها إلى الشرق أو الغرب ، أو إلى الاثنين معاً . وكان فوق ذلك مهبط الديانات السماوية الثلاث ، فيه نشأت ومنه انتشرت ، ومبعث كثير من ألوان الفكر والثقافة العالمية التى بقيت على الزمن . ولو أننا نظرنا إلى تاريخ الإنسانية المكتوب وحسبنا أنه يمتد خلال خمسة آلاف عام أو نحو ذلك ، لكان من الطريف أن نذكر أن هذا الإقليم الذى نحن بصدده — أو أن أجزاء منه على أقل تقدير — كانت مركز القوة السياسية الأول ومبعث الثقافة والعلم والمعرفة الإنسانية خلال

ما يقارب ثلاثة أرباع تلك الفترة . ولو قيس أهمية أقاليم وجه الأرض في تاريخ البشر بطول الحقبة التي كانت فيها كل منها مركز السلطان ومبعث المعرفة ، لسكانت لهذا الإقليم السكّانة الأولى بين الأقاليم . ولعل من الخير والإنصاف أن نتمثل هذه الحقيقة البسيطة أمام أعيننا ، حتى لا يضلنا تغيير الظروف والأحوال في الوقت الحاضر والزمن الذي نعيش فيه ، فلا ندرك أهمية إقليمنا ولا نقدر مكانته العالمية على وجهها التاريخي الصحيح .

ويتألف هذا الشرق العربي في داخلية من نواة صحراوية أو شبه صحراوية ، تقل فيها الأمطار ولا ينتظم سقوطها ، وتمثل فيها حياة البادية العربية المعروفة ، فلا يستقر بها السكان إلا في عدد من الواحات أو حول الآبار . وقد اخترقت تلك النواة منذ فجر التاريخ طرق القوافل ، التي سار عليها حداة الإبل ووسطاء التجارة ، فنقلوا السلع والمتاجر ، وحملوا معهم أنواع الفكر والثقافة ، فكان ذلك الاحتكاك المثمر في بعض الواحات ومراكز الاتصال ، ولتمتحت المدنية الخارجية حياة العرب وحضارتهم منذ البداية . كما استطاع البدو وتجارهم أن ينشروا نتاج بيئتهم الفكرية إلى الخارج وكان هؤلاء التجار فوق ذلك وسطاء ثقافة ، حملوا رسالة الفكر والمدنية بين أهل الشمال وأهل الجنوب ، وبين أهل البحار المعتدلة والباردة وأهل البحار الدفيئة والحارة . ولم يكن غريبا بعد كل هذا أن ترتبط التجارة والثقافة في حياة العرب وسكان الجزيرة الداخلية ذلك الارتباط القوي المعروف .

وعلى جانبي تلك النواة الصحراوية الداخلية التي تمثل قلب الشرق العربي ، والتي لم تكن نواة صماء ، وإنما اخترقتها الطرق في جميع الاتجاهات ، ونفذت إليها الحياة الخارجية من كل سبيل ، كان هناك نطاقان من الحياة المستقرة في أراض يزيد فيها المطر زيادة نسبية أو يتوافر بها الماء من المجارى والأنهار . ويحف أحد النطاقين بالنواة من جهة الجنوب ، لاسيا الجنوب الغربي والجنوب الشرقي ، كما يحف بها النطاق الآخر من جهة الشمال ، ويمتد خارج الجزيرة إلى الشمال شرق أفريقيا ، ففي جنوب صحارى بلاد العرب ونجدها الوسطى كانت هناك اليمن وحضرموت وعمان وهي كلها مراكز لحضارات قديمة قبل الإسلام . فقد نشأت في اليمن وأطراف حضرموت الحضارات المينية والسبئية والحيرية في ألف السنة السابقة ليلاد المسيح والخمسمائة السنة اللاحقة به . ونشأت في عمان حضارة أخرى قديمة لا نعرف عنها الشيء الكثير ولكن بعض الباحثين يرى أنها ربما كانت أقدم من حضارة اليمن ، وأنها كانت على اتصال بأجزاء مختلفة من الجزيرة ، بل إن السومريين أنفسهم ربما جاءوا في الأصل من تلك البلاد أو من جوارها قبل أن يستقروا في جنوب العراق . وسواء أصبح هذا أم لم يصبح ، فإن

اتصال سكان الجزيرة الجنوبيين في عمان وحضرموت واليمن بسكانها الشماليين أمر تاريخي قديم لا جدال فيه ، وقد اشتد ذلك الاتصال بنوع خاص في العصر الجاهلي وبعد ظهور الإسلام . وكان لهؤلاء الجنوبيين فضل كبير في نشر الثقافة العربية والدين الإسلامي بالبحر إلى شرق أفريقية وجنوب آسيا وجزر الملايو وأندونيسيا ، فكانوا بذلك رسل الثقافة العربية ودعاتها فيما وراء البحار ، وقد عرف الحضارة منهم بنوع خاص بأنهم « فينيقيو البحار الجنوبية » .

ومع ذلك فإن الجامعة العربية بتكوينها السياسي الحالى لا تشمل من جنوب بلاد العرب غير اليمن ، في حين أن الظروف الطبيعية والبشرية والتاريخية تقضى كلها باعتبار حضرموت وعمان منطقتين متممتين لهذا الشرق العربى من ناحية الجنوب . ولا بد أن ننتظر اليوم الذى تنضم فيه تلك البلاد إلى الجامعة ، إذا أرادت هذه الأخيرة أن يتسق تكوينها السياسى مع تكوينها الجغرافى ، وأن تستكمل مقوماتها الطبيعية والتاريخية جميعا .

كل هذا عن النطاق الذى يحف النواة الصحراوية من ناحية الجنوب . فأما النطاق الشمالى ذو الحياة المستقرة والمدنيات الحضرية القديمة فيشمل ما يعرف باسم « الهلال الخصيب » كما يمتد إلى شمال شرق أفريقيا ، لتدخل ضمنه مصر ووادى النيل الأوسط فى السودان . فأما الهلال الخصيب فيتألف من منطقة تمتد على شكل هلال مفتوح نحو الجنوب ، تتوغل فيه بادية الشام . ولهذا الهلال شقان هما العراق والشام بمعناها الأوسع . والعراق فى مجلته سهل منبسّط تحف به الجبال فى الشرق والشمال ، وتجرى فوقه أنهار دجلة والفرات وقارون وروافدها المنحدرة من الجبال . وقد نشأت بالعراق منذ القدم حضارات متتامة ، كان بعضها فى أسفله مثل سومر ، وبعضها فى وسطه مثل بابل ، وبعضها فى أطرافه الشرقية مثل آشور . ولكن المهم أن العناصر السامية استطاعت فى النهاية أن تكتسح معظم أراضيها اكتساحا ، وأن تصبغها بالصبغة السامية ، حتى إذا ما جاء العرب وتوسعوا من داخلية الجزيرة قبل الإسلام وبعده ، لم يلقوا عناء كبيرا فى أن ينشروا فيه لغتهم ودينهم وثقافتهم ، وفى أن يتخذوا منه قاعدة ينشرون منها معالم تلك الثقافة نحو الشرق إلى إيران وتركستان . واستطاع العراق فى العهد العربى بمختلف أدواره أن يكون وحدة ثقافية ، حتى إذا ما جاء العهد الحديث كانت هذه الوحدة الثقافية عاملا هاما فى وحدته السياسية رغم وجود بعض العناصر الكردية وغير العربية فى أقصى الشمال .

أما الشق الثانى من الهلال الخصيب فأكثر تمقيدا من الشق العراقى ، لأن الطبيعة

تجعل منه سهلاً مستويًا تجرى فوقه الأنهار تربط بين مختلف أجزائه ، وإنما جعلت منه إقاماً معقد السطح والتضاريس . ففي شماله توجد سلاسل لبنان الشرقية والغربية ، التي تفصل بين سوريا وسواحل لبنان ، والأولى ذات حوضان وسهول داخلية تتجه نحو البادية ، وترتبط بها ارتباطاً وثيقاً . أما لبنان فإن سفوح جباله الغربية وسهله الساحلي الضيق تتجه نحو البحر المتوسط ، وترتبط حياتها به ارتباطاً يرجع إلى أيام الفينيقيين . ولقد تأثر ساحل لبنان أكثر مما تأثر غيره من أقاليم الشرق العربي بحياة الناحين في شرق البحر المتوسط ، وبثقافة الإغريق والروم الشرقيين ، وظهرت آثار ذلك في العهد المسيحي ، وفي الكنائس الطائفية التي لا تزال قائمة حتى الآن .

وإلى الجنوب من سوريا ولبنان هنالك شرق الأردن وفلسطين ، ويقسمهما منخفض الأردن والبحر الميت . وقد يكون من المهم هنا أن نلاحظ الفرق الكبير في التكوين الطبيعي بين ساحل فلسطين من جهة وساحل لبنان شمال حيفا من جهة ثانية ، فالأول رملي منخفض تكثر به الرواسب ، ويكاد يخلو من المرافق الطبيعية الصالحة ، وإنما ترجع أهميته إلى الطرق البرية التي كانت تخترقه ، أو تسير على طوله وترتبط ما بين مصر وشبه جزيرة سيناء من ناحية ، وداخلية الجزيرة العربية الشمالية وبقية أرض الهلال الخصيب من ناحية أخرى . أما ساحل لبنان من حيفا شمالاً فصخري في أكثر أجزائه ، ويوجد به عدد من المرافق الطبيعية التي لا تزال تستعمل في الوقت الحاضر مثل بيروت . وقد مثل هذا الساحل على الدوام المدخل البحري الأساسي لتجارة الشق الشامي من الهلال الخصيب ، واستطاع أن يحتفظ بمكانته هذه على مر العصور . فكما تحكم الفينيقيون في تجارة مملكة سليمان البرية التي كانت تشمل أراضي فلسطين والشام الداخلية ، كذلك استمرت موانئ لبنان ومرافقه السواحلية متحركة في تجارة الشرق الأدنى في العصور الوسيطة ، ولا تزال في الوقت الحاضر تلعب اعتماد سوريا الداخلية على بيروت (والاسكندرونة قبل أن تضم إلى تركيا) في تجارتها البحرية . ولذلك كله فقد يكون من الخير في معرض الحديث عن التكوين السياسي والقومي لـكل من سوريا ولبنان أن نجمع بين حقيقتين لا سبيل إلى الأخذ بإحدهما دون الأخرى : فأما الحقيقة الأولى فإن مقتضيات البيئة الطبيعية والتوجيه الإقليمي والتاريخ الثقافي تقضي بأن يكون لكل منهما كيانهما القومي والسياسي والمستقل . وأما الحقيقة الثانية فإن مقومات الحياة الاقتصادية السليمة والمصالح المادية المشتركة تقضي بأن يكون بينهما أوثق الاتصال ، وبأن يكونا بمثابة الشقيقتين التوأمين في أسرة الأمم العربية .

فإذا ما نحن خرجنا من الجزيرة العربية بمعناها الجغرافى الضيق ، وانتقلنا إلى شمال شرق أفريقية وجدنا أرض وادى النيل التى ارتبطت فى تاريخها الطويل بالشرق الأسيوى المجاور ، وكانت فوق ذلك واسطة الاتصال بينه وبين الخارج فى بعض أدوار ذلك التاريخ . والحق إن الجغرافيين المحدثين لا يفرقون الآن بين شمال شرق أفريقية وجنوب غرب آسيا ، فهى كلها تؤلف إقليما جغرافيا واحدا ، رغم وجود البحر الأحمر بينها . وقد وثقت الطبيعة الصلة بين مصر وغرب آسيا ، فأعدت طريقا طبيعيا سهلا يصل بينهما ، ويسير على طول الساحل الشمالى لشبة جزيرة سيناء ، حيث تسقط الأمطار فى فصل الشتاء ، فتختزنها كشتبان الرمال المنتشرة على الساحل ، لتغذى بها المياه الجوفية طول العام ، وبذلك كثرت الآبار وتوافرت المياه على طول الطريق . وقد كان طريق سيناء الشمالى هذا هو طريق الغزوات السامية العديدة التى جاءت من الشرق إلى مصر فى أيام قدماء المصريين كالهكسوس وغيرهم . ثم جاءت عنه غزوة العرب وهجرات قبائلهم خلال العهد الإسلامى ، وكذلك خرجت على طول هذا الطريق غزوات المصريين وحملاتهم إلى الشرق القريب فى أعصر التاريخ المختلفة ، ولا تزال لهذا الطريق أهميته العسكرية الكبرى ، فهو مفتاح مصر من ناحية الشرق ، وفيه تسير الآن سكة حديد فلسطين ، وجانب من طريق السيارات البرى الجديد . وكلما سهل الاتصال وتيسر من هذا الطريق استوثقت العلاقة بين مصر وجاراتها العربية ، وبرزت قيمة اهتمام مصر بشؤون تلك الجارات . ولا بد هنا من أن نشير بصفة خاصة إلى موقع فلسطين عند طرف مدخل مصر الشرقى . ذلك أن فلسطين هى الجارة الوحيدة المباشرة لمصر من بلدان الشرق العربى ، فحدودها البرية من الشرق لا تلاصق بلدا غيرها ، ولا يمكن أن يتم الاتصال البرى بيننا وبين بلدان هذا الشرق إلا عن طريق أرض فلسطين ، وإذن فإن فلسطين إن هى بقية خارج نطاق الجامعة العربية الجديدة تستطيع أن تكون حاجزا حقيقيا بين مصر وبقية بلدان الجامعة ، فتعوق مثلا تنفيذ أية اتفاقية تجارية لتيسير تبادل المنتجات والتاجر ونقلها بين أقطار الجامعة ، أو تعوق مرور قسم من أنابيب البترول السعودية إلى إحدى موانئ سواحل مصر للتكرير والتصدير ، أو تعوق أية اتفاقية لتيسير مرور المسافرين بالبر بين مصر والشرق ، أو غير ذلك من الحالات التى قد تبدو افتراضية محضة فى الوقت الحاضر ولكنها قد تصبح واقعية ومؤلة .

وفوق ذلك فإن لفلسطين قيمة أخرى بالنسبة للعلاقات بين مصر وجاراتها العربية ، فهى تعتبر قاعدة عسكرية من الدرجة الأولى ، وتستطيع أية سلطة تسيطر عليها أن تهدد كيان

الشرق العربي كله ، ولعل في ذلك ما يكشف لنا عن ضرورة التعاون الشامل بين أمم الشرق العربي وشعبه إن هي أرادت أن تحفظ كيانها بعد أن تغيرت بعض الأوضاع العسكرية في هذا القسم الخطير من العالم .

على أن هذا الأمر فيما يتصل بمصر لا يقف عند أنها كانت وثيقة الصلة ببقية الشرق العربي ، ولا عند أنها تكون جزءاً أساسياً من هذا الإقليم الذي تشغله بلدان الجامعة ، وإنما يجب في الوقت نفسه أن نلاحظ أن مقومات الحياة في مصر ذاتها ترتبط بناحية ثانية غير الشرق الآسيوي ، هي وادي النيل من ناحية الجنوب . فقد قضت الطبيعة أن تمتد حدود مصر « الحيوية » في هذه الجهة الأخيرة إلى أبعد كثيراً من حدودها « السياسية » . ولذلك كان على مصر أن تستمسك بصلاتها ومصالحتها في الجنوب استمساكها بصلاتها ومصالحتها مع الشرق . بل لذلك كان اتصال مصر بالجنوب قديماً قدم اتصالها بالشرق . وكما كان ذلك الاتصال بالشرق قائماً على تبادل المنفعة والتجارة ، واحتكاك الفكر ، وانتشار الثقافة ، كان قائماً كذلك على هذه الأشياء جميعاً ، وعلى شيء آخر فرضته الطبيعة فرضاً ، فأحسه المصريون إحساساً واستجابوا له بفطرتهم ، فاتجهوا نحو الجنوب لأنه مصدر الحياة ، ونشروا حضارتهم فرعونية ومسيحية وإسلامية في ربوع السودان . بل تخطوه إلى بلاد أخرى في شرق أفريقيا وترتب على ذلك كله أن توطدت الصلات البشرية ، وتمكنت الروابط التاريخية ، فأضفت على الوحدة الجغرافية قوة جديدة ، لا بد أن تنتهي مهما طال الزمن ، ومهما كثرت المراقيل المصطنعة ، إلى أن يتصل ما قضت الطبيعة — وما أمر الله به — أن يوصل بين مصر والسودان ... وإلى أن يتم ذلك ينبغي أن نواجه الحقيقة الزدوجة ، والتي لا يمكن تجاهلها ، وهي أن مصر لن تجدد أمنها كاملاً ، إن هي اكتفت بتحقيق صلاتها المكنية مع الشرق العربي الآسيوي دون أن تستكمل وحدتها في الجنوب ، وإن هذا الشرق العربي ذاته لن يجد قوته كاملة ما لم تكن مصر والسودان معا عضواً أساسياً عاملاً في جامعة أمم الجديدة .

والآن وقد فرغنا من استعراض الروابط الجغرافية والتاريخية بين مختلف أقطار الجامعة نستطيع أن نعرض في إيجاز الحركة التي انتهت بتأليف الجامعة ، فقد يثير ذلك التاريخ سبيلنا في تحقيق مغزى هذه الحركة وتحديد أهدافها ومراميها واستشفاف بعض ما قد ينتهي إليه أمرها في المستقبل . وهذه الحركة كغيرها إنما جاءت وليدة تطور بعلى في الفكر والتنظيم داخل نطاق العالم العربي في الشرق القريب ، ونطور بعلى أيضاً (وإن لم يخل من مفاجآت وتحولات سريعة أحياناً) في علاقة سكان ذلك الشرق والعالم الإسلامي عامة بالعالم

الخارجي . وقد نذكر أن انتشار الإسلام اقترن منذ البداية بحركات سياسية كبرى سببت إنشاء الإمبراطوريات والممالك العربية المتتابة ، ورغم قلب السيادة وانتقالها في النهاية من أيدي العرب إلى أيدي الأتراك ، ودخول الشرق إثر ذلك في عصر مظلم ، سادته الانحلال والركود ، فقد احتفظ العالم الإسلامي في جملته باستقلاله السياسي خلال قرون ثلاثة أو تزيد ، حتى إذا ما انتهى القرن الثامن عشر وطلع القرن التاسع عشر وجاء نابليون بحملته المشهورة على مصر والشرق العربي ، كان ذلك فاتحة عهد جديد ، إذ كانت هذه أول ضربة موجهة إلى قلب العالم الإسلامي ، لفتت النظر إلى أهميته الكامنة ، وقيمته بالنسبة للتسابق الأوربي نحو السيطرة العالمية . ومع أن حملة نابليون هذه أخفقت في غرضها المباشر من احتلال مصر ، وقطع الطريق على الإنجليز إلى إمبراطوريتهم في الهند ، فإنها كانت نقطة تحول في التاريخ عامة ، وفي تاريخ اتصال الشرق بالغرب ، والعالم الإسلامي بأوروبا بصفة خاصة . وربما كانت الحملة الفرنسية من هذه الناحية من أبعد حروب نابليون أثراً وأبقاها ذكراً على الزمن .

وقد تتابع الضغط الأوربي والتوسع السياسي على حساب العالم الإسلامي خلال القرن التاسع عشر . ولم يكن غريباً أن يؤدي إطاراد الضغط والتوغل في بلاد المسلمين وممتلكاتهم إلى رد فعل سياسي ، فنشأت في الربع الأخير من القرن الماضي حركة خطيرة كان على رأسها جمال الدين الأفغاني ، وهي حركة « الوحدة الإسلامية » التي رمت إلى تحرير البلاد الإسلامية وإعزاز جانبها دفعا للخطر الأجنبي . وقد فسرت هذه الحركة إذ ذاك تفسيرات مختلفة ، فقال بعضهم إنها إحياء لحركة التوسع الإسلامي القديمة ، وإنها تفتوى على خطر كبير وشر مستطير بالنسبة لأوروبا والمسيحية عامة . وقال بعضهم إنها وإن لم تستطع أن تعيد عهد السيف وأن تعلن الجهاد المسلح فإنها ستبعث روح التمسب ، وتغذي عناصر الحقد والكراهية التي لا بد أن تخرج الشرق والغرب في النهاية إلى التطاحن والحرب ، وقالت فئة قليلة إن هذه الحركة لا تعدو أن تكون نفخاً في الهواء يثير الزوابع المحلية ، ولكنه لن يستطيع أن يبعث في الشرق روح الجهاد ، كما بعثها ظهور الإسلام لأول مرة . والحقيقة أنها كانت حركة طليمية ، ونتيجة لازمة لما سبق به الغرب من توغل واستفزاز ، ولم يكن الشرق ولا الدين مسئولين عنها بأكثر من الغرب ومن السياسة . وليس أدل على أن الدافع السياسي الكامن في هذه الحركة كان أقوى من الدافع الديني انقلاصها من أنها ما لبثت — رغم تسميتها « بالوحدة الإسلامية » — أن تحولت وانقلبت بالتدريج في أوائل القرن الحالى إلى حركتين عنصريتين داخل العالم الإسلامي ، وهما : حركة الطورانية ، وحركة الوحدة العربية . وكانت

هذه الأخيرة موجهة ضد العثمانيين المسلمين بقدر ما هي موجهة ضد الغرب المسيحي .
والذى يعنينا فى شأن حركة الوحدة العربية أنها كانت تمثل المرحلة الثانية فى الوعى
السياسى الحديث للشرق العربى . ولم يكن هذا الشرق فى أوائل القرن الحالى قد أصابه كثير
من ضغط أوربا المسيحية ، فيما عدا مصر التى استولى عليها الإنجليز ، بل كان ذلك الشرق فى
جملته لا يزال تحت حكم العثمانيين بالفعل أو بالاسم . لذلك لم يكن هناك سبيل إلى أن تتخذ
الحركة العربية مظهراً دينياً ، وإنما هى قد ظهرت على حقيقتها منذ البداية . ولكنها كانت
بذلك أدعى إلى القوة ، وأدنى إلى الحقائق العملية من الحركة الأساسية الأولى ، فضلاً عن
أن العالم العربى كان أصغر كثيراً من العالم الإسلامى ، وكانت أجزاؤه أكثر تقارباً وتماسكاً ،
وشؤونه الاقتصادية أكثر تداخلاً وتشابكاً ، وثقافته أكثر وحدة واتساقاً من العالم
الإسلامى الكبير الذى يشمل الهندى والفارسى والتركى والعربى وغيرهم من ذوى الأقطار
التباعدة والمصالح المتفرقة ، والثقافات المختلفة ، والاتجاهات المتباينة التى بصمب الجمع بينها
فى كيان سياسى واحد .

لذلك كله نشأت حركة الوحدة العربية وهى أصحح للبقاء والنمو من الحركة الإسلامية ،
وقد أفادت الحركة الجديدة من الحرب العالمية الأولى عند ما انحاز العرب إلى جانب الحلفاء
ضد تركيا التى انضمت إلى المعسكر الألمانى النمساوى . ومع ذلك فإن آمال العرب الواسعة ،
وما حصلوا عليه من وعود وعهود كثيرة لم يتحقق منها غير جانب ضئيل محدود . ذلك أن
الحرب التى أبرزت قيمة الموقع الجغرافى والعسكرى للشرق الآسيوى القريب أطمعت فيه
الدول المستعمرة وذات المصالح فى الشرق عامة . وقد جاهد العرب وناضلوا فى إزاحة سلطان
الأتراك . ولكنهم لم يرقوا إلى مكان السيادة إلا رقباً جزئياً محدوداً ، وفى المناطق الداخلية
البعيدة من الجزيرة كنعجد ، أو المنزوبة وغير المعروفة كالبين الأعلى . أما السواحل العربية
والمناطق الهامة فى المرور والمواصلات ، أو الغنية بموارد الزيت وغيرها ، فقد امتدت إليها
الأيدى غارية سافرة ، أو مقفزة مستورة ، فكان فتح واحتلال ، وكان نفوذ وانتداب ،
وخرجت بريطانيا وفرنسا بنصيب الأسد ونصيب النمر ، بعد أن حاولت أمريكا أن يكون لها
يد ، ثم كفت عن ذلك وتقاعدت بعيدة عن الشرق ومشكلات الشرق .

وفى هذه الأثناء كان الوعى السياسى فى الشرق العربى قد دخل فى المرحلة الثالثة من
مراحل تطوره الحديث ، إذ أخذ الشعور القومى المحلى يتسرب إلى هذا الشرق بمختلف
أصقاعه وبيئاته خلال الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين ، وأخذت فكرة « الأمة » تتبلور

في أوطان صغيرة وأقاليم محدودة . ولم بعد أساس فكرة « القومية » و « الأمة » الاشتراك في الدين ، كما كانت الحال في المرحلة الأولى أيام حركة الوحدة الإسلامية ، ولا الاشتراك في اللغة والثقافة ، كما كانت الحال في المرحلة الثانية إبان الأيام الأولى لحركة الوحدة العربية ، وإنما أصبح ذلك الأساس هو « الوطن » و « القومية الوطنية » التي تتصل ببيئة معينة وإقليم معين ، تعيش داخل حدوده جماعة بشرية تتشابه بين أفرادها المصالح ومقومات الحياة مادية ومعنوية ، ويكون من الميسور توجيه جهودهم والإعراب عن آرائهم بتلك الوسائل التي اصطفتها وأخذت بها الأمم والقوميات الحديثة في أوربا خلال الجيلين السابقين . وكانت شعوب الشرق العربي قد أخذت تدرك أن الظروف والأوضاع السياسية قد تغيرت كثيراً عما كانت عليه من قبل . فمشروع الوحدة العربية لا يسهل تفيذه في صورته النظرية ، كما أن الوحدة الثقافية العامة لا تكفي أساساً لقيام الوحدة السياسية والقومية ، خصوصاً إذا تشعبت المصالح المادية والنزعات القومية ، وإذا اختلفت مراحل الفضيح السياسي وتباينت نظم الحكم في مختلف الأقطار .

ولكن الحرب المنتهية ما لبثت أن جاءت بعنصر جديد ، أو هي بعبارة أدق قد عجلت ظهور هذا العنصر الجديد . فبعد أن كان الشرق الأدنى في الحرب العالمية الأولى ميداناً ثانوياً إذ به يصبح في الحرب الثانية ميداناً أساسياً من ميادين القتال ، تجمعت فيه القوات المحاربة بأعدادها الضخمة من أغلب أقطار العالم ، ودارت فيه ملاحم كبرى كن بعضها فاصلاً وحاسماً في تقرير مصير الحرب كلها . فبرزت قيمة هذا الإقليم الحيوية ، وزاد اهتمام الدول الكبرى بشؤونه العامة ، وبكثير جداً من شؤونه التفصيلية الخاصة ، ونبه ذلك أهل الإقليم إلى أن بلدانهم وأقطارهم تحتل موقعاً جغرافياً بالغ الخطورة من ناحية المواصلات العالمية ، وماتسبقت الأمم المتحاربة الكبرى في زحفها نحو هذا الموقع إلا لقيمته الفاصلة في كل ما يتصل بالسيطرة العالمية في الحرب والسلام على السواء . وسادام الأمر كذلك فإن مصائر الشرق الأدنى وتاريخه القابل ستبقى مرتبطة أشد الارتباط وأوثق بالشؤون العالمية والمصالح الدولية ، ولن يفيد في مثل هذا الموقف الدولي أن يكون لكل وطن صغير في الشرق العربي استقلاله القومي ، فقد لا يلبث مثل ذلك الاستقلال أن يذهب مع الريح ، التي قد تهب من الغرب أو من الشمال ، أو هي قد تعصف عاتية كالإعصار من جميع الجهات ، فتكون الطامة الكبرى ، وتأتي الريح العصرصر على كل شيء ، ويطوح بأهل المشرق إلى أسفل الدرج من جديد .

في هذه الظروف بدأ القاعون على شئون أم الشرق العربي يدركون ضرورة إيجاد نوع

من التعاون بينها جميعا لعمل ذلك بشد من أزرها ، ويقطع الطريق على بعض ذلك التنافس والتسابق بين الدول الكبرى على استغلال تفرق الكلمة بين أمم الشرق . وقد ساعد على هذا الاتجاه الجديد نحو التعاون أن بريطانيا التي تجمع لها من الخبرة والتجربة في شئون هذا الشرق ومن المصالح الحيوية فيه أكثر مما تجمع لغيرها من الأمم القوية ، قد أحست حاجتها إلى أن تعدل في سياستها التقليدية وإلى أن تسير الاتجاهات الجديدة قبل أن يسبقها الزمن ، فلم تعارض في ما بذله قادة الشرق العربي من مسعى في سبيل التعاون المنشود . . . وهكذا تهيأت الظروف ، وتسابقت الحوادث . حتى تم تأليف جامعة الأمم العربية ، التي نحن بصدددها الآن .

على أن من المهم أن نلاحظ أن هذه « الجامعة » العربية بتشكيلها الحالي تختلف عن « الوحدة » العربية بالمعنى السياسي المعروف ، وقد تقدمت شعوب الشرق العربي حديثاً نحو الاستقلال القومى ، ونظرت — أو نظر فريق منها على الأقل — إلى « الوحدة » السياسية على أنها رجوع إلى وراء ، وعلى أنها أمر لا سبيل إلى تحقيقه بالمعنى الضيق للوحدة ، بعد أن اتخذت هذه الدول الناشئة سبيلها إلى تحقيق الاستقلال القومى في كثير من الأشياء ، بل بعد أن أخذ كل منها بنظامه الخاص في الحكم والإدارة إلى حد لم يستطع قادة الشرق أن يفكروا حتى في إقامة « اتحاد » بين الأمم أو القوميات العربية على نحو ما نجد في الولايات المتحدة الأمريكية ، أو اتحاد الجمهوريات السوفيتية . وعلى ذلك لم يكن بد من الاكتفاء « بجامعة » تحتفظ فيها كل دولة بكيانها المستقل ، ولا ترتبط ببقية الأعضاء إلا بالمشاورة الحرة ، وفي حدود ما اتفق عليه الأعضاء مختارين ، تحقيقاً للمصالح المشتركة ، وضماناً لما عسى أن يصيب الأعضاء منفردين أو مجتمعين من خسر لا بد أن يترتب على اجتماع كلهم في عالم لا تكاد الصيحات الفردية الضعيفة نجد فيه صدى ولا تردداً .

ومع ذلك فقد لا نبعد كثيراً عن الحق إذا نحن قررنا أن مشروع الجامعة ، كما أخذ به ، كان خير ما يمكن التوفيق به بين فكرة الوحدة من جهة ، وبين ما استجد على الشرق العربي وأقاليمه من وعى سياسى قومى وما اقتضته الظروف الدولية ونظام العالم الجديد من جهة أخرى وقد لا يبعد أن تثبت الأيام أن هذه الخطوة التي خطاها الشرق العربى كانت خطوة سديدة خطتها شعوبه في الاتجاه الصحيح ، وأن السياسة التي أملت لها لم تكن سياسة عاطفية متطرفة بقدر ما كانت سياسة عملية تقوم على الاعتدال وإدراك الحقائق . بل قد لا يبعد أن تكون الجامعة في قابل الأيام ، ورغم بعض الأغراض السياسية الطارئة ، أداة سالمة لتحقيق

التعاون الدولي في هذا الإقليم الذي يعتبر محكاً خطراً للعلاقات الدولية والعالمية ، وأن تكون فوق ذلك وسيلة صالحة لتوحيد الجهود واستكمال ما نقص من استقلال أكثر أعضائها الحاليين وتمهيد السبيل لاستقلال بقية الشعوب العربية التي لا تزال خارج الجامعة ، ولكنها تتوق إلى الانضمام إليها في يوم من الأيام .

وبعد فإن الشرق العربي كان منذ أقدم العصور مدرسة للانسانية في كثير من الأشياء . ففيه نشأت غير واحدة من المذاهب القديمة ، وفيه نشأت الأديان السماوية ، ومنه انتشرت ذات اليمين وذات الشمال ، وفيه احتك الشرق بالغرب ، فتعارف الإثنان وتعلم كل منهما من الآخر بعض ما لم يكن يعلم . وقد مر الشرق العربي في تاريخه الطويل بكثير من التجارب والأحداث ، ولا شك أن تاريخه الطويل القابل سيحفل بمثل ما حفل به ماضيه ، وربما كان مرجع الاضطراب السياسي وعدم الاستقرار في هذا الإقليم إلى أن بلدانه ذات تقاليد قديمة راسخة في الحياة والحكم والثقافة ، وكل جديد فيها لا بد أن يتسق مع القديم الذي لم يستطع الزمن أن ينسخه . ولذلك كان طبيعياً ألا تستقر النظم الجديدة في سهولة ويسر . ومع ذلك فإن الشرق العربي يمر الآن بتجربة يكاد يسبق بها الزمن ، فهو يحاول أن يوفق في نظامه السياسي بين القومية الضيقة التي تربط بوطن معين وأمانى قومية من الطبيعي ألا تخلو من بعض أنانية ، وبين التعاون الدولي في جماعة من الأمم المتقاربة وذات المصالح المشتركة . ولا بد أن يؤدي هذا التوفيق إن نجح إلى تهذيب الشعور القومي ، وتلطيف روح المعصية الإقليمية ، على نحو يعلم الأمم الصغيرة كيف تعمل وتضحى من أجل جاراتها وزميلاتها ، فيما تنتسب إليه من جامعة أو جامعات ، هي مثال مصغر لما تسعى إليه الإنسانية من هيئات عالمية شاملة . بل لعل تجربة الجامعة العربية إن هي نجحت وتوطدت أركانها على مر الأيام — ونجاحها متوقف على معاونة العالم الخارجى بقدر ما هو متوقف على إخلاص أعضاء الجامعة وقبولهم التضحية — لعلها أن تكون مثلاً يحتذى في مناطق مشابهة من العالم ، كأمريكا اللاتينية التي تشترك أممها ، أو تكاد تشترك ، في اللغة والثقافة والمصالح العسكرية ، أو كأمم جنوب شرق أوربا ، التي تشترك في الموقع الجغرافى والمصالح الاقتصادية ، وإن تباينت في الجنس والثقافة . . . ومن يدى لعل نجاح الجامعة العربية يكون درساً جديداً في التنظيم والعلاقات الدولية بضيفه الشرق إلى ما قدم للانسانية في تاريخه الطويل من دروس .

سليمان عزيز

أستاذ الجغرافيا بجامعة فاروق الأول

هياة المهاجرين العرب في أميركا

ماذا استفادت وماذا تستفيد منهم البلاد العربية ؟

لأستاذ محبيب إبراهيم طنبج

في عقود معدودة من السنين سيستقل الشرق العربي — سيستقل استقلالاً حقيقياً ، استقلالاً أدبياً روحياً تكون فيه علاقاته مع الغرب في الأدب والفن والعلوم الاجتماعية والفلسفة — حتى والعلوم الطبيعية — علاقات الند بالند والسوي بالسوي . وفي هذه العقود المقبلة من السنين قد يختصر هذا الشرق العربي طريقه إلى محجته القومية إذا هو أحسن استخدام كنوز ثمينة من الاختبارات الشخصية والعرفة الكنتسبة والحكمة العملية المكتسبة التي أصبحت ملكة في ألوف من المهاجرين العرب في الديار الأميركية — من كندا شمالاً إلى الأرجنتين جنوباً . لحياة المهاجرين العرب في أميركا هي سجل غريب لتجربة عجيبة مدهشة في تطور مئات الألوف من الناطقين بالضاد في محيط يختلف اختلافاً باثناً عن المحيط الذي نشأوا وترعرعوا فيه . ولم يكن هذا التطور وما نجم عنه من الاختبارات دائماً فالحماً مفيداً . ولكن قسماً كبيراً منه — إن لم يكن الأكبر — كان كذلك . حتى ليجوز لنا أن نقول إن العرب في المهاجر الأميركية كانوا ، بوجه الإجمال ، ماهدين ما ينشده العرب من الحياة الجديدة في عهد استقلالهم . ونعني بها الحياة التي تحرص على عزة النفس وتمتشق الحرية واسمى وراء الاستقلال الاقتصادي وتجد وراء رفع مستوى المعيشة بين عامة الشعب وتقيد بالنظام وتطلب البرهان بالعمل وتبذل وطنية الكلام والتبجح وتمسك بالوطنية الثمرة الباقية . ففي جميع هذه الأمور كان المهاجرون ولا يزالون على ما نعتقد عجائين في ميدان الحياة إذا قيسوا بإخوانهم في الوطن القديم .

لذلك نحسب أن أول فائدة تجمع بين ما استفاده العرب وما أفادوا أو يرجى منهم أن يفيدوا به البلاد العربية هي مجرد نجاح العدد الكبير منهم في مرافق الحياة المختلفة ، وقد حذ هذا النجاح دليلاً واضحاً وحجة نامصة على القوى السكائمة في صدر العربي والإمكانيات الواسعة التي تبرز من عالم الغيب إلى عالم الحضور عندما تتوفر له الفرص والظروف الوائبة . فالمهاجرون

العرب ، إلى أجل غير بعيد ، كانوا مقياساً للحد الأقصى الذى يستطيع العربى أن يصل إليه فى جو من الحرية يطلق فيه النبوغ من قيوده ويفسح للعبقرية مجال المباراة . ولا يخامرنا أقل شك فى أن الأقطار العربية — وبالأخص لبنان وسوريا — مدينة حتى الآن فى بعض نجاحها وتقدمها لجهود العرب المهاجرين فى أميركا وللاهتمام الشديد الذى أبدوه بأوطانهم القديمة . فى لبنان خصوصاً أصبح البيت المسقوف بالآجر الأحمر رمزاً ملموساً لهذا الدين ولهذا النجاح الذى أحرزه المهاجرون فى ديار غربتهم . وقد ساهم المهاجرون فعلاً بمشاريع عديدة فى الوطن القديم — أهمها اقتصادية تجارية بحثة ومنها خيرية — حتى تكاد لا تخلو قرية فى لبنان وسوريا من أثر لهذه المساهمة مهما كان ضئيلاً . وتكفى الإشارة إلى مشروع الفزل والنسيج لعريضة إخوان فى طرابلس — لبنان — ومشروع الكهرباء لشمالي لبنان الذى اشترك المهاجرون اللبنانيون الشماليون فى إيسترن — بنسلفانيا — وغيرها بقسط وافر من أسهمه وشركة عمرى ورومية للجلود فى دمشق التى قضت عليها تضيقات الاستعمار الفرنساوى حين أخذت تراحم صناعة الجلود الفرنساوية .

لقد استفاد المهاجرون العرب فى حياتهم المهاجرة فى أميركا — وأفادوا . ولست لأنوه هنا باستفاداتهم وإفاداتهم المادية — وهى كثيرة . بل أود أن أوجه إلى استفاداتهم وإفاداتهم المعنوية وهى أكثر أهمية وأبعد مدى . فى الشؤون المادية أخذ المتخلفون يزاحمون إخوانهم المهاجرين وكثيراً ما يبرزونهم فيها . وإذا ذكرنا الاستفادات والإفادات المعنوية فلا نعى بذلك تفوق المهاجرين تفوقاً خلقياً على المتخلفين أو أن ما يتحلى به المهاجرون من الصفات هو أفضل وأرفع شأنًا مما توارثه المتخلفون من الأخلاق الطيبة السمحة جيلاً بعد جيل ، بل نعى أن هناك صفات خلقية نعد صالحة ومؤهلة للنجاح المادى والاجتماعى هى أوفر فى المهاجرين منها فى المتخلفين ، ونخص من هذه ثلاث صفات — (١) الحرية الشخصية (٢) الاجتهاد (٣) التعاون والتنظيم . هذه يصح أن ندعوها عوامل نفسية لا يستغنى عنها فى طلب النجاح . ولا أرانى بحاجة إلى التطويل فى الكلام على كل منها وقد نشرت فصول بل كتب عديدة فى اللغة العربية عنها وعن غيرها فى سبيل الكلام عن مستقبل البلاد العربية ومتطلبات التقدم لها .

(١) لقد كان التوق إلى الحرية الشخصية والحرب من « الظلم التركى » والانتفاض على شرائع حائرة كان يفرضها السلطان على رعاياه فرضاً ، من أهم الأسباب التى حملت كثيرين فى سوريا ولبنان — ولا سيما من المسيحيين — على هجر دينك البلدين الطيبين وركوبهم متن

البحار إلى « أمريكا » . وكان ما وجده المهاجرون العرب من معاني هذه الحرية ومدادها ما أدهشهم ، فقد كان كثيرون ولا يزال بعض منهم أحياء يدعون رئيس الجمهورية الأميركية — أكان ذلك في الولايات المتحدة أم المكسيك أم البرازيل أم الأرجنتين — « ملكا » . وكانت دهشة هؤلاء عظيمة عند ما يختبرون بنفوسهم أن « ملك » بلاد عظيمة كالولايات المتحدة مثلا ينزل إلى ميدان الانتخاب ويجاهد ويكافح ويسعى لاكتساب الأصوات بالوعود والتملق والاستمطاف ، وأن الذي ينصب هذا « الملك » أو ذاك في البيت الأبيض هو هذا المصوت أو الناخب البسيط الذي يتسابق المرشحون إلى اكتساب صوته . وإذا وجد تلاعب في الانتخاب أو وجد من الشعب من « يبيع » صوته ويمشي وراء زعيم فرض نفسه على أبناء جنسه لنفوذ اكتسبه في الوطن القديم فاللوم يقع على الفرد المسمى « الحرية » المتهن لكرامة نفسه لا على أميركا . ومن ظواهر هذه الحرية التي تدل على سلامة عنصر العربي وقبول نفسه لطابع الحرية التي كانت قديما من شيمه وتقاليده التليدة أن العربي في المهجر استساغ هذه الحرية الشخصية التي وجدها في أميركا واستفاد منها أكثر مما استفاد غيره من المهاجرين . فبالرغم من بعض المظاهر التي قد تحملنا على عكس هذا الاستنتاج — من عصبية مذهبية أو إقليمية أو انقياد أعمى لصحفيين وزعماء أنانيين أو تمسك بحزبيات جذورها متأصلة في الأوطان القديمة — نجزم بالقول أن العربي المهاجر كان أكثر تنميا بالحرية الشخصية في أميركا من غيره من الشعوب السلافية مثلا أو الإيطاليين واليونانيين أو الألمان القريب المهد من هجرتهم . وفوق ذلك لم يكن العربي المهاجر مقلداً في استعماله الحرية الشخصية . فقد عدل هذه الحرية بما رسخ في قرارة قلبه من الاحترام للشرع الأدبي والتعاليم الدينية القويمة والمبادئ الإنسانية الشاملة التي توارثها عن آبائه وجدوده عوداً إلى فجر التاريخ . فقل بين المهاجرين العرب الجاعون والإباحيون والمجرمون الذين يدوسون حريات غيرهم غير عابئين في تسارعهم إلى النجاح الذي يتهافتون عليه تهافت الجياع على القصاص . وهذه حقيقة اعترف بها الأميركيون نفوسهم ونوهوا بقلة المجرمين بين « السوريين » — وهو الاسم الذي كان يطلقه الأميركيون الشماليون على السوريين واللبنانيين معا إلى عهد قريب . أما في أميركا اللاتينية فقد شاع استعمال النسبة القديمة المغلوطة « توركو » أي أراك .

(٢) كان الاجتهاد الظاهرة البارزة التي بدت أعيان المتخلفين متجسمة . وفيها نفى

شاعر النيل حافظ إبراهيم في قصيدته المشهورة عن المهاجرين التي يقول فيها — :

أسطولهم أمل في البحر مرتحل وحيشهم عمل في البر مقرب
رادوا المناهل في الدنيا فلو وجدوا إلى الهجرة ركبا صاعدا ، ركبوا

ويقول كثيرون إن هذا الاجتهاد الذى أظهره المهاجرون من سوريا ولبنان لو أظهروا جزءاً منه فى الوطن القديم لكان ذلك الوطن قد عمر وتقدم منذ عقود من السنين . فهؤلاء ينسون أو يتناسون أن الوازع أو الدافع لذلك الاجتهاد كان مفقوداً فى الوطن القديم — إلا فى مدة السنين الأخيرة . فليس الذى « يشغل نفسه » ويتمتع بشمر اجتهاده كالذى يشغل لحاكم مستبد يستولى على جنى يديه وعرق جيده . وقد كان زمن يذكره أبناء هذا الجيل عن آبائهم أو جدودهم فى سوريا وغيرها من بلاد المملكة العثمانية يتهرب فيه الفلاح من « تطويب » الأراضى الصالحة للزراعة باسمه خوفاً من عواقب « العشر » . فالمهاجر العربى عندما أمّ هذه الديار الأمريكية فى أواخر القرن التاسع عشر وجد أن كل ما جنت يده من مال ورزق — عدا ضريبة كانت آنثذ خفيفة لا تذكر — هو له « حلال زلال » فجد واجتهد واستغنى ، وفاض عنه ما أرسله إلى أهله فى الوطن القديم . ووجد أيضاً مجال الفرصة متسماً وميدان العمل الحر مفتوحاً أمامه وتسهيلات النجاح متوفرة لديه فريت فيه ملكة الاعتماد على النفس وشق طريق الفلاح بعزمه ودهائه فى بلاد كانت ولا تزال « فردوس الماهدين » . وكان هذا الاجتهاد نفسه — أو بالأحرى نتيجة هذا الاجتهاد وحلاوة مذاقه وحرية التمتع بثماره — وازعا لمعنى آخر من الاجتهاد : نعى به الاستنباط وانصراف قوى الإنسان إلى أمور أخرى غير التى اعتادها . فالسورى أو اللبناى المهاجر الذى لم يتعود فى قريته الصغيرة أكثر الأحيان — إلا الفلاحة والزراعة ومشق ورق التوت لتربية دود القز أصبح بين ليلة وضحاها « بائع كشة » يحمل فى صندوقه عشرات أنواع البضائع التى لم يكن يعرف أسماءها قبلاً . ثم بعد أن يجمع قليلاً من رأس المال يفتح دكانة صغيرة لبيع « الخردة » ثم يفتننا كبيراً للأقمشة أو حانوتاً للبدالة ولأناكولات . وإذا تأمل القارىء أنواع التجارات والصناعات والهن التى يضطلع بها المهاجرون العرب اليوم فى الولايات المتحدة فإنه ليدعش من تنوعها . نذكر بعضها هنا على سبيل المثال — تجارة المطرقات والخروجة Cases وصنعها فى معامل خاصة فى فرنسا وإيطاليا وبلجيكا وأخيراً فى الصين حيث يشتغل مئات الألوف من الرجال والنساء لحساب التجار السوريين واللبنانيين — حياكة الأقمشة الحريرية — حياكة الجاكيتات والسكرافات — صنع الفلافل والمبازل النسائية — صنع الثياب النسائية المازلية والسبورتية — تجارة البدالة على أنواعها — تجارة شحن الفواكه والخضر بالجملة — المقاولات لتعبيد الطرقات وبناء المنازل — التنقيب على البترول والغازات الطبيعية — الطب — الهندسة — الكيمياء — المحاماة — التاريخ — العلوم الاجتماعية — الفلسفة — اللغات — العلوم

الإلهية - الصحافة - التأليف - الموسيقى - الرسم - النحت - الرقص .

وقد برز كثيرون من مهاجريننا في كل من مرافق الحياة والمهن الحرة هذه وفي كثير مما لم نذكره . وقد أتيت في كتبي « الناطقون بالضاد في أميركا^(١) » على عدد من هؤلاء البارزين والناخبين من المهاجرين العرب .

وإذا ضربنا صفحاً عن الذين ظفروا من النجاح المادي بسهم وافر نعد بين المهاجرين العرب كثيرين من الذين أفادوا وطنهم الجديد وأفادوا أوطانهم القديمة بفجاحهم الأدبي الروحي . فكان بين هؤلاء من قرب فهم الروح الشرقية العربية إلى أذهان الأميركيين كجبران خليل جبران صاحب كتاب « النبي » وكتاب « يسوع الناصري » وغيرهما من التأليف الصوفية النزعة الشعرية النظرية - وأمين الريحاني المعروف في جميع البلاد العربية بتأليفه العديدة عن البلاد العربية وملوكها - وإبراهيم مئري الرحباني صاحب كتاب « المسيح السورى » وكتاب « حكماء من الشرق وحكماء من الغرب » - والأستاذ فيليب حتى صاحب كتاب « تاريخ العرب » وغيره من التأليف التاريخية عن العرب . وأفاد بعض من هؤلاء المؤلفين وغيرهم بما كتبوه باللغة العربية « كالريحانيات » « وزنبقة النور » « لأمين الريحاني » « والأجنحة المتكسرة » و « دمة وابتسامة » لجبران « والآباء والبنون » لنعيمه الخ . وفيها كلها انتفاض على روح الرجمة والتعصب والاستبداد . وترانا يغير حاجة للتنويه بالشعراء العرب الذين نبغوا في الديار الأميركية ورددت أندية الأدب والمدارس في عواصم العالم العربي قصائدهم وسارت بها الركبان كإيليا أنى ماضى ونسب عريضة ورشيد سامي الخورى المعروف بالشاعر القروى ورشيد أيوب والياس فرحات ونذره حداد وفوزى وشفيق معلوف ونعمة قازان وشكر الله الجر وغيرهم . جميع هؤلاء نفخوا روح الحرية في أشعارهم وعكسوا على صفحات دواوينهم فكرة أميركا التي لم تبق بعد الآن فكرة أقليمية جغرافية بل فكرة روحية قد تجدها في أواسط أفريقيا ومجاهل آسيا وقد لا تثر عليها في مجاهل نيويورك ومناور شيكاغو . ويشط بنا الزار لو جئنا نعدد جميع الناجحين البارزين من المهاجرين العرب في المهاجر الأميركية بل يستحيل علينا إحساؤهم الآن بالضغط ، ولكننا نستطيع أن نقول بلا وجل أو تردد إنه لا يكاد يخلو مرفق من مرافق الحياة أو ناحية من نواحي الاجتهاد في أميركا لا يتمثل فيه عربي أو ابن عربي مهاجر . فمنذ أقل من سنة تولى في

(١) نشر هذا الكتاب « معهد الشؤون العربية الأميركية » في نيويورك ، وترجمه إلى العربية بتوسيع وشرح الأديب الفلسطيني « يعقوب عويدات » المعروف بالمدوي القلم .

باريس رجل اسمه الدكتور جبرائيل طربه ابن مهاجر لبناني كاد يصل إلى رئاسة جمهورية كولومبيا . وفي جامعة كورنيل عالم بالهندسة الكهربائية نشرت عنه جريدة التيمز النيويوركية مقالة اخبارية مطولة منذ بضع سنوات لما اكتشف حلا رياضيا لمعضلة هندسية كهربائية قيل إنها أعجزت الرياضيين مدة أكثر من مئتي سنة — وهو الأستاذ ميشال مالطى . وفي نيويورك مهاجر عربى آخر اخترع آلة لتدوين الصوت واسعة الانتشار . وفي هيوستن — تكساس — مهندس جيولوجى اكتشف طريقة لتسهيل استخراج البترول من الأراضي الرملية . وفي لك سیتی — أوكلاهوما — طبيب من بلدة جديدة مرجعيون اسمه الدكتور ميخائيل شديد صاحب فكرة أول مستشفى تعاونى فى أميركا وهو يدعى « أبا الطب التعاونى » فى هذه البلاد . ولو أردنا التجرى والتوسع فى هذا الموضوع للمأنا عشرات الصفحات بذكر هؤلاء المهاجرين وأولادهم الذين استفادوا من هجرتهم وأفادوا أوطانهم الجديدة وأوطانهم القديمة — إن لم يكن بشىء سوى ما أكسبوا هذه الأوطان من السمعة الحسنة ، لكفى .

(٣) التعاون والتنظيم : بالرغم من أن الفردية تملك شواعر العربى — المقيم والمهاجر على السواء — فقد علمت مصائب الدهر العرب أهمية التعاون والتنظيم . وكان للمهاجرين منهم نصيب من ذلك . لم يتوصل المهاجرون العرب إلى تأليف شركات مساهمة كبرى وأكثر ما نجد من شركات هؤلاء المهاجرين هو من نوع الشركات العائلية تنحصر أسهمها بأخوة وأنساب . وهذا لا يعنى أن عدداً من المهاجرين العرب لم يساهموا فى تأليف شركات أميركية . على أن التعاون الذى نحن فى صددده ظهر بين المهاجرين العرب فى مشاريعهم الخيرية وجمعياتهم الكبرى ؛ ففي البرازيل حيث يتجلى هذا التعاون فى أبهى مظاهره نجد « كاييتين » عربيتين ومستشفى وداراً للعجز وأندية مختلفة منها النادى الرياضى فى سان باولو الذى يعد من تحف تلك المدينة المظلمى . ولا غرو فى ذلك فإن جالية سان باولو العربية هى كبرى الجاليات العربية — خارج العالم العربى — يبلغ عددها فوق الأربعين ألف نفس وتجارة تلك المدينة بالأقمشة يكاد يسيطر عليها المهاجرون من أصل عربى . بل أن شركة يافت إخوان تعد من أكبر الشركات التجارية الصناعية فى البرازيل . ولأسباب لا نريد أن نبحث فيها فى هذا المقام لم يتوفق المهاجرون العرب فى الولايات المتحدة فى مظهر التعاون بمثل ما توفق إخوانهم فى أميركا اللاتينية . فإذا استثنينا بعض الجمعيات الخيرية و « أحلاف » لجمعيات سورية لبنانية تشمل الولايات المتحدة كلها وبصح فيها المثل العربى « تسمع عجيجا ولا ترى

طحيينا» لا يستطيع المهاجرون العرب في الولايات المتحدة أن يتباهوا بما يحق لإخوانهم جنوبي نهر الغراند أن يتباهوا به في مضمار التعاون والاتحاد . على أن مهاجري الولايات المتحدة لم تفهم الاستفادة من التنظيم والكفاءة الأمريكيتين . فقد تطبع بها السوريون واللبنانيون تطبعاً غريباً حتى فاق فيهما بعضهم الأمريكيين من الأصل السكسوني . ويصح هذا بالأخص في أبناء الجيل الثاني . فصنع « مود أوداي Mode OF Day » (أى موضة اليوم) لأنيس معلوف وإخوته في لوس أنجلوس ، له - أو كان له منذ بضع سنوات - ٣٥٠ محلا تباع بضائمه من جميع أنواع الألبسة النسائية المنزلية المعتدلة الثمن . وقد فتق لهؤلاء الأخوة أثناء الأزمة الاقتصادية الكبرى في هذه البلاد أن لا يبيعوا بضائهم بل يضعونها بالأمانة في مخازن يتعهد أصحابها بأن لا يبيعوا من الثياب النسائية إلا ما يصنع في معملهم . وبعملهم هذا وفروا على أصحاب المخازن كثيراً من رأس المال وكفّلوا بضاعتهم من الخسارة إذا ما أفلس المخزن أو حاول الإفلاس . ولهذه الشركة بناية كبرى بأربعة عشر طابقاً ومكتب شرعى لمقد الاتفاقات التجارية بين أصحابها وأصحاب المخازن التي تتعامل معهم . وفي دالاس (تكساس) أعظم شركة لصنع البنطلونات الرجالية في العالم وهى ملك مهاجر لبناني ولها ثلاث معامل أحدها في دالاس نفسها يعد من أنقى وأنظف وأغلى المعامل من نوعه في جميع البلاد ، الهواء في داخله معدّل Air - Conditioned ، وغرفته مفارقة بالتيون Neon الأزرق الذى لا يؤذى العيون وفيه مطعم ومستوصف . وفي جاكسونفيل (فلوريدا) أجمل معمل لتنظيف الثياب وصاحبه أيضاً لبناني .

يتساءل القارىء ولا ريب قائلاً : « لقد سمعنا كثيراً عن تقدم المهاجرين العرب ولكن بماذا يفيد هؤلاء المهاجرون أوطانهم أو بماذا تستفيد منهم هذه الأوطان » ؟ والجواب على ذلك فى رأينا يتوقف بالأكثر على الدول والشعوب العربية لا على المهاجرين نفوسهم . فالمهاجرون فى أميركا قد ولوا أوكادوا ، وأولادهم قلما سمعوا عن العالم العربى ما يشجذ مخيلاتهم بالشوق إلى « الوطن القديم » . فقد أصبح هذا الوطن عندهم أرض خيال كما لو أنك أبرزته من صفحات « ألف ليلة وليلة » . فإذا شئنا أن نستفيد مما اكتسبه المهاجرون وأولادهم وأن نستغل اختباراتهم فعلياً أن نخرج مساقاً واسماً لتحقيق هذه الأمنية - مساقاً تهديبياً يقرب بين المهاجرين والتخلفين - مساقاً مرئياً إلى المنفعة المتبادلة والرخ المعرى . واختصاراً من وقت القارىء أثبت فيما بقى لى من هذه الفسحة بعض الاقتراحات التى تكشف للقارىء ما أعنى من هذا المساق .

فى الأدب والفنون

من المشارىع التى يجب أن تتحقق بوقت قصير لتوطيد أوأصر الصداقة بين المهاجرين وإخوانهم فى العالم العربى وضع كتاب فى « أدب المهجر » يقسم إلى جزئين : الجزء الأول منه يحتوى على منتخبات نثرية لأفضل ما كتبه أدباء المهاجر الأمريكية بالعربية والانكليزية والأسبانية والبرتغالية بعد ترجمتها إلى العربية . والجزء الثانى يحتوى على أفضل ما نظمه شعراء المهجر من القصائد الخالدة . فجرد نشر كتاب كهذا يفيد الأقطار العربية بىث روح جديدة فى الأدب العربى أو بتعزيز تلك الروح . هذا عدا ما ينطوى عليه نشر الكتاب من تشجيع لأدباء المهجر واعتراف بعقريتهم والتعارف بينهم وبين الأدباء فى العالم العربى .

ومما نقترحه فى هذا الباب أيضاً وضع كتاب فى تاريخ الهجرة العربية إلى العالم الجديد وإسترااليا وأفريقيا الجنوبية والغربية . وهذا الكتاب علاوة على أنه تحفة بحد ذاتها — إذا تحقق نشره — سيكون من أهم عوامل التعريف بين المهاجرين العرب والعالم العربى . وقد يرفق هذا الكتاب أو يتبعه كتاب آخر بسيط سلس العبارة عن حاضر العالم العربى بالانكليزية والأسبانية والبرتغالية .

وبضيق بنا المقام عن عرض اقتراحات أخرى فى هذا الباب كأنشاء معرض للمهاجرين فى بيروت مثلاً بإشراف الجامعة العربية يضم أفضل ما أنتجه المهاجرون من أدب وفن وصناعة . ثم هناك اقتراح آخر يجدر بالجامعة العربية الاهتمام به وهو تبادل رجال الأدب والصحافة والتفكير بين العالم العربى والديار الأمريكية وتنظيم سياحات خطبية لأجل هذا الغرض ودعوة الجمعيات الكبرى لعقد اجتماعاتها السنوية فى حاضرة من حواضر العالم العربى كل سنة . ومما يستدعى استعداداً كبيراً ويتطلب مالاً وفيراً ويجدر التفكير به منذ الآن تأليف شركة للترجمة والنشر تنشر أفضل ما يصدر فى العالم العربى من كتب الأدب والتفكير الاجتماعى والفلسفة والسياسة وغير ذلك فى دور النشر الأمريكية بالاتفاق مع أصحابها .

فى العلوم الصرفة والعلوم التطبيقية

لقد أصبح بين المهاجرين العرب عدد كبير من الاختصاصيين فى العلوم المختلفة يستفيد منهم العالم العربى استفادة محسوسة . فيجدر بالجامعات والكتليات العربية الاهتمام بدعوتهم

لإلقاء محاضرات أو أن تطلب الحكومات العربية خدماتهم في دوائرها المختلفة . على أن هناك فئة من الخبراء الذين اكتسبوا خبرة واسعة بالممارسة المستندة في أحيان كثيرة إلى علم صحيح وإن لم يكن مما يجعل أصحابها من العلماء . خذ لك مثلاً واحداً يكفيك مؤونة التطويل . أعرف في وتشيتا فولز Witchila fulls وتيلر Tyler (تكساس) عدداً من الاختصاصيين — من أبناء المهاجرين العرب — في التنقيب على البترول وحفر آباره . فاستخدام هؤلاء الفنيين في استثمار البترول لحساب الحكومات العربية وبمقتضى اتفاقات معقولة تعود على الخبراء بالربح وتبقى ملكية البترول بأيدي أصحاب البلاد ، أمر على أقصى ما يكون من الأهمية — لا سيما في هذه الأيام الحرجة التي تهدد العالم العربي باستعمار اقتصادي جارف . ومثل ذلك يقال في استخدام كثيرين من المهندسين والكيماويين والميكانيكيين من أبناء الجيل الثاني من المهاجرين . أعرف أحدهم خبيراً بصنع السلاح — من نوع التريلز — انتدبته حكومة الولايات المتحدة أثناء الحرب الأخيرة لترويج إنتاج مصنع سلاح عظيم في كندا .

تأسيس معامل مشتركة

وهنا نتقدم إلى اقتراح فيه فائدة قصوى قريبة المنال وهو تأسيس معامل صناعية كبرى يشترك فيها المهاجرون بأموالهم واختباراتهم وعلمهم . ولا يخافنا شك بأنه متى تأكد المهاجرون العرب وأولادهم من استتباب الأمن والسلام والحرية الشخصية في البلاد العربية فإنهم سيقبلون إقبالا عظيما على الاشتراك في هذه الشركات اشتراكا يدر عليهم ، وعلى الأقطار العربية كافة ، الربح الوفير . فالجامعة العربية تستطيع أن تسعى مع كبار رجال الأموال والمصارف والحكومات العربية لكي يؤلفوا شركات صناعية وعمرانية كبرى تشجع المهاجرين بالإعلانات في الصحف المهاجرة على شراء أسهمها واستخدام الفنيين منهم فيها . ومتى بدأت الأرباح تتسرب إلى جيوب المهاجرين يتدفق سيل من رؤوس الأموال الأميركية — العربية غير منقطع للاستثمار في هذه الشركات ويعود إلى الأوطان العربية مئات بل ألوف من المهاجرين ذوي الاختبار الواسع والمعرفة التكنيكية والثقافة المالية الذين إن لم تكن الأوطان العربية بحاجة ماسة إليهم فهي على الأقل تزداد غنى ورفحا بوجودهم .

ولأجل تحقيق هذه الاقتراحات وغيرها مما ياتئالها لابد للجامعة العربية من إنشاء مركز رئيسي في نيويورك ومثله أو فروع له في عاصمة المكسيك وحان باولو وبونس ايرس . فيكون هذا المركز الرئيسي أو المكتب العام الحلقة الموصلة لربط هذه العوامل الاتصالية

معا وتنسيقها وتنظيمها . وقد يدخل في هذا المكتب أو يوازيه مكتب آخر للدعاية العربية بين الشعب الأميركي . وفي هذا الاتجاه أيضاً نجد عدداً من الصحفيين والأدباء الأميركيين العرب الذين تستفيد منهم الدول العربية .

هذا ملخص وجيز لموضوع واسع لم نل إلا بأطرافه ولم نتوخ فيه إلا تنبيه الجامعة العربية ولفت نزار ذوى الشأن من زعماء العرب إلى وجوه أهميته المتعددة .

هيب ابراهيم